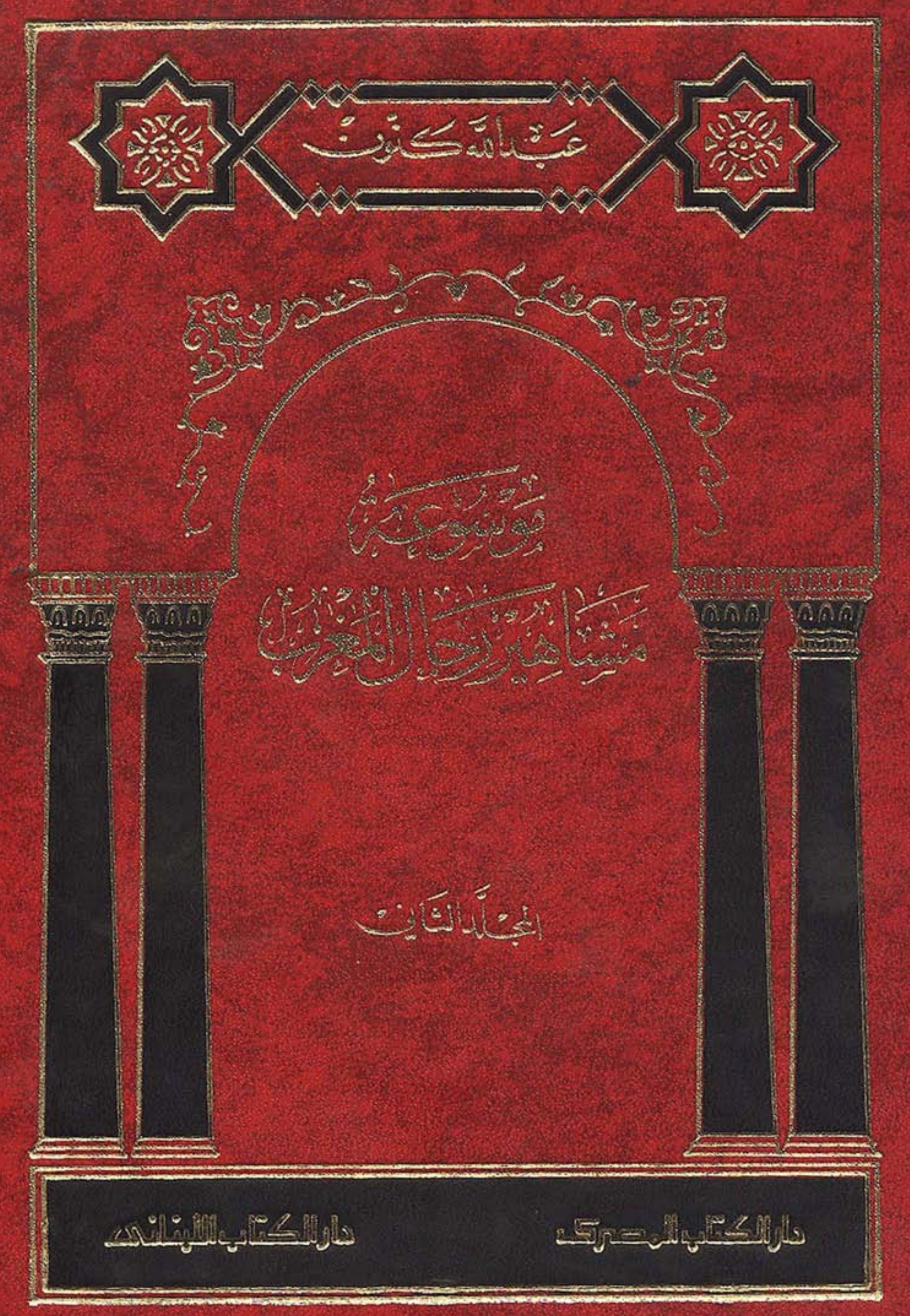
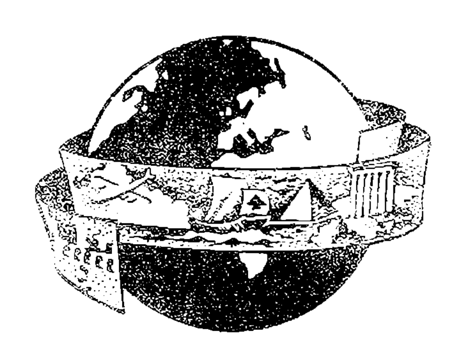

عبد الله كنون
موسوعة
مشاهير رجال المغرب
المجلد الثاني
دار الكتاب المصري
دار الكتاب اللبناني



دار الكتاب اللبناني

طباعة - نشر - توزيع

شارع مدام كوري - تجاه فندق البريستول

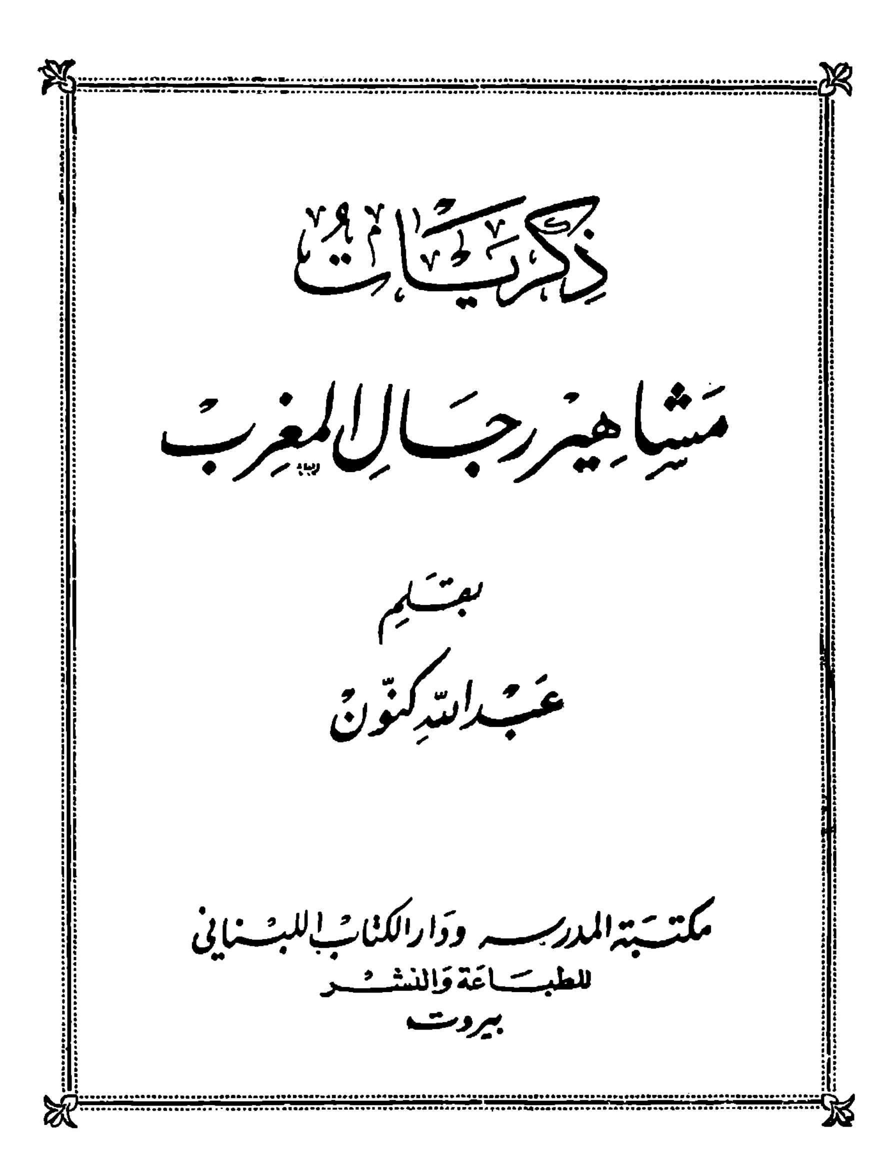
فاكسميلي: (٩٦١١) ٣٥١٤٣٣

ص.ب: ١١/٨٣٣٠ - برقياً: ناكلبان - بيروت - لبنان

Telex: No. DKL 23715 LE - ATT.: Mr. HASSAN EL-ZEIN

FAX: (9611) 351433 - BEIRUT - LEBANON

المجلد الأول	المجلد الثاني	المجلد الثالث	المجلد الرابع	المجلد الخامس
عبد العزيز الفشتالي	عثمان السلاليجي	أبو القاسم الشريف	إبن الياسمين	أحمد بن شعيب الجرنائي
أبو القاسم الزياني	ابن غازي	ابن الحاج الفاسي	ابن البناء العددي	ابن هاني السبتي
الوزير ابن ادريس	ابن زكور	أحمد زروق	الإمام إدريس	محمد المسناوي
إكنسوس	أبو الطيب العلمي	الشريف الإدريسي	أبو عمران الفسي	محمد بن المدني كنون
أبو جعفر بن عطية	ابن الونان	ابن بطوطة	السلطان محمد بن عبدالله	عبد الملك المعتصم
ابو العباس الجراوي	ابن عبدون المكناسي	عبد المهيمن الحضرمي	الأصيلي	محمد الخامس
ميمون الخطابي	أبو بكر بن شبرين	ابو العباس العزفي	عبدالله بن ياسمين	محمد بن عبدالكريم الخطابي
مالك بن مرحل	إبن رشيد	عبد الواحد المراكشي	يوسف بن تشفين	سابق البربري
عبد العزيزالملزوزي	أبو موسى الجازولي	ابن أبي زرع	ابن حبوس الفاسي	النابغة الهوزالي
الأمير سليمان الموحد	ابن أجروم	أبو حفص بن عمر	ابن زنباع الطنجي	أبو الحسن المسفر



ذكريات مشاهير رجال المغرب

بقلم

عبد الله كنون

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني
للطباعة والنشر
بيروت

طبع على مطابع دار الكتاب اللبناني
رأس النبع - بيروت - هاتف: ٢٥٨٧٠

11

عثمان السلاجي

عثمان السلاجي

اسمه ونسبه – بيته بفاس – مولده ومنشأه – دراسته – اشتغاله بالنظر في علم الاعتقاد – رحلته في طلب هذا العلم – نبوغه واشتهاره – انقطاعه للتعليم وعزوفه عن صحبة السلطان – مشائخه – أخلاقه – تلاميذه – عقيدته البرهانية – المغاربة كانوا على مذهب السلف في الاعتقاد – نفي التجسيم عنهم وبيان انه من تشنيع الخصوم – سبب تأليف البرهانية – شروحها – فصول منها – قول السلاجي في الامامة – وفاته .

o

هو الإمام المتكلّم النظّار أبو عمْرو عثمان بن عبدالله بن عيسى ويقال عَسْلُوج القَيْسي القُرَشي ، من أهل فاس ، عرف بالسّلاجي ، لأجل أملاك كانت له بجبل سَلِيلْجُو كان يتردد اليها من فاس قاله ابنُ القاضي .

وفي شرح المديوني لعقيدة المترجم أن سَليلْجُو اسم بلد من بلاد مَدْيُونة في قِبْلة مدينة فاس وعَمَلِها ، على مسيرة يوم ونصف منها ، وهو في بني مَسْرَت فخِذ من قبيلة مَدْيُونة المذكورة ، ولذلك يقال له أيضاً المَسْرَتي .

والمفهوم من كلامه أن أصله من هذه البلاد وسكن فاسا ، كما أن صاحب بيوتات فاس في القديم يقول : ان سكناه بجبل سليلجو وانه كان يتردد اليه من فاس ، فلعل الصواب في هذه النسبة هو ما ذكره هذان الأخيران من أن أصله من سليلجو وسكن فاساً ثم بقي يتردد إلى أملاكه في الجبل ، لا انه نسب اليه لمجرد تردده إلى أملاكه فيه كما قال ابن القاضي .

ثم انه قد يقال فيه السّلالِقي بالقاف كما ثبت عند ابن رُشَيْد في رحلته بخطه وكما في ترجمته عند ابن الابّار في القسم الذي طبعه الأرْكُون وبَلَنْسية من التّكْمِلة . وفي صِلَة ابن الزبير . ولا شك ان هذا التغيير إنما هو من باب قولهم : كل ما يجَمْجَم يُقَمْقَم ويُكَمْكَم ، لا سيما والجيم في اسم سليلجو هي هذه القاف المعقودة التي تتردد بين الجيم والقاف ، وهي الجيم المصرية كما اشتهرت اخيراً . وقد نبهنا في غير هذه الترجمة إلى اصطلاح العلامة ابن خلدون على كتابتها بالكاف المنقوطة ثلاثاً تجنّباً للالتباس ، والخطب في ذلك سهل كما يقولون .

وبيت السلاجي بفاس كان بيت ثروة وفقه ، وهم من العرب القيسية ، وكانت لهم نجدة ومشاركة في غير الفقه من العلوم كما يفهم من هذه القصة التي أوردها صاحب بيوتات فاس والكلمة التي عقب بها عليها قال :

« وكان أحد أحفاده أي — المترجم — بسِمَاط العُدُول ، وكان ظريفَ الشكل ، حسنَ الوجه ، صاحبَ شجاعة ، قويّ الساعد ، إذا رأيتَه بالنهار

تحسبه امرأة وبالليل يكون كالأسد ، يتسور سور البلد ، ويرمي بنفسه خارج المدينة ، وقد استعد لذلك بسكين في يده ، فان وجد من غشيه الليل بخارج المدينة ، يأتي معه حتى يوصله إلى مَغَارة صَنْهاجة التي بخارج باب الفُتوح... أو إلى مَغَارة مَغْرَاوة التي بخارج باب عَجِيسة .

ومر في بعض الليالي مع فتيان من أهل النجدة بالموضع المعروف بالطَّيْفور من خارج باب الفتوح ، فبصروا بسراج في بستان داخل المدينة . فقالوا : في أي مكان ذلك السراج ؟ فتحققوا انه في بستان التّنسي ... فقال : أنا اسير اليه . فتقلد سيفه وانصرف عنهم وتسوّر سُور المدينة وقصد بستان التنسي ، فدخل فوجد شمعة وامرأة معلقة من شعر رأسها في شجرة وهي قد أشرفت على الموت ، فرقّ لها وأنزلها من الشجرة وسألها عمن فعل بها ذلك فأخبرته ، وسألها عن دارها فعرّفته بها ، فجعلها في ظهره واحتملها إلى منزلها ، ورجع إلى أصحابه فأخبرهم بالقصة وحمل لهم ما وجده من الطعام مع الشمعة التي كانت في البستان .

وله أولاد فقهاء أصوليون أطباء بفاس الآن ، هـ. باختصار وتجويد للعبارة .

فأنت ترى هذا البيتَ النبيل ما كان أكثَرَ كفاياتِه ، واظهرَ مُروءاته ! وكان مولد أبي عمرو حواليْ سنة 521 . ونشأ نشأة صالحة في حال من الضعف والاقلال ، مُنْكبّاً على الدرس والتحصيل منقطعاً إلى العلم والمعرفة بكد واجتهاد ، ونية صادقة ، وحسن اعتقاد ، فبورك له فيما قرأ ، وفُتِحَ عليه

في الفهم فنال خيراً كثيراً في مدة يسيرة . وكان مما قرأ بفاس النحو وفروع الفقه ويسير من الاصول .

ورُوي عنه أنه قال : « كنت أقرأ مختصر ابن أبي زيد على أبي عبد الله محمد بن عيسى التادلي رحمه الله ، فسلمت عليه ذات يوم فلم يرد علي السلام ، فسألته عن موجب ذلك فقال : انك لا تقصد وجه الله تعالى بعلمك فلذلك لا يرد عليك السلام وينبغي ان تُهجَر . قال : فانصرفت عنه مغموماً مهموما ، فلقيت فتى من أصحابي فبت عنده ، وكان الفتى بطالاً وأبوه من طلبة العلم . فجعلت أنظرُ في كُتبه ، فوقع في يدي من كتب الاعتقاد التقريب والارشاد فأعجباني ، فقال لي صاحبها : هذا الارشاد هو المدخل إلى هذا العلم ، فحملته إلى الفقيه ابن حِرْزِهم وابن الرّمامة واستشرتهما في قراءته ، فأشارا لي بالنظر فيه . فقلت لابن حرزهم : أتأذن لي في قراءته عليك ؟ فقال لي اني ما أجيده فان قنعت بتعليم ما أعلمه فانظره .

فأخذته عليه (1) وكان يفتُر (2) في مواضع منه فما كملته عليه بالنظر حتّى استظهرته حفظا » .

وها هنا وقفة لا بد منها لنسجل مبدأ التحوّل في حياة المترجم بل حياة

1) بالأصل فاجدته وهي لا تتلاءم مع قوله اني ما أجيده ومع ما يأتي له من انه استشكل فيه مواضع لم يجد من يفيده بها .
2) بالاصل يفشي ولعل ما أثبتناه هو الصواب .

المغرب العَقَدِيّة ، فان هذا الانتقال من قراءة مختصر ابن أبي زيد إلى قراءة الارشاد لامام الحرَمين ، معناه الانتقال في الاعتقاد من مذهب السلف إلى مذهب الأشعري . وان هذا الفقيه التادلي بقَسْوته على تلميذه السلاجي لم يدر أنه كان يعمل على تقليص ظل السلفية من المغرب ، وإحلال آراء المتكلمين الأشاعرة محلّها .

والله يعلم ما هذا الذي لاحظه على تلميذه حتى رماه بتلك التهمة الخطيرة ، وكان السبب في مقاطعته له بهذه الكيفية الصارمة ؛ أيكون آنس منه ميلاً إلى سلوك طريق المأوّلين ، والأخذ بنظر المتأخرين في القول بالجوهر والعرض ، والحال والصفة وما إلى ذلك ، ويكون هذا الميل من صاحبنا هو الذي وجد ما يرضيه في كتاب الارشاد وما كان على شاكلته ؟!..

وأيّاً ما كان ، فقد سجل لنا السلاجي عدَم إلمام علماء المغرب في ذلك العهد بعلم الكلام على طريقة الأشاعرة ومن كان ينحو نحوهم من المتكلمين في الصفات والادلة . ألا ترى إلى قول فقيه فاس وكبير علمائها أبي الحسن ابن حرزهم للمترجم في كتاب الارشاء : « أنا ما أجيده » .

وحقاً فقد كان علماء المغرب لذلك العهد ، والمغاربة على العموم ، أمْيَل إلى مذهب أهل الحديث والرّعيل الأول من السلف الصالح في عدم التأويل ، وإقرار الصفات المتشابهة ، وترك الخوض في الكلام جملة ، ولهذا طرّقْنا احتمال إنكار الفقيه التادلي على تلميذه السلاجي لاجل تشوفه إلى شيء من

هذه المباحث . انما هذا لحرصه على هذا المطلب ، ورغبته في تحقيق هـــذا المذهب ، لم يقنع بما حصل عليه من قراءة الارشاد على الشيخ ابن حرزهم فقد بقيت في نفسه أشياء من ذلك الكتاب لم يحققها ولم يعرف صوابها من خطإها ، ولذلك عزم على الرحلة إلى المشرق لاشباع نَهْمته من العلم .

ولنستمع اليه يحكي ما حصل له في هذه الرحلة ، والسبب الحامل له عليها وهو قوله بعد ما سبق عنه مباشرة :

« فنمتُ ذات يوم في المسجد الجامع ، فرأيت في النوم شخصين قصدا لي فدفع أحدهما في صدري فانفتح ، وكان أحدهما يصب الملح فيه وهو يلتحم إلى أن التحم الشّقّ كله ، فانتبهت وأنا أجد في صدري الألم ، فقمت وأتيت إمام المسجد الجامع ، مَهْدِي الخطيب ، فقصصت عليه الرؤيا فقال لي ما هذا العلم الذي تنظر فيه الآن ؟ فقلت له انظر في علم الاعتقاد في كتاب الارشاد فقال الزَمْه فانه سيُفتَح لك فيه .

فأشكلَ عليّ فيه جملةُ مسائل ، فلم أجد من يشفي منها صدري فعزمت على الرحلة إلى بلاد المشرق في فهم الكتاب ، فسافرت إلى مدينة بِجاية فعزمت على دخول البحر في جمع كثير ، فسجن الوالي كل من عزم على التوجه إلى المشرق ، فهربت أنا وصاحب لي من السجن بالليل ، فرجعت إلى فاس وبلغني أن الوالي قتل جميع المسجونين معي في بجاية » .

وهكذا يرجع صاحبنا خاويَ الوِفاضِ مما قصد اليه ، محروماً من نتيجة

الرحلة التي تكبد مشاقها في غير طائل بل كادت تذهب بنفسه لولا حفظ الله وفسحة من العمر بقيت له ، ليقوم فيها بالمهمة التي خُلق لها على ما سنراه من بعد .

ونلاحظ من كلامه أن الجو العلمي لم يكن يلائم هذا التوجه الذي أخذ به نفسه ، فهو يلتمس الحجج لذلك ، بحيث لم يرحل حتى حصل له الاذن ضِمْناً في عالم الرؤيا بالارتحال ، إذ كان وضْعُ المِلْح في صدره معناه : العلم كما عبره امام المسجد أليس يقولون: «اجعل عِلْمَكَ مِلْحاً وأدَبَك دقيقاً؟ ! »

والعلم الذي كان يطلبه وملأ الاهتمامُ به شِغافَ قلبه هو علم الاعتقاد في كتاب الارشاد ، فليلزمه ولينصرف إلى تحصيله ولو بالرحلة ، وهذا ما نظر فيه أولاً حتى استأذن أستاذيه أبا الحسن بن حرزهم وأبا عبدالله بن الرمامة فأذِنا ه ، وأولهما نظر فيه معه فهو إذ يحكي هذه الحكايات إنما يمهد السبيل لهذا العلم بين قوم لم يكونوا من الراغبين فيه ، ويبشر به في وسط كان يراه كفراً أو قريباً من الكفر .

وذلك سرّ من أسرار اعتماده واتخاذه إماماً في هذا الشأن إذ لا يخفى ما كان للإذْن وللرؤيا في الزمن الماضي من التأثير القوي على نفوس الجماهير .

ولنواصل مع المترجم حكايةَ طلبه ، وتحصيله لهذا العلم ، فهو بعد رجوعه إلى فاس من بجايـة سالماً بجِلْده ، فارغَ اليد مما رحل اليه ؛ طلبه بعضُ الرؤساء

لتعليم أولاده وحمّلَه معه إلى مراكش حيث لقي الشيخ أبا الحسن اللّخْمي المعروف بابن الإشبيلي وكان ذا بصيرة في كتاب — الارشاد — فلازَمه مدة حصلَ له فيها فهم ذلك الكتاب وفُتح عليه كل ما أُغلق من معانيه ، كما يقول تلميذه أحمد بن عيسى الأنصاري حاكياً عنه .

وقال تلميذه الحافظ الراوية أبو الحسن بن عتّيق : لما رحل أبو عمرو إلى مراكش لازم الفقيه الامام أبا الحسن علي بن الاشبيلي ، وانتفع به وفُتِح له على يده في أصول الدين وأصول الفقه ومسائل الاتفاق والاختلاف وفي مسائل القلوب على طريقة الحارث المُحاسبي وبلغ في ذلك المنتهى ، ولحق درجة المجتهدين والنظار المتْقِنين ، وانحاز عن رتبة المستفيد .

وكان يحضر مجلس سيدنا أمير المؤمنين أيده الله مع جملة من الطلبة ، فظهر حِذْقُه وذكاؤه في المجلس ، وعرفه أمير المؤمنين عيناً واسماً ، وكان رضي الله عنه مُعرّضاً للترقي في منازل كبيرة سَنِيه ، ودرجات شريفة علية ، فزَهِد في ذلك كله ، وتركه لله عزّ وجل وتخلى عنه وانصرف راجعاً إلى مدينة فاس ، والتزم الاقراء بها لِبَثّ العلم لوجه الله ونشره وتدريسه ، وألْزَم نفسَه الانقباض والتصاوُنَ فانتفع بنفسه ، وانتفع به المسلمون وخرج على يده جملة من حذاق العلماء ... الخ » .

فقد أخذ عن ابن الاشبيلي غيرَ أصول الدين أو غير كتاب الارشاد ، علوماً وكتباً أخرى ، وأهمها التصوف الذي كان له أعظم الأثر في هذا التوجه الذي

اختاره لنفسه من الانقطاع للتعليم والارشاد والزهد في المناصب العلية ، وصحبة رجال الدولة مع ترشيحه لذلك وقرب مناله منه .

وابن الاشبيلي هذا أندلسي ، من الوافدين على المغرب ، ترجمه ابن الأبّار في التكملة وابنُ الزبير في صِلَته وقال : « استقر بمدينة فاس وكان اصولياً ماهراً ومتكلماً حاذقاً ، وهو الذي قرر علم الاصول وعلم الكلام بمدينة فاس ، أخذ عنه بها الأصولي الكبير أبو عمرو عثمان بن عبدالله السلالِقي المسْرَّتي ، وإلى أبي عمر هذا مرجعُ الفاسيين في هذا العلم » .

وهذا مخالف لما تقدم من أن أبا عمرو رحل اليه وأخذ عنه بمراكش ، ففيه درك على ابن الزبير .

ولم يذكر ابن الابار إلا أنه توفي بمراكش وان السلالجي وابن المَلْجُوم أخذا عنه .

ثم مَن هو أمير المؤمنين هذا الذي كان السلالجي يحضر مجلسه بمراكش ؟

الغالب أنه عبد المومن بن علي لأنه هو الذي كان السلالجي في أيامه شاباً في مقتبل العمر ، يرحل إلى مراكش بمعية أحد الرؤساء ويتردد في طلب العلم على ابن الاشبيلي فلا يتم نضجه وتظهر رغبة الدولة في استخدامه حتى يفيءَ راجعاً إلى فاس حيث ينقطع للتعليم ويشتهر أمره بين الناس .

وبعيد جداً أن يكون هذا الأمير يوسف بن عبد المومن أو يعقوب المنصور ،

لان السلاجي كما علمت لم يُطِل المُقامَ بمراكش ، فلم تمتد رحلته إلى أيام واحد منهما .

وأبْعَدُ منه أن يكون أحدَ ملوك المرابطين لأن آخرهم في الحقيقة هو علي ابن يوسف ، وقد مات والسلاجي لم يكمل العَقْد الثاني من عمره ، وهم لم يكونوا يلقبون بأمراء المومنين ، تأدباً مع خلفاء بني العباس ، وإنما كان لقبُهم أميرَ المسلمين، هذا فضلاً عن اختلاف منزَعهم في العقائد عن منزَع السلاجي، فانهم كانوا على طريقة السلف ، ولذلك كان الموحّدون ينعُون عليهم هذا المذهب ، ويسمونهم مُجسّمين . والسلاجي كان أشعرياً مناصراً لمذهب الموحدين فلذلك حظِي عندهم وظهر فضله في هذا المجلس السلطاني الذي كان يحضره مع الطلبة .

وقد مرّ لنا أن المترجم أخذ عن محمد بن عيسى التادِلي وأبي الحسن بن حِرْزِهم ومحمد بن الرّمامة ، وهؤلاء من علماء فاس المشاهير كما أخذ عن ابن الاشبيلي بمراكش ، وبقي جملة من شيوخه ذكرهم أبو الحسن بن عتيق في إحدى فهارسه فقال :

« أخبرني رضي الله عنه أنه لقي الشيخ الفقيه القاضي أبا مروان بن مَسَرّة فسأله الروايةَ عنه فأذن له ، وناوله كتاب البخاري وكتاب السنن لابي داود وكتاب أدب الكتاب ، وأجازه جميع مروياته .

قال : وأخبرني أنه قرأ الموطأ على ابي الحسن بن خليفة ، وحدثني به عن

أبي موسى عيسى بن المَلْجُوم عن أبي عبد الله بن الطّلاع عن القاضي يونس ابن عبدالله بسنده المعروف ، وأخبرني أن الشيخ الامام أبا عبدالله بن جَبَل أجازه جميع مروياته ، وكان يروي عن سُكّرة وغيره ، وذكر صحبتَه لابن الاشبيلي وأنه أخذ عنه جل ما عنده . ثم قال : وسمع كتاب الترمذي عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي بن جعفر .

قال : وفيما اجازه القاضي ابو مروان بن مسرة عن ابي اسحاق الاسدي عن ابي عُمَر بن عبد البَرّ النَمَيْري قال : انشدني ابو القاسم محمد بن نصير الكاتب لنفسه :

تخَيَّرْ سبيلَ الهُدَى جاهِداً ودعْ عنك مُشْتَبِهات السّبُل
وأصْبِحْ من الناس مُسْتَوْفِزاً فأكثرهُم راصِد للزّلَل
وأحسَنُ مَن قدْ تَرَى منهم لعمرك يُردِي الشّجاعَ البَطَل
وتُصْمِي المَقاتِلَ أقوالهُم بألْسِنَة وقْعُها كالأسَل
ولا تَحْسِبَنْ إن تكُنْ غافِلاً مُرِيدَكَ بالسّرّ يَوْماً غَفَل
ومَن حَكّمَ الناس في عِرْضه فما جَارَ أكثر مِمّا عَدَل

فهذه النبذة كافية في الدلالة على سَعة روايتِه . وتنوع معارفه ولذلك كان يُنعَت بالامامة في العلم ، وقيل انه بلغ رتبةَ ابي المعالي الجُوَيْني المعروف بامام الحرمين صاحب كتاب الارشاد وغيره ، ووقع الاطباق على انه عُمدَةُ اهلِ المغرب في علم الاعتقاد وانه مُنقِذ اهل فاس من التجْسيم .

ومما لا ريب فيه انه برع في العلوم الشرعية ، وتخصص بالنظر في علم الكلام والاطلاع على دقيق مسائله ، والبحث في عَوِيص مشاكله ، وانه كان ذا همة عالية ، ونية صادقة في التعليم والارشاد .

والنصح للعباد ، مع الزهد والورع والدين المتين ، مما حببه الى الناس كافة والى تلامذته خاصة ، فما يذكره احد منهم الا ويترَضّى عنه ويثني عليه الثناء الجميل ، ويُعظّم قدره ويذكر من فضله ماقل ان يذكره تلميذ عن شيخه .

فهذا تلميذه احمد بن عيسى الانصاري يقول في حقه : « زهد في الدنيا واهلها وانتصب لتعليم العلم لوجه الله الى ان التحق بالله تعالى وانتفع ونفع المسلمين عفا الله عنه ونضر وجهه » .

وهذا تلميذه ابو الحسن بن عتيق يقول عنه بعد كلامه السابق فيه : «وخاف الله تعالى فراقَبه ، وعمل بمقتضى ما علِم فشرَح صدره وعلّمه عِلْمَ ما لم يعلم ، ووهبه من الفهم لخطاب الشارع صلى الله عليه وسلم والتفقه فيه ، والعلم بمقاصده ، والكشف لمعانيه ، ومن التحقيق والتنسيق ، والتحرير والتدقيق ، مايقصُر عن وصفه اللسان وتَكِلّ دون البلوغ الى كُنْهه الاذهان واتقى الله تعالى فوقَاه ، وتوكل عليه فكفَاه ، واهتدى بهديه فوفقه وهداه وجعل له من امره يُسْراً ومَخْرَجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسبُ ووضع البركة في عِلمه وعمَله ، ورزقه من الصبر والاحتمال وحسن الخلق والعِشْرة والادب ما لا مزيد عليه ، وحاسب نفسه في لحظاته وخطراته وكلماته وحركاته

وسكناته، حتى تقيدت افعاله كلها باحكام الشرع ، وجرت على مُقتضَيات اوامر الباري تعالى واذنه ، واقتدى بهدي السلف الصالح رضي الله عنهم ففتح له وعلى يده فتحا خرق العادة ، وحرك النفوس، وقامت به الحجة على المبطلين ؛ مع حَداثَة سنه ، وقِلة تمكنه مما يجده غيرُه من المال والجدَة وسعه الحال، فساد اقرانَه ورأس اخوانه وشرف جيرانه، وزيّن عصره ووقته وزمانه ، اسأل الله تعالى ان يجعل البركة في عمره ورزقه ، وان ينفعه ويكفيه كلّ هم » ﻫ.

فناهيك بهذه الاوصاف التي يصفه بها تلاميذه ، والعواطف التي تَجيش بها صدورهم نحوه ، دليلا على رفعة القدر وعلو الشأن ، وانه كان من اولئك الافراد القلائل الذين لا يجود الزمان بمثلهم الا في الفَيْنَة النادرة ، يؤدُون ما عليهم من واجب ويبلغون ما حملوه من رسالة ، ولا يكون غرضهم في الدنيا الا الوصول الى الغاية المطلوبة والقيام بمهمتهم على احسن الوجوه فهم المصلحون الحقيقيون ، وهم المجددون الذين ورد فيهم الحديث وبالحري هم العلماء ، ورثةُ الانبياء ! .

الا ترى الى الرجل كيف زهد في المنصب والجاه ، وانقطع الى العلم والتعليم وكان يعرف ان عليه تَبِعةً من اعظم التّبِعات هي تقرير امر العقائد للناس ، وتسهيل ما عسُرَ عليه للطلبة ، فلا يمرّون بتلك المراحل التي مرّ عليها ، ولا يعانُون من الصّعاب ما عاناه حتى كادت نفسه تفلِت ، وروحه تزهَق في سبيل هذا العلم (علم الكلام) وتحصيله ، وتحرير مشاكله، وتقرير مذاهبه،

فهو الآن منقطع للتدريس وتعليم الجهال،لا يبغي اجرا على ذلك ولا يطلب مَثُوبة من احد ، حتى الطلبة يريدون خدمتَه فينهاهم عن ذلك ويقول لا تفسدوا علي نيتي .

حدّث احمد بن عيسى الانصاري قال : سمعت ابا الحجاج يوسف ابن موسى يقول : رأيت ابا عمرو يحمل خُبْزَه الى الفُرْن فيُرِيد تلاميذُه ان يكفُوه حمله فيأبى من ذلك . الى ان قال لهم : ما انتصبت للتعليم الا لوجه الله تعالى ، فاذا لقيني احد منكم فلا يعرض لخدمتي بشيٌ ، فاني اخاف ان تفسدوا علي نيتي .

قال : وكان يمر بالابواب فيجد النساء قد اخرجن الخبز لمن يحمله لهن الى الفُرن فيحمله بنفسه الى الفرن ﻫ .

وهكذا كانت أخلاقه اخلاق الاولياء الصالحين ، واحواله احوال العلماء العاملين ، وبذلك استحق ان يذكره التادلي في كتاب التشوف الى معرفة رجال التصوف وان لم يكن العلماء من هذا الصنف اولياء الله فليس لله من ولي .

وقد انشد التادلي في ترجمته ـ على العادة عنده ـ قطعة شعرية تناسب ما كان عليه من أحوال ، وجعلها المديوني في شرحه للبرهانية من نظمه وفي بعض أبياتها غموض وتحريف فلنقتصر منها على الواضح السالم فمنه قوله :

إذا العلم لا تحشو غرائبُـــــه قلبي
ولا ساقني منه إلى المنهَل العـــذْب

ولا كـــان حظي منـــه إلا حكايةً
على الناس أتلوها فحَسْبي إذن حسبي

وقوله :

أليس عجيباً ان نفسي حقيقتي وماسِلْمُها سلمي ولا حَرْبُها حربي

على أن صاحب جذوة الاقتباس نسَب له بيتين من الشعر في هجاء أهل فاس وهما :

خذُوا ضماني الا تفلحوا أبداً ولو شَرِبتم مدادَ الكُتْبِ بالصّحف
أنتم صغارٌ كبارٌ عند أنفسكم هل يستوي مَن يقيس الدرّ بالصّدف

وهو منزع غريب عن سيرته وأخلاقه ، ولو كنا ممن يتسرّع فينفي ويثبت بمجرد الظنّ والارتياء ، لنفَيْناهُما عنه ، ولكنهما قد قيلا فرُوِيا ونُسِبا اليه ، وللنفس نَزَغات ، والبشر هم البشر في كل زمان ، فماذا يمنع أن يكون الشيخ هو قائلهما ويعني بهما بعض أهل الاذاية الذين لا يخلو منهم مكان و (لكلّ عليٍّ في الأنام مُعاوِية) !...

وإلى الآن لم نذكر من تلاميذ السلالجي إلا أحمد بن عيسى الأنصاري وأبا الحسن بن عتيق ، وناهيك بهما ! ولكن ابن الابار سمّى ممن أخذ عنه أبا عبدالله بن عبد الكريم الكتّاني وأبا الحجاج بن نموي وأبا الربيع الشّرْطي من أهل فاس ، ممن شاركه في الأخذ عن ابن الرمامة وأخذ عنه علم الكلام

فهم إذن خمسة من الأئمة يفتخر بهم ، ولا شك أن غيرهم كثير ، وإنما أهمل مترجموه ذكرهم ، ومن طريق ابن الكتاني روى عنه الارشادَ الرحّالةُ ابن رُشيْد . قال في ترجمة أبي جعفر اللّبْلي عند التعرض لمروياته في الجزء الثاني من الرحلة :

« كتاب الارشاد قال (ج) قرأت جميعَه تفقّهاً على الشيخ الصالح الزاهد الورع الفاضل أبي بكر يحيى بن ثابت البَهْراني وأخبرني به قراءة منه بفاس على الشيخ العالم الزاهد الورع الفاضل أبي عبدالله بن علي بن عبد الكريم الفَنْدلاوي المعروف بابن الكتّاني عن الامام الزاهد أبي عمرو الفاسي المشهور بالسلالقي مؤلف العقيدة البُرهانية المشهورة بالسّلالِقيّة وهي على صغر جرمها مختصر الارشاد » .

* * *

وأما بعدُ ومعَ وقبل ، فان ما حصل به الشيخ على الشهرة الواسعة وأبقى له الذكر الحسن في الناس ، هو هذه المقدمة العقديّة التي شهرت (بالبرهانيّة) واقترنت بذكر جهاده في بث عقيدة أهل التأويل ، ومحاربة عقيدة أهل التسليم الذين يسمونهم على سبيل المُغالَطَة مجسمين .

ولا بد قبل الخوض في الكلام على هذه (المقدمة) من مقدمة تشرح الحال وتبين ما كان عليه أهل المغرب في أمر الاعتقاد مِن لَدُن الفتح الأوّل إلى أوائل القرن السادس حين قام المهدي بن تومرت بدعوته عام 515 .

قال ابن خلدون أثناء كلامه على المهدي بعد ذكر رحلته إلى المشرق في طلب العلم : « وانطوى هذا الامامُ راجعاً إلى المغرب بحراً متفجراً من العلم وشهاباً وارياً من الدين ، وكان قد لقي بالمغرب أيمة الأشعرية من أهل السنة ، وأخذ عنهم ، واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفية ، والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة في صدر أهل البدعة ، وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث ، بعد أن كان أهل المغرب بمَعْزِل من اتّباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه ، اقتداء بالسلف في ترك التأويل وإقرار المتشابهات كما جاءت ، ففطّنَ أهل المغرب في ذلك وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم ، وألف العقائد على رأيهم مثل (المرشدة) .

وكان من رأيه القول بعصمة الامام على رأي الامامية من الشيعة ، وألف في ذلك كتابه الذي افتتحه بقوله : « اعز ما يطلب » فصار هذا المفتتح لقباً على ذلك الكتاب الخ » .

وقال أيضاً في المقدمة وقد تعرض لذكر المرابطين واللقب بأمير المومنين : « وجاء المهدي على أثرهم داعياً إلى الحق آخذاً بمذهب الأشعرية ناعياً على أهل المغرب عُدُولهم عنها إلى تقليد السلف في ترك التأويل لظواهر الشريعة وما يؤول إليه ذلك من التجسيم كما هو معروف من مذهب الأشعرية ، وسمى أتباعه الموحدين تعريضاً بذلك النكير .

وكان يرى رأي أهل البيت في الامام المعصوم ، وانه لا بد منه في كل زمان يحفظ بوجوده نظام هذا العالم ، فسُمي بالإمام لما قلناه أولاً من مذاهب الشيعة في ألقاب خلفائهم ، وأردف بالمعصوم إشارة إلى مذهبه في عصمة الامام ، وتنزه عند أتباعه عن أمير المومنين أخذا بمذاهب المتقدمين من الشيعة ، ولما فيهامن مشاركة الأغمار والولدان من أعقاب أهل الخلافة يومئذ بالمشرق الخ».

فهذا الكلام يشتمل على أمور :

أولها — أن أهل المغرب قبل قيام المهدي بن تومرت بدعوته كانوا على مذهب السلف في الاعتقاد من اقرار النصوص على ظاهرها وعدم تأويلها كما يفعل الأشاعرة ، وانه لا تجسيم هناك ، وانما هو ما يَؤُولُ اليه ذلك أي عدمُ التأويل من التجسيم .

ثانيها — ان مذهب الأشاعرة المؤولين لم يعرف بالمغرب حتى جاء به المهدي ابن تومرت وحمل الناس عليه حملاً بالدعاوة أولاً ثم بالقوة ثانياً ، ومعلوم أن المهدي رحل إلى الأندلس ثم إلى المشرق سنة 500 فحج ولقي الأئمة أبا حامد الغزالي وأبوي بكر الشّاسي والطّرْطُوشي وعاد عام 512 فبقي يجول في بلاد المغرب آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، داعياً إلى مذهبه نحواً من ثلاث سنين ، ثم أعلن بدعوته ودعا إلى نفسه سنة 515 ، فمترجمنا أبو عمْرو السلاجي الذي ولد في عام 521 إنما تلقى عقيدته واعتنق مذهب الأشعرية في ظلال الدولة الموحدية وبعد دعوة إمامها لهذا المذهب بسنين .

ثالثها — ان مما دعا اليه المهدي زيادة على مذهب الأشعرية القول بعصمة الامام على رأي الامامية من الشيعة ، وقد صار هذا مذهباً رسمياً للدولة حتى كان يعلن به من فوق المنابر .

ويستخلص من هذه الأمور :

أولاً — ان أهل المغرب لم يكونوا مُجسّمين ولا كان التجيسم لهم عقيدة ، إلا أن يقال مثل ذلك في السلف الصالح رضوان الله عليهم ، وقد قاله أعداؤهم وخصومهم من أهل البدع والأهواء وهذه عقيدة ابن أبي زيد بأيدينا تدلنا على ما كان يعتقده أهل المغرب قبل قيام الدعوة الموحدية ، من العقائد السلفية الطاهرة التي لا زيغ فيها ولا إلحاد .

وتقدم عن السلاجي أنه كان يقرأ أولاً مختصر ابن أبي زيد ثم تحول عنه إلى لارشاد والتقريب ، وأن أستاذه أبا عبد لله بن عيسى التادلي الذي كان يقرأ عليه مختصر ابن أبي زيد قاطعه وقال له إنك لا تقصد وجه الله تعالى بعلمك ، أفيكون ذلك لما آنَسَه فيه من الميل إلى مذهب المؤولين ؟

وأما أن هذا المذهب يؤول إلى التجسيم فليس بكاف لرمي أمة من أنظف الناس اعتقاداً بهذه العظيمة ، وقد تقرّر أن لازِمَ المذهب ليس بمذهب ، وابن خلدون نفسه يقول في محل آخر من المقدمة وقد رد مذهب النافين لظواهر الصفات من غير تأويل ما نصه :

« ولم يبق في هذه الظواهر إلا اعتقادات السلف ومذاهبهم والايمان بها كما هي ليلاً يكرّ النفيُ على معانيها بنفيها مع أنها صحيحة ثابتة من القرآن ، ولهذا تنظر ما تراه في عقيدة الرسالة لابن أبي زيد وكتاب المختصر له وفي كتاب الحافظ بن عبد البر وغيرهم ، فانهم يحُومُون على هذا المعنى ، ولا تغمض عينك عن القرائن الدالّة على ذلك في غضون كلامهم » .

فأنت ترى كيف جعل عقيدة السلف الطاهرة هي عقيدة المغاربة الموجودة في كتبهم ، وان ما يوهمه مذهبهم في ذلك من المحظور غيرُ مراد لدلالة القرائن على نفيه .

ومِن ثمّ نقول : ان هذا الذي تُلزِمون به عقيدةَ أهل المغرب إذ ذاك ، يلزم مثلُه أو أفظعُ منه عقيدة الأشاعرة المؤولين ، ألا ترى أن تأويل الصفة بما ليس ظاهراً فيها ربما أدى إلى نوع من التعطيل ، وإذا قلنا الأشاعرة المؤولين ، فلأنّا نستثني منهم من لا يُؤوّل ممن درَج على القول الأخير للامام أبي الحسن الأشعري الذي حكاه عنه الامام ابن عساكر في كتابه — تبيين كذب المفتري ، فيما نسب إلى الامام الأشعري — وهو عدم التأويل .

ثانياً — ان أهل فاس لم تؤثر فيهم دعوةُ الموحدين ، وبقي اعتقادهم على مذهب السلف حتى ان السلاجي رحمه الله لم يجد بفاس من يقرئه كتب الأشاعرة كالارشاد والتقريب ، وانما كان قرأ على أستاذه أبي عبد الله بن عيسى التادلي مختصر ابن أبي زيد ، وبما أنه كانت تترامى إليه هذه المقالات من علم الكلام

على مذهب الأشعري وهو شاب متعطش إلى العلم والمعرفة فانه بقي في المُقيم المُقْعِد حتى رحل ولقي من فتح له مُغلَق هذا العلم ، فرجع إلى فاس وكرّس جهوده لنشره وتقليص ظل السلفية من القرويين .

وقد تقدم وصف انقطاعه إلى التعليم ، وما كان له من نية صادقة في سبيل نشر العلم،وتعظيم الناس له،وتعلقهم به،فلا جرم أن يكون امامَ أهل فاس في علم الاعتقاد ومرجِعَهم في تقرير مذهب الأشعرية وأن يقال عنه انه الذي أنقذهم من التجسيم على ما بيناه من المراد بهذا التجسيم .

ثالثاً – ان مما يزيد في رفعة شأن مترجمنا وعلو قدره أنه إنما أخذ عن الموحدين مذهبَ الأشعرية في الاعتقاد ، ولم يأخذ عنهم شيئاً من هذا المذهب الشيعي الذي أتوا به وأدخلوه على الأمة المغربية من القول بالامامة والعصمة ، فانه كما تقدّم رحل إلى مراكش وبها حصل ماحصل من علم الكلام ، وفتق رتْق كتاب الارشاد على ابن الاشبيلي هناك ، وفاق وبَرع وتأدّى به الحال إلى حضور مجلس الخليفة ولُوحِظ بعين العناية ، حتى كان يُرشّح للمناصب الرفيعة إلا أنه زهد في ذلك كله وعاد إلى بلده فاس وتصدى فيها للتعليم ولم يعرج على شيء من دعاوى الموحدين ولم يكن بُوقاً قط لمذاهبهم ، لأنه أخلص النية لله في هذه الدعوة التي قام بها ، وعرف بطلان تلك الدعاوى الأخرى فأعرض عنها بل لعله ما فرّ إلا منها وما حمله على مغادرة مراكش إلا خوف الوقوع في أوحالها .

وكيف وهي دعوة كانت قد استعلنت حتى ملأت الآذان وانتصب للتبشير بها شيوخ المصامدة وخطباءُ المساجد في كل مكان فإغفالُ السلالجي لها وتجاهُله إياها مما يدل على متانة دينه ، وقوة يقينه لا سيما إذا علمنا أن القوم بلغوا من التعصّب لدعوتهم هذه أنه قتلوا ولدَ بن الصّقْر ، لما ردّ على الخطيب حين فاه باسم المهدي وعصمته ، وذلك في زمن المرتضَى من خلفائهم ، وقد أراد الخليفة أن يسجنه فقط ، ولكن الأشياخ والوزراء من الموحدين أبوا إلا قتله فغلبوه على أمره وقتلوه كما ذكر ذلك أبو اسحاق الشاطبي في كتاب الاعتصام .

فهذا مما زاد في اجلال الناس للسلالجي وإكبارهم له وسماعِهم قولَه وأخذِهم بمذهبه : أن رأوه يأخذ بحق ما عند القوم ويذر باطلَهم كما ننظر نحن اليوم للداعية المخلص يدعو المسلمين إلى أخذ ما عند الاوربيين من علم وفن وصناعة ، ويحضهم على التمسك بدينهم وعاداتهم وأخلاقهم ولا ينخدع لما يَلْتَمِعُ في الأعين من زخرف وطلاء وتمويه .

وإذ بينّا هذه الأمور الثلاثة وما يستخلص منها ، فلنوجه النظر إلى عقيدة السلالجي ؛ هذه المقدمة التي تُعرف بالبرهانيّة ، والتي قامت عليها أو على مبدئها شهرة السلالجي كإمام من أئمة المتكلمين حتى قارنوه بإمام الحرمين رحمهما الله معاً .

ونبادر فنقول : ان هذه المقدمة تقع في بضْع صفحات من القطْع الصّغير ليس غير ، فهي من حيثُ الحجمُ أشبهُ بمقدمة ابن آجرّوم في النحو ، ومن

الغريب أنْ تقوم شهرة الرجلين على مؤلف بهذه المثابة من الصّغَر ، ولكن الاعتبار بالكَيْف لا بالكمّ ، وبالنوع لا بالعدد .

وسبب تأليفه لها هو ما حكاه تلميذه أبو الحسن بن عتيق قال : « كان بفاس امرأة تسمّى خَيْرُونة ، وكانت من الصالحات القانتات ، الزاهدات الغافلات المومنات ، وكانت تعظّمه وتوقّره ، وتلتزم مجلسه ، فرغبت إليه أن يكتب لها في لوحها شيئاً تقرأه على ما يلزمها من العقيدة فكتبها ، فأخذتها أنا وقام بفكري ان أرتّبها فصولاً ، وأعمل لها شِبْهَ الخطبة .

ثم شاورتهُ في ذلك فمنع منه وقال لي : لم أتعرض فيها أن تكون تأليفاً تكتب وتنشر ، وإنما كتبتها لخيرونة على وجه (كذا) ، فشاء الله أن تشيع فاترُكْها كما هي ولا تزد فيها شيئاً فتخرج عما قصد بها ، فتركتُها كما هي » .

هذا هو سبب تأليفها أو كتابتها على الأصح ، ومنه يظهر أن هذا التحميد وهذه التصلية في أولها ، والفصول المتخللة لها ليست من وضع السلاجي ولا من وضع تلميذه أبي الحسن بن عتيق .

وقد ذكر المديوني في شرحه ان الخطبة غير ثابتة في رواية الجماعة ، وإنما ثبتت في رواية ابن ناهض ابي الثّناء ، وعلى اثباتها شرح الأستاذ الحفّاف رحمه الله ، وعلى اسقاطها شرح أكثر المفسرين منهم أبو عبدالله الكتّاني وأبو القاسم بن الزّقّ وابراهيم بن بَزِيزَة وغيرهم .

ويظهر من هذا أن الناس اعتنوا بها كثيراً وانها أخذت دوراً كبيراً بين أمّهات العقائد ، فشُرِحت بعدة شروح ، ورويت بروايات مختلفة فضلاً عن اعتمادها الدراسة غيرَ قليل من الزمن .

وقد مضى عن الرحالة ابنُ رُشَيد قوله فيها انها مختصر الإرشاد على صِغرِ جِرْمها ، وهي كلمة تقريظ بارعة ، وان لم يكن السلاجي قصد إلى هذا الاختصار كما رأيت .

وإلى القارىء طالعتها بخطبتها كما هي في نسختنا :

« الحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد خاتم النبيين والمرسلين ، اعلم — ارشدك الله — ان العالم عبارة عن كل موجود سوى الله تعالى وصفاته وذاتِه ، ثم العالم على ضربين : جواهر وأعراض ، فالجوهر هو المتحيّز ، والعرَض هو المعنى القائم بالجوهر .

والدليل على ثبوت الجواهر تناهي الأجسام في انقسامها إلى حد يستحيل انقسامه ، فذلك هو الجوهر لأن القِسْمة هي الافتراق والشيء الواحد لا يفارق نفسه فكل ما تألف معه فهو على حكمه وبه تفضُل الأجسام بعضُها بعضاً في الكبر والصغر كالذرّة والفيل لأن ما لا يتناهى لا يفضُل ما لا يتناهى ، وأيضاً ان ما لا يتناهى يستحيل دخوله في الوجود . »

بعد هذه الطالعة يأتي فصلُ الدليل على ثبوت الأعراض ثم فصل الدليل على حدوثها ثم فصل الدليل على حدوث الجواهر ثم فصل الدليل على ثبوت الصانع ، وهذا هو بنصه :

« فصل ، والدليل على ثبوت الصانع أن العالم جائز وجُودُه وجائز عدمُه ، فليس وجوده بأولى من عدمه ولا عدمه بأولى من وجوده ، فلما اختص بالوجود الجائز بدلاً من العدم المُجَوّز افتقر إلى مُقتضٍ وهو الفاعل المختار » .

فهذا هو نفس الدليل الذي درج عليه المتأخرون من المتكلمين كالسَّنُوسي وابن عاشر وأضرابهما ، وهذه الطريقة في تقرير العقائد من الاستدلال بأدلة المنطق وتقديم المقدمات العقلية مثل اثبات الجوهر والعرض وبيان خواصها وما يطرأ عليها هي نفس الطريقة التي استعملها أبو المعالي في كتاب الارشاد ولخّصها المترجم وتأدت من بعده لجميع المؤلفين المغاربة في هذا العلم فما يَفْتَأ يُدرّس بها حتى اليوم .

ومن ثمّ سجلنا أن مبدأ التحوّل العَقَدي في المغرب كان مع تحول المترجم من دراسة مختصر ابن ابي زيد إلى دراسة كتاب الارشاد ، وان كانت طريقة السلف لم تندثر منه بالكلية .

ونتابع ذكر فصول البرهانية فنقول : انه بعد فصل الدليل على ثبوت الصانع يأتي فصل الدليل على قِدَمه ثم فصل الدليل على قيامه بنفسه ثم فصل الدليل على مخالفته للحوادث ثم فصل الدليل على أنه عالم قادر ثم فصل الدليل على ثبوت الصفات الأزليّة ، ويعني بها صفات المعاني ، وعدّ من جملتها الإدْراك .

وفي هذا الفصل أقام الدليل على الوحدانية وعلى جواز رؤيته تعالى ، ثم تطرّق لذكر الجائزات من غير فصل . فيظهر ان المتَوَلّيَ وضْعَ كلمةِ فصل في أول العقيدة استغنى عنها في آخرها .

ولما ذكر من جملة الجائزات بعثةَ الرّسل تعرض لما يجب اعتقاده فيهم ، ولوجوب الايمان بما أتوا به ، والعمل بما بينوه من قضايا التكليف ، وذكر ان أصول الحكم الكتاب والسنة والاجماع . وعرّف الاجماعَ وذكر بعضاً مما أجمعت الأمة عليه ، ثم أفضى إلى ذكر الامامة فقال :

« ومن الجائزات عقدُ الإمامة ، ولها شرائط ، منها ان يكون قُرَشياً وان يكون مجتهداً مفتياً ، وان يكون ذا كفاية ونَجْدة في نزول الدواهي والملمات ، وليس من شرطها أن يكون معصوماً إذ لا معصوم إلا الانبياء عليهم السلام ، وليس من شرطها أن تثبت نصاً بل تثبت نصاً واجتهاداً ، وهذا ما أجمعت عليه الصحابة رضي الله عنهم أجمعين » .

ثم ختم بذكر أفضل الأمة بعد نبيها (ص) على ما هو معلوم .

وهذه الفقرة المتعلقة بالامامة هي مما يدل على جرأة السلاجي وعدم مبالاته بالخطر في جانب الحقّ يقولُه ، والسنةِ ينصرُها إذ لا يخفى ان مذهب الدولة كان مبنياً على المقالة الشيعية من الوصية والعصمة ، وقد نفى الأولى بقوله : « وليس من شرطها أن تثبت نصاً » ونفى الثانية مطلقاً عن غير الأنبياء . والقوم قد بلغ من تعصبهم لها أن قتلوا على نفيها . فهذا ما جعل الناس تُكْبِرُ المترجمَ وتُجِلّه وتقول انه ضَريبُ الأستاذ أبي المعالي ، وانه انقذ أهل فاس من التجسيم ، إذ أنها لم تر فيه إلا مكافحاً في سبيل الحقيقة منافحاً عن حريم الدين ، فرحمه الله وقدس روحه .

وكانت وفاته كما قال تلميذه أبو الحسن بن عتيق حسبما في شرح المديوني ، في ليلة الأحد لثلث الليل الأخير من ليلة أحد وعشرين من جمادى الأخيرة عام أربعة وسبعين وخمسمائة .

ودفن خارج باب الجيزيين (1) من مدينة فاس ،عُدوةِ الأندلس عند قبر درّاس بن اسماعيل ، وصلى عليه الفقيه أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن ابن خَنُوشة . وحضرَه من الخلق جمع عظيم وحفلٌ شنيع ، وأسِفَ الناس لفقده ودعوا له .

وهذا الذي ذكره ابن عتيق في وفاته هو الذي في الوفيات لابن قُنفُذ القُسَنْطِيني ، وفي نظمها للفشتالي ، قال مُشيراً إلى وفاة أبي يَعزَى يَلَنّور ابن عبدالله بقوله : (سركا) وإلى وفاة السلاجي بقوله : (لتقدم) من هذا البيت :

(يلنّور) فيه النجح (سرّكا) معاً (لتقدم) عن (سلاجيّ) بمكلل

ومعلوم أن مجموع نقط حروف لتقدم بحساب الجمل هو 574 .

وعليه فما في التشوف وتبعه عليه صاحبا الجذوة والسلوة من انه توفي عام 564 لا يعول عليه .

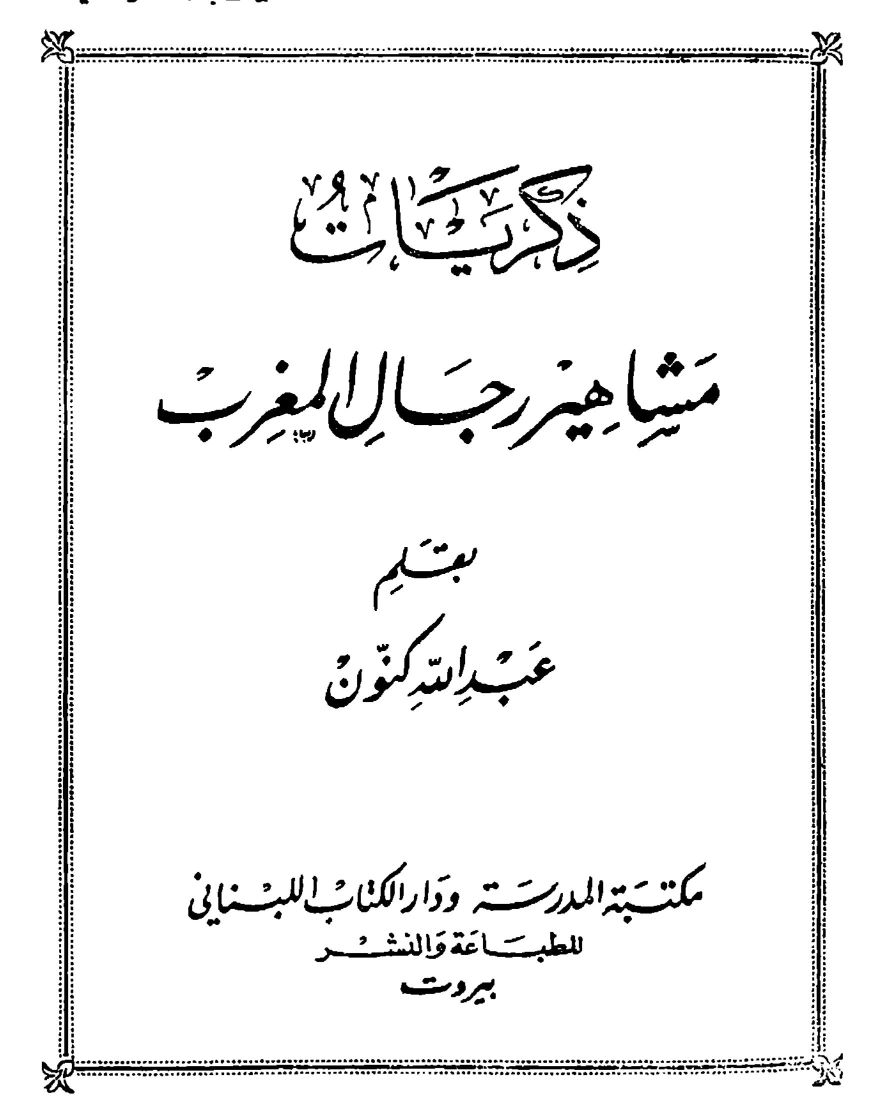
ونقل ابن القاضي عن بعضهم ان وفاته كانت سنة 594 ، وحكاه أيضاً في السلوة ، ولا شك أن تسعين هذه إنما هي تصحيف سبعين والله أعلم .

ولم يذكر ابنُ الابار في ترجمته له تاريخَ وفاته وهي ترجمة صغيرة في بضعة سطور .

---

1) ويقال لها باب الحمراء وبه تعرف الآن .

المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المكتبات المدرسية



ذكريات

مشاهير رجال المغرب

بقلم

عبد الله كنون

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني
للطباعة والنشر
بيروت

12

ابن غــازي

ابن غـازي

اسمه ونسبه – ولادته ونشأته – اثر امه في توجيهه – دراسته بمكناس وفاس – مشائخه الذين أخذ عنهم العلم – استقراره بمكناس ثم تحوله إلى فاس– السبب في ذلك – وظائفه الدينية – شخصيته – عناصر الشخصية – علمه واجتهاده – تلاميذه – مشاركته في حروب التحرير – وفاته وأسف الناس عليه – تراثه الفكري – مؤلفات عديدة في مختلف العلوم – افادات منه بين نظم ونثر .

هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن غازي العُثماني المكْناسي ؛ أحد علماء المغرب وأساتذته الذين عظُم بهم الانتفاع ، وملأ صِيتُهم البقاع . نسبُه في بني عُثْمان قبيلة من كُتَامَة على ما ذكره هو في الروض الهتون استناداً إلى ابن خلدون .

وفي نشر المثاني أن العَثَامِنة بطن من مُختار حوزَ مَكْناسَةِ الزّيتون . ولا يبعد أن يكون أصلهم من كُتامة واعتبر المترجم الأصل فقط .

وكانت ولادته ببلده مَكْنَاسة عام واحد وأربعين وثمانمائة كما قاله المَنْجُور في فهرسته ، خلافاً لما عند ابن القاضي من انها كانت سنة 558 قائلاً : انه هكذا رآها في الروض الهتون ؛ فالذي في الروض الهتون هو انه رحل إلى فاس لطلب العلم في السنة المذكورة — على ما يَظُن — فلعله وقع لابن القاضي تحريف في نسخته من الروض كما قال في السلوة .

وهذا نص كلامه في الروض بآخره : « قال المؤلف محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن غازي العثماني منسوباً لأبي عثمان ، وهو من قبيلة كتامة حسبما ذكر ابن خلدون في كتاب العبر : نشأت بهذه المدينة « مكناس » كما نشأ بها أسلافي وقرأت بها ثم ارتحلت إلى فاس في طلب العلم ، أظنه سنة ثمان وخمسين وثمانمائة . فأقمت بها ما شاء الله تعالى . ولقيت من الأشياخ بالمدينتين جماعة ذكرت مشاهيرهم في الفهرسة التي سميتها بالتعلّل برسوم الاسناد ، بعد انتقال أهل المنزل والناد . ثم عدت إلى مكناسة فأقمت بها بين أهلي وعشيرتي زماناً ، ثم انتقلت إلى فاس ، كلأها الله تعالى ، فاستوطنتها :

وكان ما كان مما لستُ أذكره فظُنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر »

وقد أفادنا في هذه الكلمة القصيرة بعدة أشياء . أولها بيان نسبه . وثانيها نشأته وطلبه العلم ببلده مكناسة ثم رحلته إلى فاس بصدد إكمال دراسته . وثالثها عودته إلى مكناس واستقراره بها بين أهله وعشيرته مدة من الزمان .

وهذه كلها أمور طبَعية لا تلفِت نظر الباحث كما يلفته رابعُ تلك الأشياء

وهو انتقاله بأخَرَة إلى فاس متوطناً لها من غير ذكر موجب لذلك ، إلا هذا البيت من الشعر الذي أنشده محاولاً صرف نظرنا عن البحث في هذا الأمر فكأنه أغرانا به ووكلنا بالكشف عن سره !...

والواقع أن مترجميه الذين قرأناهم ، قد اقتنعوا بهذه الاشارة فلم يُعرّجوا على ذكر السبب في انتقاله إلى فاس ، ولم يسألوا « عن الخبر » اليقين في ذلك بل ظنوا خيراً — كما أمرهم — وقالوا هذه مؤونة كُفِيت .

وما هي بأول غفلات مؤلفي التراجم عندنا عن العناصر الأصلية التي تتكون منها ترجمة الشخص الذي يعرّفونه كطفولته ونشأته وأخلاقه والأعمال النافعة التي قام بها والاحداث التي وقعت له في حياته وتاريخ ذلك كله ، إلى غير ما ذكر من المعلومات الواضحة التي تُعطينا صورة صحيحة عن الشخص الذي نتعرفه بالترجمة . فأما الألفاظ الجوفاء من الاسجاع المتكلفة والتحليات المبالغَ فيها — وهي ما يجتهد فيه المترجمون غالباً — فانها لا تكاد تفيدنا في هذا الباب شيئاً ، وأكثرها مما يتماثل حتى لا يعودَ فرق بين هذه الترجمة وتلك إلا في الاسم والتاريخ .

وعلى كل حال فان ابن غازي بعد ان كان استقر ببلده مكناس ، أزعِجَ عنها إلى فاس في الحالة التي جعلته يتمثل بذلك البيت من الشعر ، ومترجموه مع اعترافهم بامامته في العلم وورعه التام بحيث لا يصدر منه ما يوجب إخراجه من بلده شرعاً ، لم يعيروا هذه المسألة أدنى اهتمام ، فلننفُض يدنا منهم ولننظر ما تقوله المظان الأخرى عن هذه القضية .

قال المؤرخ ابن القاضي في درة الحجال في غير ترجمة ابن غازي بل في ترجمة الاستاذ محمد بن يوسف الترْغي : «وحدثني ان ابن غازي لما نفاه محمد بن ابي زكرياء يحيى بن عمر الوَطّاسي الملقب بالحلو عن مكناسة ، تميه بَوّابُ مكناسة وهو خارج منها قاصداً المشرق ـ اعني كان في ظنه ذلك ثم حبسه اهل فاس عندهم ـ فقال له البواب يوصيه: يامحمد ! عليك بالقراءة فمِنْ بَركتها بلغتُ هذا المنصب وهذه الخطة ! يعني خطة الجلوس لحراسة الابواب ، فكان ابن غازي يُسلّي نفسه بعد ذلك بقوله وكان امير فاس يومئذ محمد بن الشيخ ابي زكرياء » .

فهذه الحكاية تفيد ان ابن غازي خرج من مكناسة منفيا ، نفاه اميرها محمد الحلو أخو السلطان محمد الشيخ ، ولكن العلامة الناصري في الاستقصا يقول : « وفي سنة احدى وتسعين وثمانمائة استدعى السلطان محمد الشيخ الامام أبا عبدالله ابن غازي من مكناسة إلى فاس فولي الخطابة أولاً بالمسجد الجامع من فاس الجديد ثم ولي الامامة والخطابة ثانياً بمسجد القَرَوِيّين من فاس وصار شيخ الجماعة بها واستوطنها إلى أن مات رحمه الله » فبماذا يجمع بين هذين الخبرين المتناقضين ؟

لا شك ان النفي ان كان لقضية سياسية لا يُجامِعُ الاستدعاءَ الذي يدل على الكرامة ، خصوصاً إذا علمنا ان الاخوين السلطان والأمير لم تكن بينهما خصومة حتى يتعمد السلطان اغاظة أخيه باستدعاء ابن غازي ، كيف وقد كان هذا الأخ وزيراً له فضلاً عن امارته لمكناسة ؟ ...

وأما إذا قلنا انها خصومة شخصية بين الأستاذ ابن غازي والأمير محمد الحلو لم يجد السلطان معها بدّاً من استدعاء ابن غازي إلى فاس تَلافياً للضرر الذي يمكن أن ينشأ عنها ، فكيف نؤول ما جاء في حكاية ابن القاضي عن التّرْغي من ان ابن غازي لما نفاه محمد الحلو عن مكناسة خرج يريد المشرق ثم حبسه أهلُ فاس عندهم ؟... فمقتضاها انه لم يكن هناك استدعاء من السلطان وانه خرج من مكناس ناوياً مُغادرة المغرب ، وفي طريقه إلى المشرق حبسه أهل فاس عندهم .

وعلى كل حال فكلام ابن غازي نفسِه وإنشادُه للبيت المتقدم يشعر ان هناك خصومة حادة كانت بينه وبين أمير مكناس ، وان العناية التي لقيها من السلطان ومن عامة الناس منعته من الخوض في أسباب تلك الخصومة وما نشأ عنها من النفي والتشريد عن بلده ومَسْقِط رأسه مكناسة الزيتون التي أحبها وكلف بها وكان عازماً على الاستقرار فيها إلى الوفاة كما كانت مقراً لأجداده وسلفه من قبل .

وهذه عبارة له في الروض أثناء الكلام على رجالات مكناس من علماءٍ وغيرهم تشعر بأنه كان ينطوي من هذا الأمر على سر لا يرى إفشاءَه تقيةً أو رعياً للذّمام وهي قوله : « وقد كنت أردت ان أجمع من أمكن منهم مرتبين على حروف المعجم ، فجمعت منهم جماعة صالحة ثم خمدت القريحة عن ذلك وجمدت الطبيعة وعاقت العوائق وشط المزار .. وعدَتْ عوادٍ بيننا وخطوب . وما برز من الغيب فهو المختار ، وربك يخلق ما يشاء ويختار » .

على أنه فيما يظهر من حاله كان يتجنب الخوْض في مثل هذه الشؤون حتى لو لم تتعلق به ، فانا نجده عند ما تعرض لذكر شيخيه أحمد بن سعيد الحبّاك وأبي عبدالله القَوْرِي المِكْناسيّين وكان لقيهما بفاس يقول « وكان هذان الشيخان قد ارتحلا من مكناسة إلى فاس ، وسبب ارتحالهما مشهور عند الناس ، فلنَقْبِضْ عنه العِنان ، والله المستعان » فهذه من تلك ، ولا ريب ان هناك اعتبارات سياسية أو اجتماعية كان يراعيها في تركه للكلام عن سبب انتقال هؤلاء العلماء من مكناسة إلى فاس والله من وراء القصد .

وقد تقدم في آخر الحكاية المنقولة عن درة الحجال ان أمير فاس حين انتقل إليها ابن غازي كان هو محمد بن الشيخ أبي زكرياء وهو خطأ صوابه محمد الشيخ بن أبي زكرياء كما لا يخفى .

هذا ولا نترك الحديث عن هذه الحكاية حتى ننبه إلى ما فيها من الدلالة على خفة روح ابن غازي ولطف تندّره بقول البواب له وهو خارج من بلده مطروداً : يا محمد عليك بالقراءة فمن بركتها بلغت هذا المنصب !.. ولعل هذا البواب كان لا يرى في ابن غازي حتى ذلك الوقت ، وهو قد بلغ الخمسين من عمره وأنهى دراستَه بمكناس وفاس منذ سنين ، إلا طالباً ناشئاً لم يُحصّل بعدُ من العلم ما يستحق به أن يكون بواباً مثله فلذلك أوصاه بالقراءة ، وهي مشكلة العلماء مع الجهال والشباب مع الشيوخ لم تزل قائمة منذ الأزل ولن تزال إلى يوم الدين .

وبعدُ فلا يفوتنا أن نلاحظ كونَ القراءة هي شرط الولاية — كانت — في عموم المناصب حتى منصب البواب . وهذا في دولة بني وطاس ولم تكن من الدول العظمى بالمغرب ، فما ظنك بدولة الموحدين والمرينيين مثلاً ؟ ...

اولئك قــوم ان بنَوْا احسَنُوا البــنا
وان عاهــدوا وَفّوا وان اوثقوا شَــدوا

* * *

ونعود إلى الروْض الهَتُون ننخُله فاذا بكلمة أخرى لها أهميتها في معرفة منبت ابن غازي وتربيته البيتية أثناءَ طفولته ومنشأه في حِجْر أمه الصالحة رَحْمَة بنت الجنّان ، من أُسْرة الجنّان الشهيرة بمكناس ... وذلك عند كلامه على الشيخ أبي عبدالله محمد بن عزّوز الصنهاجي من علماء مكناسة ، حيث ذكر أنه توفي بالمشرق في حجته الثانية فتزوج والد ابن غازي زوجه رحمة المذكورة قال :

« فهي أمي والحاج المذكور والدُ اخوتي لأمي . وقد كانت أمي حفظت منه حديثاً كثيراً في أيام الصغر فلم أتعب في حفظه بعد الكبر ولله الحمد . وكانت رحمها الله ملازمة لدرس القرآن العزيز في المصحف وكان علّمها كثيراً من تفسير قصصه وأخباره فنفعتنا بذلك في الصغر غايةً برّد اللهُ ضريحها وحدثتني عنه بحكايات وفوائد يطول جلبها » .

فإلى هذه الأم الصالحة يعود الفضل في تكوين هذا الولد وتوجيهه التوجيه

الخُلُقي والعِلْمي . وقلّما رأيت رجلاً عظيماً له شأن يذكر ولم يكُن للمرأة في حياته تأثير ملموس لا سيما الأم التي في حجرها يتلقى أول درس في الحياة . فان كانت امرأة فاضلة مهذبة طبعت ولدَها على غِرار نفسها فنشأ فاضلاً مهذباً وإلا فأول ما يوتى منه الولد الأم الجاهلة السيئة الخلق . ولقد أثرت هذه السيدة في ولدها تأثيراً بليغاً بقي يذكره لها مدى الحياة ، ففضلاً عن التربية العملية التي تقوم بها كلّ أم لولدها ، كانت تُلقّنه بعضَ المعلومات النافعة من الأدعية النبوية والفوائد العلمية ، وتحكي له عن زوجها الأول حكايات لا شك انها كانت تعمل عَمَلَها في نفس الصبي من حيث توجيهُه العلمي إذ كان ذلك الزوج فقيهاً مُحَدّثاً مُقْرِئاً أديباً مؤرّخاً.وعلىمنواله نسَجَ ابنُ غازي بعدُ فكان متفنناً مثل زوج أمه بل أرْبَى عليه في ذلك .

ولعل هذه الأم التي فُجِعَت بزوجها العالم كان لا يُرضيها إلا أن ترى له خلَفاً من بنيها تتسلى به عنه فكان هو ابنها هذا الذي لم تألُ جُهْداً في تربيته وإعداده لذلك . وعليه فاذا ذهبنا نعد أشياخ ابن غازي الذين أخذ عنهم واستفاد منهم فان أمه السيدة رحمة الجنّان تكون في الطليعة لا يتقدم عليها أحد في هذا الأمر .

ثم يأتي بعدها أكبرُ شيوخه قدراً وأجلهم خطراً وهو الامام أبو عبدالله القَوْري المكناسي ثم الفاسي أخذ عنه الفقه والحديث وغيرهما . فأبو عبدالله محمد الصغير النَّيجي أخذ عنه القراآت والعربية وكان عمدة فيهما . وأبو العباس المَزْجَلْدي ، وأبو علي المغيلي ، وآباء زيد القَرْمُوني والمَجْدُولي والكاوَاني

وأبو الحسن ابن ممَنُّون ، وأبو العباس الحبّاك ، وأبو عبدالله محمد بن محمد بن جابر الغسّاني ، وأبو الحسن الأنْفاسي وأبو سالم بن الحاج ، والقاضي الوَرْياغلي ، وأبو عبدالله محمد بن يحيى البادِسي وأبو الفرَج الطنجي ، وأبو عبدالله بن أبي سعيد السّلَوي ، وأبو عبدالله محمد بن أبي القاسم بن يحيى السرّاج ، والشيخ الرحالة أبو محمد عبد القادر البَكْري المَقْدِسي ورد على المغرب سنة 880 وتدبّج هو وإياه .

فهؤلاء شيوخه الذينَ لقيَهم وأخذ عنهم بالسماع فقط أو بالسماع والاجازة . ولقد ضمّن تراجمهم وما أخذ عن كل منهم في فهرسته السابقة الذكر المسماة بالتعلل برسوم الاسناد بعد ذهاب أهل المنزل والناد . وهي فهرسة مليحة تدل على خبرته بفن الرواية وطُرق التحمّل . وكان لا يزال عند أهل عصره أثارَةٌ من هذا العلم لم يُفسدها ما أُدخِلَ عليه بعدُ من التكثر بما لا يزيد شيئاً في العلم ان لم ينقصْ منه . حيث صار همّ كثير ممن يصرفون أعمارهم في إحصاء هذه الروايات أن ينتسبوا إلى أكبر عدد من الشيوخ ويأخذوا عنهم بطريق الاجازة العامة وهم لم يسمعوا منهم لفظاً ولم يحققوا عنهم معنى ولذلك نراهم أكثرَ الناس تحريفاً للنصوص وألحنَهم في النطق والكتابة .

وبينما كان أسلافهم يبذلون الجهود في الرواية والدراية ويحررون المسائل ويحلّون المشاكل ، نرى هؤلاء وأكثرُ ما عندهم رويتُ عن فلان وأجاز لي فلان ، فنعوذُ بالله من الجهل الفادح والادعاء الفاضح .

ولقد أجاز لمترجَمنا الحافظان المصريان الدّيمي والسّخاوي ، استجازهما له صديقُه ورفيقُه الشيخ زورق سنة 885 كما أجاز له العلامة ابن مَرْزُوق الكفيف (من تلمسان) ولكن اعتماده كما رأيت كان على شيوخ الأخذ والسماع لا على شيوخ الاجازة والاذن ولعل هذا المعنى أولُ ما يُفهم من اسم الفهرسة (التعلل برسوم الاسناد بعد ذهاب أهل المنزل والناد) فلله در ابن غازي ما أحسن مقاصدَه ، وأعذب موارده ! ...

وإلى هنا نكون قد تتبعنا المترجم في مراحل دراسته ورأينا كيف نشأ طالباً مجتهداً يوم فاساً لإكمال دروسه في سن السابعة عشرة فلا يلبث أن يصير عالماً كبيراً ويعود إلى بلده مكناسة فيكون له من الظهور ما يجعل أميرَها يتحرّش به فيضطره إلى العودة لفاس حيث يتوطّد له هذا المجد العلمي الذي يصير به رئيس الهيئة العلمية في عصره بالمغرب ، ويكون له مقام ديني رفيع يصير به رئيس الأئمة والخطباء الدينيين بتولّيه لخطبة وإمامة جامع القرويين إلى غير ذلك من شفوف المنزلة عند السلطان ومزيد الاعتبار له حتى كان يصحبه معه في حركاته ولا يستغني عنه في غدواته وروحاته .

والحق أنه كان شخصية كبيرة تبعث على الاحترام سواء من الناحية العلمية أو الدينية أو الخلقية ..

فأما علمه فيقول تلميذه عبد الواحد الوَنْشَريسي عنه : « كان إماماً مُقْرِئاً مُجوّداً صَدْراً في القراآت مُتْقِناً فيها عارفاً بوجوهها وعِلَلِها والراجح منها ،

طيّب النغمة ، قائماً بعلم التفسير والفقه والعربية متقدماً فيها عارفاً بوجوهها ، ومتقدماً في الحديث حافظاً له واقفاً على أحوال رجاله وطبقاتهم ضابطاً لذلك كله معتنياً به ، ذاكراً للسيَرِ والمغازي والتواريخ والآداب . فاق في ذلك كل أهل زمانه »

وبقي عليه ذكرُ تفوّقه في علم الحساب فانه كان متمكناً منه عمدة أهل عصره فيه . وبذلك يكون قد جمع معارف أهل عصره وشارك في كل العلوم التي كانت تدرس بالقرويين إذ ذاك بل حصل على الامامة فيها . ولم يكن حظه من ذلك النظر فقط ، فانه كما يقول تلميذه الونشريسي أيضاً :

« أنفق أيام حياته في طلب العلم واقرائه والعكوف على تقييده ونشره ... وتخرّج بين يديه عامّةُ طلبة فاس وغيرها وارتحل الناس إلى الأخذ عنه وتنافسوا في ذلك . وكان عذبَ المنطق حسَنَ الايراد والتقرير فصيح اللسان عارفاً بصناعة التدريس ، مُمْتِع المجالسة جميل الصحبة سَريّ الهمة نقيّ الشيْبة حسن الاخلاق والهيئة ، عذب المفاكهة معظماً عند الخاصة والعامة . حضرت مجالس اقرائه في الفقه والعربية والتفسير والحديث وغيرها وكلها في غاية الاحتفال . وبالجملة فهو آخر المقرئين ، وخاتمة المحققين » .

وإذن فنحن أمام عالم جامع بذل مجهوداً كبيراً في الدراسة حتى حصل على غالب معارف أهل عصره : ثم بذل مجهوداً مماثلاً في بث هذه المعارف ونشرها. بل خاض معركة عظيمة ضد الجهل وانتشاره فحفظ الله به رَمَقَ العلم وصان

سَنَدَهُ عن الانقطاع ، فلا تجد إلا مُنْتَمِياً له آخذاً عنه متحدثاً بفضائله مُثْنِياً على اجتهاده .

وطار صيتُه في الآفاق فلم يقتصر الأخذ عنه على أهل المغرب خاصة بل قصده الناس من كافة أنحاء افريقيا الشمالية ، فهؤلاء كثير من علماء تلمسان — وهي ما هي حينذاك — رووا عنه وتتلمذوا له . ومثل تلمسان غيرُها من مدن المغربين الأوسط والأدنى . كما ان اجتهادَه العلمي لم يقتصر على التدريس ، وهو بالصفة التي ذكرنا غايةٌ لا تُدرَك ، بل تعداه إلى التأليف في كل هذه العلوم ووضْعِ الكتب المتعددة في كل فن بحيث أعطى الدليل المادي لكل من لم يسعده الحظ بلقائه أو مارى في كفاءته العلمية على أنه جُذَيْلُها المُحَكَّك ، وعُذَيْقها المُرَجَّب ، وصح أن يقال فيه ، مِن أحدِ عارفيه :

تكلَّمْ في الحقيقةِ والمجاز ... فما في الأرض مِثْلُك يا ابن غازي

وقال أبو عبدالله الكفيف :

حَبْرٌ تثبّتَ والانصافُ شيمتُه ... أكرِمْ به طاب من خَلْق ومن خُلُق
أتى به الدهرُ فرداً لا نظير له ... مثْلَ البُخاريّ لما جاء بالعُتَقي

ويعني بالعتقي الامام عبد الرحمن بن القاسم صاحب الامام مالك ، فان البخاري لم يرو عنه في صحيحه إلا حديثاً واحداً في تفسير قوله تعالى (فلمّا جاءهُ الرسولُ قال ارجِعْ إلى ربك) الآية .

وهذه أسماء بعض الآخذين عنه من كبار العلماء ، فمنهم من أهل تلمسان أبو عبدالله بن العباس الصغير وأبو عبدالله محمد بن علي الشريف ، ومن أهل وَهْران أبو عبدالله شَقَرون بن أبي جُمعة المَغْراوي ومن أهل المغرب أبو العباس الدّقّون والمفتي علي ابن هارون وعبد الواحد الوَنْشريسي وغيرهم ...

وأما دينه وتقواه وخلقه المتين فناهيك انه مع هذا الانقطاع إلى خدمة العلم والتجند في سبيله ، لم ينسَ أو يُهْمِلَ واجباته الأخرى كعالم ديني ، فهو قد تولى الخطابة بمِكناس ثم بفاس الجديد باثر انتقاله إلى فاس . ثم تولى الامامة والخَطَابة معاً بالقرويين فقام بذلك خيرَ قيام . لم يَسْتَنِبْ على شيء منه كما يفعل بعض العلماء الذين لا يقومون حتى بواجب التعليم فيُفرّطون في الجميع ويتقاضون مرتّبات الجميع ، بل نهض بعِبْئِه وإنّه لثَقِيل وسار في طريقه لا يَلْوِي على شيء حتى بلغ الغاية محموداً مشكورا . قال الونشريسي : « ولم يكن في عصره أخطبُ منه » فأفاد انه كان يقوم بواجبه على أتم الوجوه ولم يكن يؤديه كما اتفق ، شأن العاملين المجدّين في كل الأمور .

وهناك ما هو أعظم من هذا في الدلالة على قوة دينه ومتانة خلقه وهو انه كان دائم الخروج إلى الرباط والجهاد بثغور المغرب التي دهمها العدو في آخر عهد الدولة المرينية ، يبتغي بذلك الأجر والثواب ويريد أن يكون قُدوة حسَنة في هذا الباب لغيره من الناس كما كان سلف الأمة الصالح وعلماؤها العاملون . وأقربهم إليه وأحراهم أن يكون ابن غازي ترسّم خُطاه في هذا العمل شيخُه أبو محمد الورياغلي الذي كان من كبار فقهاء عصره ، ومن حُفّاظ مذهب

مالك حتى كانوا يَقيسونه في علمه بالمازَري ولا يَعدُونَ به طبَقتَه . فانه كان من عادته أن يشتغل بالتدريس في فصلي الشتاء والربيع ، وفي المصيف والخريف يرابط في الثغور ...

... فلا شك ان ابن غازي كان يقتدي به في ذلك وان لم يُوقّتْ لخروجه وقتاً معيناً . قال الونشريسي :«لم يزل باذِلَ النصيحة للمسلمين محرضاً لهم في خُطَبه ومجالس اقرائه على الجهاد والاعتناء بأموره ... حضَر فيه بنفسه مواقفَ عديدة ورابط مرات كثيرة وخرج في آخر عمره لقَصْر كُتامة للحراسة فمرض ورجع لفاس فاستمر به مرضه إلى أن توفي اثر صلاة الظهر يوم الأربعاء تاسع جمادى الأولى سنة تسع عشرة وتسعمائة . ودفن بالموضع المعـروف بالكغّادين من صبيحة يوم الخميس التالي . واحتفل الناس بجنازته احتفالاً عظيماً وحضرها السلطان ووجوهُ دولته فمن دونه وأتبعُوه ذكراً حسناً وثناء جميلاً وتأسفوا عليه تأسفاً عظيماً رحمه الله ونفع به » .

فأنت ترى انه كان يحض على الجهاد في دروسه وخطبه ، ويحضره بالفعل مواظباً على ذلك حتى خرج إليه في آخر عمره وقد بلغ من الكبر عِتِيّا فلم يرجع إلا محمولاً من شدة المرض الذي ألمّ به في ذلك الخروج ، ومات باثر وصوله إلى فاس .

وفي دَوْحةِ الناشر ان خروجه هذا كان مع السلطان محمد الشيخ الوطاسي للإغارة على نصارى أصِيلا . فأفاد انه كان للغزو لا للحِراسة كما سبق عن

الونشريسي ولكنه غلط في اسم السلطان الذي كان متولياً حينئذ وهو محمد البرتغالي (1) بن محمد الشيخ لا والده هذا لأنه توفي عام 910 قبل ابن غازي بتسع سنين .

هذا وقد كان لوفاة ابن غازي تأثير عميق في النفوس جعل العلماء يأخذونها بحساب الجمل من لفظ (ابن غازي) بعد إلغاء سنة الولادة . وذلك مع التاريخ لها بالساعة واليوم والشهر والسنة وذكر المدْفَنَ على ما رأيت ، مما يدل على عظيم الاهتمام ومزيد الاحترام .

ولا أُعلّق بشيء على مواقف ابن غازي ومَشَاهِدِهِ في حركة التحرير العظمى التي كانت شُغْلَ الناس الشاغل في ذلك الوقت حيث لم يُلْهِه عنها ما كان مُطوّقاً به من الأعمال النافعة كالتدريس والوعظ والخطابة والامامة بَلْهَ التأليف ، مما كان سبب هذه المحبوبية التي وُضعت له في القلوب ، وهذا الاعتبار الخاص الذي حصل له من الجميع حتى السلطان حضر جنازته . ولم ينقطع الثناء عليه بعد موته إلى حين ...

... إلاّ أني من باب المفارقات أُورِدُ حكاية مُضادّةً لذلك تُرِينا كيف تقعُد الهِمَم القاصرة بأصحابها عن مَدَارِك السبّاق . وفيها بلاغ لقوم يعقلون . وهي حكاية ولدِ ابن غازي الشيخ العالم الامام والخطيب بجامع القرويين

---

1) عرف بذلك لأنه كان وقع في أسر البرتغال لما أخذوا ثغر أصيلا وبقي عندهم نحواً من سبع سنين ثم افتكه والده .

محمد غازي ، مع الشيخ أبي عبدالله محمد بن يحيى البَهْلُولي وكان من أبطال المعمعة في حرب المقاومة المذكورة وقد حكاها ابنُ عَسْكَر في الدوحة قال :

« انه غزا مرة إلى الثغور الهَبْطِيّة وقدِمَ منها مع أصحابه فوجد زوجته فلانة بنت الشيخ ابي زكرياء يحيى بن بكار قد قُضِيَ نَحْبُها وصلى عليها الناس بجامع القرويين وإمامُهم الشيخ غازي بن الشيخ أبي عبدالله محمد بن غازي . فوصل الشيخ أبو عبدالله ووجد جِنازَتَها على شَفِير القبر والناس يريدون مُوارانها فقال لهم مَهْلاً فتقدم وأعاد الصلاة عليها مع أصحابه . فتقدم الناس اليه بالنكير في تكرير الصلاة على الجنازة بالجماعة مرتين فقال لهم على البديهة : صلاتُكم الأولى عليها فاسدة لكونها بغير إمام . فقالوا كيف ذلك يا سيدي ؟ فقال : اذ من شروط الامام الذكُوريّة وهيَ مفقودة في صاحبكم ، لأنّ من لم يتقلّد سيفاً قط في سبيل الله ولم يضرب به ولا يعرِفُ الحرب كما كان نبينا عليه الصلاة والسلام ولم يتصف بالسيرة النبوية فكيف يُعَدّ إماماً ذكراً ؟ بل إمامكم والله من جملة النساء ! » .

* * *

وقد آن أن ننظر في تراث ابن غازي العلمي والأدبي ، فانه خلف جملة من الكتب في الفقه والحديث والعربية والتاريخ والحساب لها أهميتها .

وقد تداول الناس كثيراً منها منذ تأليفها وانتفعوا بها وأثنوا عليها الثناء الحسن وهي جديرة بذلك .

وأول ما نسجله في وصف هذه الكتب انها في غالبها صغيرة الحجم كثيرة العلم ، إذ لم يكن ابن غازي من المُولَعين بالمَلْء والاستكثار من غير تمحيص ولا اختيار بل انه كان ممن يأخذ بمبدإ خير الكلام ما قلّ ودلّ ، ويستشعر : من عاداتِ السادات مُعاداةُ المُعادَات .

فهذه كتبه في الفقه والعربية وان تكن في فنون مطروقة كثُرت فيها التآليف إلا أن أيّ واحدٍ منها لا يخلو من فوائد كثيرة وزوائدَ على ما في غيره من كتب ذلك الفن ، وربما كان وضْعُه أصلاً لتكميل نقص في تلك الكتب واستدراك ما فاتَ أصحابها من المهمات ، فليست هي من الكتب المكرّرة لغيرها ولا مما يقال فيه « انقُل من هنا ومن هنا ، وقُلْ هذا كتابنا » .

وأيضاً فان جريدة أسماء هذه الكتب تدل بمجردها على ما كان عند ابن غازي من ذوْق مهذّب وطبع سليم ، فانها على العادة المتعارفة مُركّبَة من سجعتين ولكن هاتين السجعتين غيرُ متكلفتين ، وتفيدان المطلوب بغاية الوضوح ، وذلك خاصيّة انشائه على الجملة ، وقد سبق عن الونشريسي انه كان أخطَبَ أهل عصره ، وما نظن انه استحق هذا الوصف ، إلا بتلك الخاصية .

وقد ذكرنا من كتبه .

(1) الفهرسة التي سماها التعلّل برُسوم الاسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد وبيّنا مضمُونها وما في اسمها هذا من المناسبة لموضوعها ، وهاك بقية أسماء كتبه :

(2) شِفاءُ الغَلِيل في حلّ مُقفَل خليل بيّن فيه هفوات وقعت لِبَهْرام في شرحه لمختصر خليل ومواضعَ مُشكِلَة من المختصر أجاد فيه ما شاء ، وقد قدّم بين يديه مقدمتين الأولى في التعريف بالمصنف والثانية في بيان بعض اصطلاحاته الّتي أخذها منه بالاستقراء .

(3) تكميل التقييد وتحليل التعقيد كمّل به تقييد أبي الحسن الزَّرْويلي على المُدَوّنة وحلّ كلام ابن عرفة في مختصره . وكان بعض معاصريه من علماء فاس يقول أما التكميل فقد كمّله وأما التعقيد فما حلّه ، والمُعاصَرَةُ — كما يقولون — حجاب .

(4) الجامع المستَوْفي بجداول الحَوْفي . استخرج فيه مسائل الحَوْفية في الفرائض « بوضعها في جداول تقرّب المرام ، وتغني عن كثير من الكلام » فجاء كله جداولَ إلا المقدمة وبعضَ التعاليق القليلة الّتي بيّن فيها ما أشكلَ من تلك الجداول .

(5) تحرير المقالة في نظائر الرسالة . منظومة رجزية في المسائل الّتي تنشأ به في الحكم من رسالة ابن أبي زيد القيرواني .

(6) المسائل الحِسان المرفوعة إلى حبر فاس والجزائر وتلمسان .

(7) اتحاف السائل في تحرير المقاتل والدلائل .

(8) الكليات الفقهية وهو من مُبتكراته جمع فيه قواعد الفقه الكلية الّتي

تندرج تحتها جزئيات كثيرة . وكان تأليفه له بطريق تامسنا في أوائل عام 893 . وهو في كرّاسة صغيرة .

(9) إمداد ذوي الاستحقاق ببعض زوائد المُرادي وفوائد أبي اسحاق . وهي حاشية على ألفية ابن مالك جمع فيها بين كلام المُرادي والشّاطبي في شرحَيْهما عليها مع زيادات مفيدة جداً .

(10) ارشاد اللبيب إلى مقاصد حديث الحبيب . وهو حاشية مختصره على صحيح البخاري جعلها كالتكملة لشرح الزّرْكشي فلا يذكر غالباً إلا ما أغفله وأودعها مع ذلك نُكتاً لطيفة .

(11) إنشاد الشّريد من ضَوالِّ القصيد . ذيل به نظم الشاطبية في علم القراآت .

(12) إمداد بحر القصيد ببحرَيْ أهل التوليد . ذيّلَ به نظم الخزرجية في علم العروض وشرحه . وهو مطبوع .

(13) نظم على الطّرُق العشر في القراآت .

(14) نظم فواصل المقال وشرحه .

(15) مُنْيَة الحُسّاب في علم الحِساب وشرحُها نظم فيه تلخيص ابن البنّاء في علم العدد وهو مشهور متداول بين الطلبة مطبوع هو وشرحه بالمطبعة الفاسية . وهو نظم سهل قريب المأخذ يقول في أوله :

وبعد فالقصد بـهـذا الكتاب نظْمُ المهمّـات من الحساب
ضمّنْتُهُ مسائـل التلخيص وربمـا أزيد في التمحيص
تحريراً أو مسألة غريبـه أو نُكتَة مُونِقـة عجيبه
وربمـا استغنيتُ بالتلويح مخافَـة الطول عن التصريح
فجـاء تأليفاً صغيرَ الحجم قد احتوى على كثير العلم
يُقرّبُ الأبـوابَ والمعـاني ويضبِـطُ الأصولَ والمَباني
في رجز مُزْدَوِج مشطـور يحكي عُقُودَ الدرّ في النحور
لِأجْل مـا حوى من اللّباب سميّتُه بِمُنْيَـة الحُسّاب

(16) تأليف في حكم ماء الحياة . وقرأتُ بخطّ جدّي الشيخ محمد التهامي رحمه الله أنه ال فيه إلى الإباحة مع أن المعروف أنه مُسكرٌ ، وإن لم أقِفْ على تأليفه هذا فليُحَرّر .

(17) وأخيراً تاريخه الروض الهَتُون في أخبار مكناسة الزيتون في بضعة كراريس مطبوع . وهو من الكتب المفيدة جداً تناول فيه تاريـخ بَلَدِه مكناس وخططها وآثارها وتراجِمَ المشاهير من أعلامها فاحتوى برغم صغر حَجْمه على ما لم تحتو عليه الكتب الكبيرة من المعلومات والأخبار ولطائف الآداب . وما أحسن افتتاحه هذا « الحمد لله الذي حبّب الأوطان للظاعنين من أهلها والقُطّان » وهو مشعر بمقصوده وحاله في آن واحد ، فلله دره ! غير أنه لا يفوتنا أن نُنبّه على أن وصف الروض بالهتُون، لا يصحّ، لأنه يريدُ المهْتون فيه ، والهتون وصف للمسطر . فالعجب من غفلته عن ذلك .

وقد نقلنا عنه بعض الجُمَل المتعلقة بحياة المؤلف نفسه . ومن فوائده في هذا الصدد قوله في ترجمة العلامة ابن الصبّاغ أحد كبار العلماء المكناسيين :. « وحدثني شيخنا الأستاذ السيد أبو الحسن علي بن مَنُّون الحسني أنه بلغه عنه أنه أملى في مجلس دَرْسه بمكناسة على قوله عليه السلام : (أبا عُمَير ! ما فعَل النّغَيْر ؟) اربعمائة فائدة » قال : وكنت تأملتُ هذا الحديث فانقدح لي فيه زهاءُ مائتين وخمسين من الفوائد ، فقيدتُ رسومها ولم أجد فراغاً لبسطها (ما يَفْتَح اللهُ للناس من رحْمَةٍ فلا مُمْسِكَ لها) .

وقد ذكرَ الشيخُ أحمدُ بَابَا هذا التقييد في ضِمْنِ مُؤلّفات ابن غازي إلا أنه جعل فوائده مائتين فقط ، وأياً كان فان هذه همة عالية كانت دائماً تتعلق بالسمو وتنحو نحو الكمال ، رأى ابن غازي استاذه الورياغلي يقوم بتدريس العلم ويُنازل العدو في المعارك الحربية ، فأبى إلا أن يكون مثله ، وسمع أن بلديّه ابنَ الصباغ أملى على الحديث الشريف (يا أبا عُمَير ! ما فعل النّغير ؟) ما أملى من الفوائد التي بلغت أربعمائة فاجتهد حتى استخرج منه عدداً ان لم يكن مماثلاً فانه يدعو إلى الاعجاب .. وهكذا يكون طموح الهمة ! ...

ومن فوائده في شفاء الغليل عند شرح قول المختصر (كثَيِّب ليَمين فيجدُها بِكْراً) ما نصه : « وسمعت شيخنا الحافظ أبا عبدالله القَوْري يقول : قال أبو عبدالله محمد بن عمر بن الفتوح سبب انتقالي من تلمسان إلى فاس عجزُ فقهاءِ تلمسان عن مسألتين احداهما هذه ، قالوا فيها كمن ضاع له

قُبّ فوجد حمّاماً . (والقُبّ) في اللغة الكوب واحد الأكواب . والثانية مسألة الأيمان والنّذُور من المدونة فيمن التزَم من النذور ما لا يُطيقه » ..

ومنها عند قوله(لابأماتـه الله كافرا على الاصح) : « كذاذكره ابن راشد القَفْصي عن فتيا شيخه القَرافي وزاد عنه : الخطيب ياتيه كافر يريد ان ينطق بكلمة الاسلام فيقول له اصبر حتى افرغ من خطبتي فانه يُحكَم بكفر الخطيب لان دلك يقتضي انه اراد بقاء الكفر زمانا ما . قال سمعته من شيخنا القرافي ولم ار موضعه هـ.

ولم ار مسألة الخطيب لغيره وعنه نقلَها في التوضيح ... واما الدعاء باماته الله ونحوه فقد اطال فيه القرافي النفس في الفروق الثلاثة الاخيره من قواعده في احكام الادعية . وسلّم ابن الشّاطّ بعض مباحثه دون بعض والوقوف على ذلك كله متاكد » .

ومنها عند قوله (وقَبُول هَدِية) : « بعد ما طوّل فيها ابن عرفة قال يُخفّفُ للمُفْتِي في قبولها ان كان محتاجا ، ولا سيما ان كان اشتغاله باصوله يقطَعُه عن التسبُب ولا رِزْقَ له عليها من بيت المال . وعليه يحمَل ما اخبرني به غير واحد عن الشيخ الفقيه ابي علي بن عَلوّن انه كان يقبل الهدية ويطلبها من مستفيه » .

ومنها عند قوله (وأحضَرَ العلماء وشاوَرَهُم) : « وكان عندنا قاض اشتهرت بالامصار نزاهته فرفع اليّ (محاضِر) بين خصمين طال فيها النزاع والاثبات

والتجريح ، فتاملتُ المحاضر فوجدتها تتضمن ان الخصمين متفقان في المعنى مختلفان في العبارة ولم يتفطن لذلك حتى نبهتُه فخَجِل وارتفع الخصام . فمثل هذا لا بد ان يحضره اهلُ العلم او كَاتبٌ يُومَن معه مثل هذا» .

ومن فوائده في الجامع المستوفي ـ ذكره استطراداً ـ مانصه : «من تلامذة السّطي الشيخُ ابن عرفة قرأ عليه الحوْفية عند باب دار ابي الحسن المَرِيني من حضرة تونس المحروسة في خلال ما ينتظر الشيخ خُروجَهَ في وقت معلوم من كل يوم كان يلقاه فيه . ومنهم ابو عثمان العُقْباني قرأها عليه بالمنصورة حين كان بها مع ابي الحسن المرِيني . ومنهم حَمامة النّفْزي كان ياتي الشيخ السّطي بما يتضمنه مجلسه مما يحتاج الى تفسير من الحوفية مكتوبا في لَوْح فينطلق به حمامةُ فينقله حتى كمل منه الشرح الذي بايدي الناس ، فهو الذي فتّح فيه الباب اثابه الله تعالى بالحسنى والزيادة » :

ومن فوائده في حاشية الالفية عند قول الناظم (ووضعوا لبعض الاجناس علم) بعد ما اطال الكلام في علم لجنس ما نصه : «على انه قد صنّف في المسألة احدُ حذاق المتأخرين وهو العلامة ابو جعفر بن خَاتِمة جزءا نبيلا فائقا بديعا رائقا سماه : «إلحاق العَقْلي بالحسّي في الفرْق بين الكُلي والعَلَم الجنْسي» . اجاد فيه ماشاء وذكر انه طالع به شيخَه القاضي الخطيب الاستاذ ابا البركات ابن الحاج البَلْفيقي فصوّبه واستنبله . قال فيه : «يظهر لي ان هذا المعنى استأثر به اللسان العربي دون اللسان اليوناني لاتساع عباراته ولطائف اشاراته اذ لو كان في اللسان اليوناني لوُجِد في كتب المنطق المترجمة وتداولته مناطقة الاسلام

في كتبهم كأبي نصْر الفارابي وابي علي بن سينا والقاضي ابي الوليد بن رُشد الحفيد وغيرهم » .. ثم نقل عن ابن خاتمة مُسَوّدة طويلة في المسموع من علَم الجنس بعد مانوّعَه الى عربي ومُوَلّد والاول اما خاص بالاعيان واما خاص بغيرهم . وتتبع ذلك يطول وقد ذكر بعضاً منه السيوطي في المزهر فلينظره من يهمه .

ومنها عند قوله (وفي ذا الحَذف ايّاً غيرُ أيّ يقتَفِي) : « عن الشاطبي قال حدثنا شيخنا ابو عبد الله بن الفخار قال سئل شيخنا ابو اسحاق الغافِقي عن حذف الضمير من الصلة في قولك رغبت فيما رغبت فيه فجوز ذلك فانتهى الخبر الى تلميذه شيخنا ابي عبد الله بن عبد المنْعِم فمنَعه واستشهد بانه يقال رغبت فيما رغبت فيه على معنى القبول ورغب عدا رغبت عنه على معنى الإعراض ولا يكون الحذف الا حيث يتعين المحذوف خَوْفَ اللبس . فانتهى ذلك للغافقي فاستدل للجواز بانك اذا رأيته محذوفا دل ذلك على اتفاق الحرفين ولو كانا متباينين لم يجز الحذف لانه مشروط بالاتفاق، وكذا رغبت عما رغبت وعلى هذا وقف الامر عند نُحاة سبتة » .

ومنها فذلكَة مفيدة في الخلاف بين نُحاة المغرب في مسألة صرف ابي هُريرة وعدمِه . واخرى في مسألة الاحتجاج بالحديث الشريف في النحو ومذهب ابن مالك في ذلك ، وفوائد مختلفة عن ابي علي الشّلَوْبِين وغيره من نحاة المغرب ، وانظام مفيدة له ، والغاز في مسائل من اعراب الالفية .

وفي اواثلها أنقال كثيرة من شرح المكودي الكبير مما يدل على انه بقي الى ايام ابن غازي وانه لا صحة لما يروى من ان اعداءه احرقوه وانما الصحيح انه لم يُكَمّلْه .

ومن فوائده في نظمه لنظائر الرسالة قولُه في الكفّارات :

خَيّرْ بصومْ وبصَيْد وأذَى ۔وقُلْ لكلّ خَصْلة يا حبّذا
ورتّبِ الظّهَارَ والتّمَتّعَا والقَتْل ، كلّ في اليمين اجتمعا

وقولُه في صرف الدينار :

الصرفُ في الدينار (يَبّ) فاعلَمِ في دِيَة قَطْع نِكَاح قَسَمِ
والصرفُ في الجِزْيَةِ والزكاة عشرة ، والباقي بالأوْقات

وقوله فيما يُلغَى فيه اليومُ الاول :

واليومُ يلغَى في اليمين والكِرا وفي الإقامة على ما اشتهرا
وفي خِيَار البيع ثم العِدّه وأجَلِ عَقيقَة وعُهْدَه

وانظامه العلمية كثيرة ولم يكن يخلو مجلس من مجالس اهل العلم المهمة من الاستشهاد بها والاستفادة منها في جمع النظائر وحصر الشوارد .

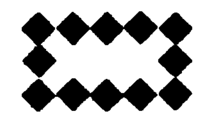
وله شعر حسن منه قولُه في بَلَده مكناسة ، متأثرا بالمضايقات التي الجأتْه الى الخروج منها :

طَلَّقَتْ مكنـاسةَ ثلاثـاً والشَّرْعُ يأبَى الرجوعَ فيه
ليْستْ بـدار سوى لقاضٍ أو عـامِلِ الجَوْر أو سفيه

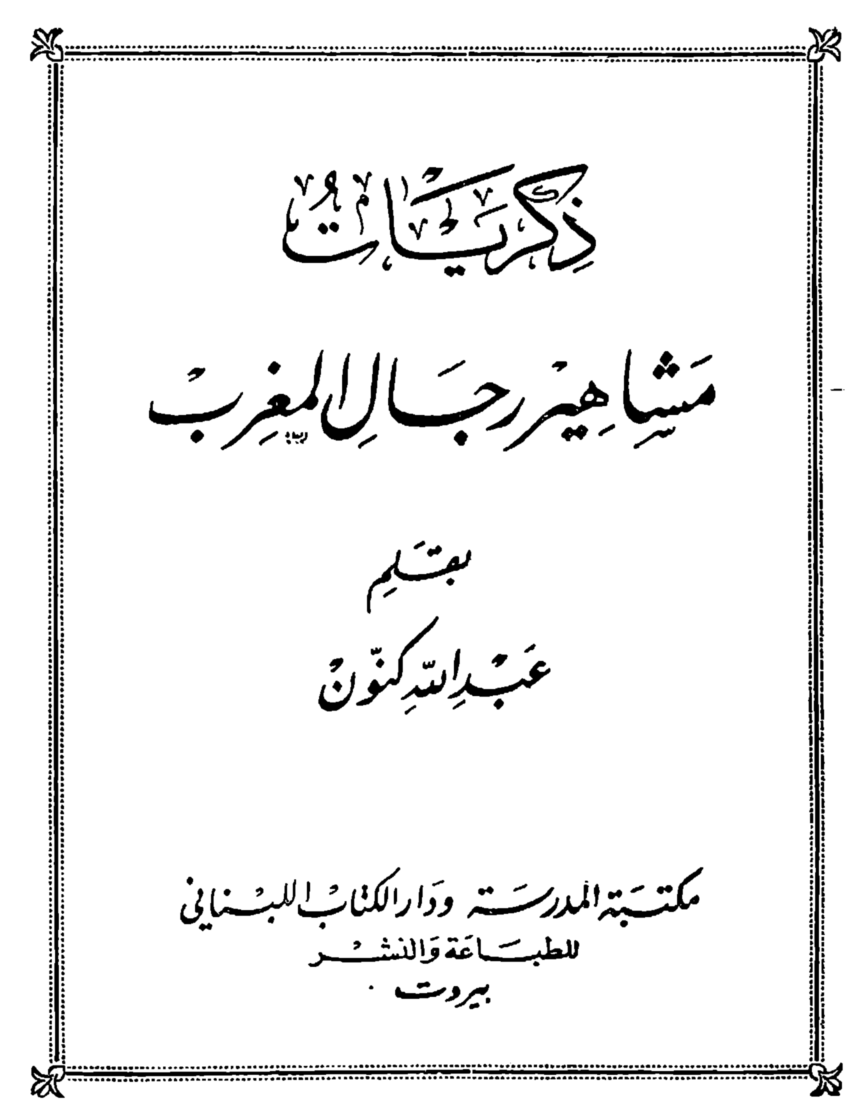
ومنه قوله في الموضوع :

أقمتُ بمِكْنَـاسةٍ مـدةً أعلّمُ أبناءَهـا مـا الكلام
فلمّـا توَهّمَه بعضُهـم عَليَّ بـه بَخِلُوا والسلام

وفيه تورية بديعة بالاسلوب المغربي المتبّع في الرسائل العادية . ورَحِمَ اللهُ ابنَ غازي فقد كان اعظمَ من ان لا يحسد وينكر فضله ويجحد ، ولكنه تجاهَلَ هذه الحقيقة فقال ما قال ، ولا بُدَّ للمصدور ان ينفِث ، ولله في خلقه شؤون .



المملكة المغربية الشريفة
وزارة المعارف
المكتبات المدرسية



ذكريات
مشاهير رجال المغرب

بقلم
عبد الله كنون

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني
للطباعة والنشر
بيروت

طبع على مطابع دار الكتاب اللبناني
رأس النبع - بيروت - هاتف: ٩٥٨٧٠٠

13

ابن زاكور

ابن زاكور

تاريخ ولادته مستخرجاً من تاريخ وفاته وظروف حياته – نبوغه المبكر – رحلاته وهل كانت لطلب العلم – العوامل التي اشتركت في تكوين شخصيته – أثر اليوسي فيه – معارفه – كتبه – نثره – ديوان شعره – شعره من الوجهة الفنية – نبذة من شعره .

▲▲▲

أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد بن احمد ابن زَاكور الفاسي من عائلة ابن زاكور الشهيرة بفاس : العالم الاديب الواعية ، مفخر عصره وجِيله ، ونابغة بَلَدِه وقَبِيلِه . كان كاتبا ، وشاعرا ، ولغويا ومؤلفا من اشهر مؤلفي الآداب العربية من المغاربة .

ولد ونشأ بفاس وأخذ عن جلّة مشايخها : كالشيخ محمد بن عبد القادر الفاسي واحمد بن الحاج ، والقاضي بَرْدُلَة وابي عبد الله القُسَمْطِينِي ، وعبد السلام القادري وغيرهم ، كما اخذ بها عن ابي علي اليُوسِي لما قدم اليها سنة 1095 . وبمراكش عن أبي العباس العَطّار فقد اخذ عنه ارجوزة ابن سينا في الطب ، وقد استدعى منه قراءتها بابيات يقول في اولها :

ماذا على العطّار لو اهدى لنا نفحاتِه من جُونَة الارْجُوزهْ

واخذ بتطوان عن رجُلها الفذّ وإمامها الاوحد الشيخ علي بَرَكة ، وبالجزائر عن مفتيها الشيخ محمد بن سعيد قَدّورَة ، والشيخ عمر المانجلاَتي ومحمد بن عبد المومن الشريف وغيرهم .

اما الشيخ الامام عبد القادر الفاسي فلم ياخذ عنه الا تبرّكا بالجلوس بين يديه في زمن الصبا ، خلافا لما في السلوة كما اخبر هو بذلك عن نفسه في رحلته حيث قال : «فاماالبحر الزاخر والطود الشامخ الراسي الحبر الماهر : مولانا ابو محمد سيدي عبد القادر الفاسي رضي الله عنه وارضاه ، وبديَم المغفرة والرضوان أسقاه ، فقد كنت اجلس لسماعه متبركاً ، ايام كنت في احلام الصبا مُرتَبِكا ، وازُور مجلسه العالي ، وجيد نجابتي غير حالي ، واتيمّنُ في ابتداء المتون ، بخط يده الميمون ، أسال الله عليه من شآبيب الرحمة كلّ هتُون» .

قلت: ومن هنا يمكن ان ناخذ بالتقريب تاريخ ولادته المجهولة ، فان الشيخ عبد القادر الفاسي توفي سنة 1091 . فلو فرضنا انه كان حينذاك في سن الثانية عشرة او الثالثة عشرة وهي السنُ المقدرة لنجباء الاولاد الذين يفرغون من حفظ القرآن ويعكفون على قراءة المتون العلمية، لكانت ولادته فيما بعد 1075 وربما يؤكد ذلك انه توفي مُختَضَراً في 20 محرم فاتح عام 1120 كما ينبئ عن ذلك قول ابن الطيب العَلَمي في رثائه :

قضى أخو النظم والنثر ابنُ زاكورِ فجاد دمعي بمنظوم ومنثــور
وامتدّ شوقي بمقصُور الحياةِ له ما حيلتي بين ممدود ومقصور

فقوله : «بمقصور الحياة له» دليل على اختِضَاره واختطاف المنون له في عنفوان العمر وابتداره ؛ اي حوالي الاربعين او بعدها بقليل .

ومع ذلك فانه ما مرت سنتان على تاريخ وفاة الامام عبد القادر الفاسي الذي وصف نفسَه فيه بعطل نجابته ، حتى كان ينظم الشعر الجيد في مدح اشياخه ويتحين فرص الختَمات المتوالية للمتون العلمية فينشد على عادة نجباء التلاميذ قصائد بليغة في الموضوع يعلن بها عن نفسه قبلما يشيد بمدح شيوخه .

فعرُفت من ذلك الحين مكانتُه في الادب ، واشتهر نبوغه في نظم الشعر وصار ممن يشار اليهم بالبنان ، بل ان في ديوانه ما يدل على تفتّق قريحته بالنظم قبل هذا الابان ، وهي قطعة شعر قالها بتطوان في سنة 1092 يستعير بها كتاباً من احد الادباء .

وقد رأيتَ أنه رحل إلى تطوان والجزائر ومراكش وأخذ عمن كان بها من أهل العلم ، ونزيد أن رِحلاتِه إلى تطوان كانت قد تكررت ! وان كانت هذه التي تاريخها في عام 1092 هي اولاها على ما نظن ثم رحل اليها في سنة 1093 ومنها إلى الجزائر في السنة نفسها وبقي بها إلى رجب من عام 1094. ثم عاد إلى تطوان ، وكان بها في شعبان من العام نفسه ولا ندري هل رحل إليها بعد ذلك أم لا ؟ لكن الذي لا بد من التنبيه عليه هو ان رِحلاتِه هذه لم يكن

الباعث الأول عليها هو طلبُ العلم كما قد يُظَنّ ! بل ان هناك باعثاً عائلياً هو الذي كان يُزعِجُ أديبَنا للترحل في سنه المبكرة إلى تطوان كما يدل عليه قوله في الرحلة بعد رجوعه من الجزائر : « ولما حلَلْتُ بتطوان حرسها الله وساعدني جَدّي (1) . وزرت ضريح جدّي . وشِمْتُ غُرَرَ أهل ودي . انقشعت سحائبُ وَجْدي . وأنفقتُ فيها من الشعر على قدر وُجْدي ... »

فمن هذه الفقرة نعلم انه كان له بتطوان روابط عائلية ووشائج أهلية هي التي كانت تبعثه حيناً بعد حين على تعهد تلك الديار وقصد ذلك المزار . كما لا يبعد أن يكون الأمر كذلك بالنسبة إلى الجزائر أيضاً ، لأن أولاد ابن زاكور كانوا بها موجودين ، وهو نفسه لا يذكر انه خرج بقصد طلب العلم وإنما يقول « لما حل ببلد كذا أخذ عن فلان وفلان الخ » .

وعلى كل حال فقد حُبّب إليه بعد ذلك الارتحال وسهل عليه الانتقال فصار جوّابَة أقطار ، وحِلْفَ أسفار ، وأكثر ما كان يشد الرحلة لزيارة أضرحة الصالحين ومشاهد العارفين : كالشيخ عبد السلام ابن مَشِيش وأبي يَعْزَى ومولاي ادريس الأكبر وكثيرين سواهم ممن يطول ذكرهم وله فيهم القصائد المحبّرة والمدائح المنوّرة .

ومما لا شك فيه ان هذه الرحلات كانت من العوامل القوية في تكوين شخصية المترجَم وتكميل نفسه بما لم يكن له لو اقتصر على الأخذ ببلده ولزم كِسْرَ بيته كما كان يفعل كثير من طلبة العلم في زمنه .

---

1) أي حظي .

ففضلاً عن انه درس علوماً جمة على كثير من الائمة فانه قد وسع دائرة مداركه بمشاهداته في تلك البلاد وما جَرَيَاته . فهذه أوصافُه « لكِيتان » من المنازه البديعة بتطوان وأوصافُه للبحر وأمواجه في حالتي هدوئه وهياجه ، وكذا وصفه لهجوم « العدو الكافر على بلاد الجزائر » . وكل ما صدر عنه من شعر حزين في الشوق والحنين إلى تلك المعاهد واخوانِه بها انما ذلك من بركات هذه الحركات ونتائجها المحسوسات .

ثم هناك عامل آخر أثّر جداً في توجيهه الأدبي وطبعه بهذا الطابع القوي الذي ظهر به كعالم لغوي يشرح ديوان الحماسة ولامية العرب ويفسر غريبهما واشاراتهما وأمثالهما إلى غير ذلك من نظم عدة قصائد على مذاهب شعراء البادية ومن نحا نحوهم من علماء اللغة مرتكباً فيها أنواع الغريب ، وملتزماً للقوافي الصعبة كالثاء المثلثة والذال المعجمة ونحوهما ، هذا العامل هو اتصاله بأبي علي اليُوسي وأخذُه عنه وكَرْعُه من حياض معارفه الأدبية واللغوية ونسْجُه على منواله في شعره فإن أبا علي اليوسي كان رَيّانَ من علوم اللغة والأدب ناسلاً إلى فنونهما من كل حَدَب . وقد أتى في شعره من ذلك بكل غريب ، وامتلأ ديوانه بما فيه مُتعَةٌ لِلّغويّ والأديب ! وحسبُك بداليته « عرّج بمنعرج الهضاب » فإنها قد احتوت على فنون كثيرة من علم الأدب فضلاً عن اللغة وقد كان أديبنا مُعْجَباً بها وقرأها على ناظمها ومَدَحها غير ما مرة فكيف لا يتأثر بأسلوبها ويَضرِبُ على نَغْمة صاحبها وهو يملأ من نفسه مكاناً عظيماً وينزل من قلبه منزلاً كريماً ؟!

بل لقد أشار هو نفسه إلى هذا التأثر العظيم باليوسي وانه فتح عينه على ما لم يكن رآه من قبل ؛ إذ غايةُ امره انه درس على مشائخَ أعظمُ ما يحسنون هو علم الفقه وما منه بسبيل ومن كان له منهم نظر في علم البلاغة والعربية فحسبُه الادراك والفهم لا التذوّق والتأثر إلى حدّ الانتاج والانشاء كما هو الحال في أبي علي اليوسي ! وفَرْقٌ عظيمٌ بين من يفهم الشيء ويُزاوِلهُ ومن يفهمه فقط ! هذا في نفسه فأحْرَى في غيره .

وهاكَ قولَ ابن زاكور في اليوسي :

« وأمّا حبْر الأحبار ، وجُهَيْنَة الأخبار ، وزَيْنُ القُرَى والأمصار ، العديم النظير في سائر الأقطار ، مَن أسْعدَ بمطالع أنواره كواكِبَ نُحُوسي ، مولانا أبو علي سيدي الحسن بن مسعود اليُوسي أطال الله مدته ، وحمَى من نوائب الحَدَثان حَوْزَته ، فقد ورد في شوال سنة خمس وتسعين لهذه الحضرة وأعارها بقدومه ابتهاجاً ونَضْرَة ... فأقام بها إماماً ، ونَقَع بها لكل ظمآنَ إلى وِرْدِهِ أُوَاماً ، وأعاد نيرانَ الجوانح على الافئدة برداً وسلاماً ، فلازمتُ منه بحراً زاخراً ، ونظمت من نفيس فوائده لؤلؤاً فاخراً . »

ومن قوله فيه نظماً ، والشاهد في الأبيات الأخيرة :

علاّمةُ الدنيا بلا ثُنْيَا ومِصْقَعُها المسدّد
بحرُ الشريعةِ والحقيـ ـقةِ فاض فيضاً ليس يعهد
بين الهدى ومقاله وفعَالِه حِلْفٌ مؤكّد

مَن ضلّ عن أعـــلامه	لم يدر كيف الله يُعْبَد
لا يعرُجنّ إلى العُـــلا	من لم يلُذْ منه بمِصْعَد
لا يفتحنْ بابَ المُــنى	من لم يفز منـــه بمِقْلَد
يفري ديـــاجيرَ الهوَى	مَن يقتدي منه بفرْقد
ويُجارُ مِن جَمْع العدا	من ينتمي منه لِمُفْرَد

إلى آخرها وهي طويلة وغيرها كثير مما صرّح فيه بأنه مدين له بعلمه وعمله وانه من مشكاةِ نُورِه اقتبس ، ونَفحاتِ هديه انتعش بعد ما انتكس .

ثم بنظرة واحدةٍ في ديوانَيْهما ومقارنة بسيطة بين شعريهما يقف الباحث على هذا التأثّر المنوّه به . كما ان من درس شعر ابن الطيّب العَلَمي وصاحبه الشّرْقي يرى كثيراً من أثر ابن زاكور فيهما . بل ان سفَرَ الأول إلى تطوان والثاني إلى الجزائر ربما كان من الاقتداء بابن زاكور وتتبّع خُطاه .

إنما ابن الطيب العَلَمي وصاحبُه الشرقي لم ينتهجا نهج ابن زاكور في ارتكاب الغريب ولم يشذّا عن ارتكاب مألوف الناس في وقتهما كما ان ابن زاكور نفسه لم يكن يغلو في ذلك المذهب غُلوّ اليوسي وإنما له فيه آثار معدودة لعله كان يريد أن يدلّ بها على تضلعه من متن اللغة أكثرَ مما يريدها لذاتها وبعد ذلك يبقى شعرُه في غالبه رقيقاً سهلاً مُصفّى مهذباً كما ستراه .

وجملةُ القول إن ابن زاكور درس الفقه والحديث والأصول والتاريخ والأدب ، وبرّزَ في علوم الأدب أكثر من غيرها وشارك في تكوينه عواملُ

مختلفة ، وكان ذا ملَكَة مطبوعة على الانتاج وحافظة قوية حتّى حكى القادري في « النشر » انه كان يحفظ عدة تآليف منها : تلخيص المفتاح ، وجمعُ الجوامع ، ومُختصرُ خليل، وكافيةُ ابن مالك وتسهيلُهُ ، وكافية ابن الحاجب ، وكل هذا مما مكّن له ان يملأ في عالم الأدب فراغاً لم يجد من يشغَلُه منذ وفاة عبد العزيز الفَشْتالي ، ويؤدي رسالتَه في إحياء علوم العربية الّتي بقيت مهملة منذ قرن كامل .

وقد عرف له معاصروه ذلك ولم يجحدوه فضله ، فمما حلاّه به الشيخُ علي برَكة في إجازته له قوله : « مَن شبّ به زمانُ الأدب بعد الهَرَم ، وهبّ به أوانُ المجد والحسب وقد أشفَى على العَدَم الذي رَكَض في مضامير البلاغة صافِنات جياده ، وعقَد شُذور البراعة على لَبّاتِ عصره وأجْيَادِه : الجِهْبِذ الأريب المِصْقَع الأديب الثّقِف اللّقِن المُتفَنّن . المشارك المُتْقِن الفقيه النبيه الزكي الوجيه ذو الفضل المعروف غير المنكُور أبو عبدالله سيدي محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد بن زاكور الخ » .

ولشيخه أبي علي اليوسي هذان البيتان يمدحه ويصف اجتهاده في طلب العلم :

لله دَرّ ابن زاكور وشِيمَتُه	وما أعَدّ لجمع العلم من عُدَد
تلقاه في كل ما وقتٍ ولو سفراً	في جَيْبِه آلةُ الكتاب أو بيَد

ويعجبني تحليةُ ابن الطيب العَلَمي له في «الانيس المطرب» وقد اشتملت على أوصاف شتّى وتضمنت الاشارةَ إلى كل العلوم الّتي كان لابن زاكور فيها مقام معلوم وهي :

« وحيد البلاغة ، وفريد الصياغة ، الذي ارسخ في ارض الفصاحة اقدامه ، وأكثرَ وثُوبَه على حل المشكلات وإقدامه ، فتصرف في الانشاء ، وعطَف إنشاءه على الإخبار ، وإخبارَه على الانشاء ، وقارع الرجال في ميادين الارتجال ، وثار في مُعترك الجدال ما شاء وجال ، فهو الذي باسمه في الاوان هُتِف ، وهو الذي يعرف في كل العلوم من أين أكْلُ الكتف ، جلس للاقراء في شبابه فأتى بيت التدريس من بابه ، وتأسى في الصلاح بأربابه ، ولم يَصْبُ لرُبُوبه (1) ولاربابِه ، فتكلم في المذهب ، وذهب في التحقيق كلّ مذهب ، وأوجز ما شاء وأسهب ، وطاول في الفروع ابنَ قاسم وأشْهَب . وخاضَ في المعقول ، فبهر العُقول ، ووقف التحقيق عند ما يقول ، وتصدّر في السّيرة ، وأحكم القرآن وتفسيره ، وحرّر حِرْزَ امانيه وتيسيره (2) ، وتجافى في الرّواية من الغِواية ، وألّفَ في الأصول ما لم يزل به بين الأقران يصول ، وقامَ للعَرُوض ، بالنوافل والفُروض ، ففكّ منه الدوائر ، وسَلِمَ فيه من الدّوائر ، واختار المُراقبَة فبَرِىء من المُعاقبَة » .

وقد اشتمل هذا الكلام على نقطتين اثنتين نعتقد ان لهما أيضاً دخلاً كبيراً في تكييف حياته الأدبية وهما : اشتغاله بالتدريسَ ونُسكُه فمما لا شك فيه ان التدريس يحول دون قضاء كثير من المآرب لاستغراقه من وقت المدرس أكثرَه ، والأدب خصوصاً الشعر يقتضي الفراغ والانقطاع إليه بالكلية ، وقد شكا ابنُ زاكور في إحدى قصائده من ذلك معتذراً عن عدم إجادته القول بتبلبل فكره لاشتغاله بالتدريس .

1) جمع رب بالضم وهو الشراب .
2) حرز الأماني والتيسير مصنفان في علم القراءات .

وأما النسك والنزوع إلى حياة الزهد والورع فمما لا حاجة إلى بيان أثره في صدّ الأديب عن بلوغ أغراضه وإمساكه عن كثير من الأعمال والأقوال وإعراضه ، وتجد هذا الأمر واضحاً بيّناً في ديوان ابن زاكور حيث يكثر من قوله في قصائد الغزل والنسيب : « وقال على لسان من يليق به ذلك » أو « وقال في زمن صباه » ونحو ذلك بل صرح في خطبة الديوان بأن ما وقع له من ذلك انما هو محضُ صناعةٍ ومحاكاة لأغراض الأدباء محذراً قارئه أن يظن به شراً ويحمل بسوء الاعتقاد فيه وِزْراً قال :

« وكثيراً ما أكني فيه بالمُدام والرّاح عن الطرب والارتياح وما يَرِدُ على القلب من الافراح ، فلا يتوهّمْ من لم يدر الصباح من المِصْباح وقد رأى ما عارَضْنا به شُقّ جَيْب الليل عن نحر الصباح . ان المراد التي تطلع في بُرْج الأقداح ويدور بها فَلَكُ الرّاح فيُلْزِمُني بمقتضى بَلادته وأنا البريءُ أقبحَ جُناح ! وإنما فعلت ما هو بينَ الأفاضل مطروق ، ويعمرُ به عند أرباب المحاسن أيّ سُوق وهل نحن إلا مثلُ مَن كان قبلنا نحسّنُ بديعهم كلامَنا ، ونطرّز باستعارتهم قولَنا ، ألا وليشهد عليّ ذو الأسماء الحُسْنى أنني كلما وصفتُ حُسْناً أو شبّبتُ في الظاهر بما يَفْنى فالمقصود ان لم يصلح كونُه المعنى إنما هو التدريب والارتياض وتصرّف الفكر في سائر الاغراض » . الخ .

فهذان أمران لولاهما لكان يجيئنا من ابن زاكور نابغة فذ يصح أن نطاول به الأندلس وما انتجت ، والعراقَ وما أنجبت ، ولكن مع ذلك فقد خلّف

ابنُ زاكور ديواناً ضخماً وعوض ما تحرج عنه من موضوعات التشبيب والخمْريّات بموشّحاته العبقريات وبدائعه الربيعيات والزهريات .

وإلى هنا نقف الكلام عن ابن زاكور وحياته وننصرف إلى النظر في آثاره ومنتجاته وقد مر بنا انه بدأ حياته الأولية كشاعر في سن مبكرة جداً بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة على سبيل التقريب ، والقصائد التي قالها في هذا الطور من حياته لا تقل عن نظائرها التي قالها فيما بعد نُضْجه وتفتح ذهنه ، وكما ان له فى هذا الطور بعضَ الأقوال البدائية التي تدل على التكلف ، وتظهر فيها آثار الصنعة ، فكذلك نجد مثلها في آخر ما قال بل هو أكثر منها سذاجةً واعظم منها هَلْهَلَةً مما لا تفسير له عندنا إلا الوَلُوع باثبات جميع ما صدر عنْ الشاعر في جده وهزله وحالة جمع فكره وتفرقه ضناً بآثاره على الضياع وعدم إساءَة ظن بالاحسان كما هو الواجب ! حتى لا يخلُص له إلا ما سَلِمَ من النزاع .

وهذا الغلط قد استحوذ على كثير من أدبائنا فلذلك جاءت دواوينهم مشحونة بالغث والسمين، ولم يمكن الفرق بين الرخيص منها والثمين ، وبسبب ذلك قد عَمِلْنا : (المنتخب من شعر ابن زاكور) ومثله من شعر اليوسي .

أما فيما عدا هذه الأقوال التي يجب الاغضاء عنها فان له آثاراً بديعة حقاً تنمّ عن رقة طبعه وسلامة ذوقه في الصغر والكبر وفي أول عهده بالنظم وآخره .

وكما أنه بكّر بقول الشعر الجيد ، بكّر بكتابة النثر الجيد كما يدل عليه تأليفه

لرحلته سنة 1094 وهي من النثر المسجوع القوي كما ستراه حينما نأتي ببعض الفقرات منها .

وعليه ، فهو منذ نعومة أظفاره قد اشتغل بالكتابة والشعر ولذلك خلّف هذه المجموعة القيمة من التآليف مع قِصَر عمره ، وتخلف العصر بابنائه عن دَرْك تلك الغايات وتأخره .

وهذا تعداد ما أبقاه من التآليف بأسمائها الأدبية :

1) عُنوان النّفاسة في شرح ديوان الحماسة (ثلاثة أسفار) مخطوط .

2) مِقْباسُ الفوائد في شرح ما خَفِيَ من القلائد ، (قلائد الفتح بن خاقان) مخطوط .

3) الصنيع البديع في شرح الحِليّة ذاتِ البديع (يعني بديعية الصفِيّ الحلي) .

4) الجودُ بالموجود في شرح المقصور والممدود : لابن مالك .

5) تفريج الكُرَب عن قلوب أهل الأدب في معرفة لامية العرب « مطبوع ».

6) النفَحات الأرَجيّة والنَسمات البَنَفْسجيّة بنشر ما راق من مقاصد الخزرجية . « مخطوط » .

7) المُعْرب المُبِين عما تضمّنه الأنيسُ المطرب وروضةُ النسرين . جمع به بين كتابي القرطاس ، وروضة النسرين باختصار كبير . « مطبوع » .

8) الاستشفاء من الألم في التلذذ بذكر صاحب العَلَم . يعني الشيخ عبد السلام بن مشيش ، ذكر فيه ما له من بنين وإخوة وأعمام وبين مَحال الشرفاء وأهلها .

9) أنفع الوسائل في أبلغ الخطب وابدع الرسائل .

10) الروض الأرِيض في بديع التوشيح ومُنتقَى القريض . وهو ديوانه . « مخطوط » .

11) الروضة الجَنِيّة في ضبط السنة الشمسية . (وهي ارجوزة في التوقيت وحساب ايام العام) .

12) مِعْراجُ الوصول إلى سموات الاصول . « نظم فيه الورقات لامام الحرمين » .

13) الحُسام المسلول في قصر المفعول على الفاعل والفاعل على المفعول .

14) الدرة المكْنُوزَة في تذييل الارجوزة . « يعني ارجوزة ابن سينا في الطب » .

15) الحُلّة السّيَراء في حديث البراء .

16) نشر ازاهر البستان فيمن اجازني بالجزائر وتطوان . (وهي رحلته المطبوعة » .

* * *

ثم ان نثر ابن زاكور نوعان : نثر عِلْمي وهو هذا الذي نجِده في كتبه العلمية كشرح القلائد ، ولامية العرب ، والمعرب المبين ، وهو مُرسَل بين فصيح الألفاظ يدل على تمكنه من ناصية اللغة وقدرته على التعبير عن أغراضه بكل دقة .

ونثر فني وهو ما نجده في رحلته ورسائله وخطبه ، ويمتاز بالسجع المُواتي من غير تكلف ، وتفننه في مطالعه ومقاطعه ، وعدم تقيّده فيه بالنماذج الرسمية والكليشيات المحفوظة التي بسببها صار كثير من الكُتّاب ليس لهم أسلوب خاص بهم ، وإنما هي عبارات مشتركة وتراث موزّع فيما بينهم جميعاً فتجد كتاباتهم متشابهة وقريباً بعضُها من بعض لنقل اللاحق منهم عن السابق ونهج الآخر على منوال الأول .

فهذه خطبة شرح لامية العرب ! انظر كيف بدأها وتخلص لذكر مقصوده من غير أن يبالي بما اصطلح عليه أهل عصره من التقاليد كالشهادة وتأسيس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وقَصْر الانتقال على عبارة : و « بعد » او « أما بعد » فضلاً عما أتى به بينهما من التعليل والتفريع ، والاعتراض الذي يدل على أنه كان يكتب كما يريد هو لا كما يراد منه ! وهي : « الحمد لله الذي جعل معرفة كلام العرب من أقوى دواعي الطرب ، من أجل انه أحلى من الضّرب ، على ان الناس في ذوقه متفاوتو الرّتب وصلى الله على سيدنا محمد أفصح العرب قاطبةً ، فانه بلغ مَشارقَ البيان ومَغاربَه ، واسترقَ ساريَه وساربه ، فلو اجتمعت لانس والجنّ على أن يأتوا بمثل فصاحته ما استطاعوا

ولو ظاهرَ صاحبٌ منهم صاحبَه ، وكانت نسبةُ كلامهم من كلامه ، عليه صلاةُ الله وعلى آله وأزكى سلامه ، وان قادُوا البيانَ بخِطامه ، وافرغُوا السحر في قالَب نثرِه ونِظامه ، نسبةَ التّرب من التبر والخشَب من الذهَب ، ومع هذا فإنّ معرفةَ كلامهم وسيلة لى معرفة كلامه ، وما أُنزِلَ عليه وسبب ، فكانت لذلك من أعظم الوسائل واجلّ القُرَب ، فلذلك شرحتُ لاميةَ العرب ، وأجلستُها من البيان على مُرتَقب وكشفتُ عن وجهها الذي طالما قد انتقَب الخ »

ويطول بنا الكلام لو نقلنا من مقاله كل ما يليق بهذا المقام ، فلنقتصر على هذا ، ولنأت بقطعة بديعة من نثره الفني في وصف مُتنزه « كِيتان بتطوان » نقلاً عن رحلته ، قال :

« وهذ الكِيتان : من اجمل المواضع وأفضل المتنزهات والمصانِع ، تطّرِدُ خلالَ رياضه أنهار ، تجري في الصباح بذَائِب اللّجَيْن وفي الأصيل برائق النّضار ، وتسجَعُ بأدواحه أطيار ، لا تدانيها نغماتُ الأوتار ، فقد اعتدل هواوُه ، واشتمل بالابتهاج بَهاوُه ، تُغَصّ الزهراء بطلاوةِ مرآه ، وتودّ الزّهرَةُ لو ترتدي بمُلاءة حُلاه ، وتحسد جمالَه النضير ، وطِرازه المُرونق ، محاسنُ السّدِير ، وبدائعُ الخَوَرْنَق ترتاح النفوس في بساتينه ، وتحيى الأرواح بشم رياحينه ، ان حل مَن أنحلَه الوجدُ برباه ، صاح من حينه : واطَرَباه ! وأسلاه تسلسل غُدْرانه ، وتغريدُ ورْشانه عمن قطف لبّه بأجفانه ، ومزّق قلبه بهجرانه » .

فهذه القطعة إنما هي شعر منثور قد اشتملت على تشبيهات واستعارات وخيال جميل ، ونظام أصيل ، مما لا يكون إلا في الشعر ، وهكذا غالب نثره الفني .

وأما شعره فقد جمعه ابن زاكور كلّه في ديوان سماه : « الروض الأريض في بديع التوشيح ومُنْتقَى القريض » ورتبه على حروف المُعْجَم في الأول ثم صار يُلْحِق به ما جدّ له من النظم على غير ترتيب ، وقد انحصرت أغراضه الشعرية في المديح وهو أكثر ما في الديوان والرّبيعيات ، والزّهْريات ، والغزَل والرثاء والنصائح والاخوانيات ، ولكن هذه الأغراض الثلاثة الأخيرة فيه قليلة ثم المديح أكثرُه في الأولياء والصالحين من رجال المغرب بالخصوص ، فقلّ أن ترى ذا ضريح معروف أو مقام مشهور إلا وله فيه مدح أو توسل به ؛ وهو في ذلك متأثر بشيخه اليوسي وبوسطه المعلوم بهذه النزعة ، وله كذلك مدائح في النبي صلى الله عليه وسلم ومشائخه الكُثار وفي السلطان أيضاً .

ونظمُه كما يُنْبِىء عنه اسم ديوانه على نوعين : موشح وخلافُه من بحور الشعر المعروفة ، وأما تَوْشيحاته فانها جميعاً من الإبداع بمكان لا سيما وموضوعاتها في الغالب من هذه الموضوعات التي تهز المشاعر وتمسّ أوتار القلوب ، وأعني وصف الطبيعة في مظاهرها الجميلة من الربيع والرياض ، أو الغزل والنسيب .

وأما شعره الآخر : فمنه ما هو جميل رقيق سلْس عذْب ينم عن ذوق أدبي سليم وملَكَة مُبْدِعة مطبوعة ، ومنه ما هو شعر بدائي ساذَج شبيه

بالانظام العِلْمية وقريب من اشعار الفقهاء . ونحن لا نعتبر هذا من قوله ولا نقيم لهوزناًعندالنقد إنماشعره عندنا القسم الأولوهوالذي يُحكَم بهعلى شاعريته ! ضرورة أن لكل شاعر سقَطا ، ولكل قائل غلطا ، ولكن من هذّب شعره وتخيّره فقد أخذ بالحَزْم ، ومن تَرَكه على أصله وفيه ما احتُفِلَ له وما ألقي على عواهنه في ساعة من الساعات التي يكون قَلْعُ ضرس الشاعر فيها أهونَ عليه من قول بيت شعر ! كما يقول الفرزدق فقد ضيّع الحزم وان اعتذر بما اعتذر كصاحبنا ابن زاكور الذي يحمل دَرَك ذلك على غَرارة الشباب ، ويظن ان حُسْن الحَسن يُغطّي على قُبْح القبيح فلذلك رتب الديوان على حروف المعجم ، وهذا قوله :

« وبعد ؛ فهذا ما أثمر به روضُ القريحة إبّانَ الشباب ، وألقَحَه نسيمُ الفكر إذ ذاك من خطإ أو صواب ، رتبتُه على حروف المعجم ليشتمل المُبْهَم بفضل رداء المُعْلَم ، ويتعَزّز الضعيف بجوار ذي العز المنيف » .

وعلى كل حال فانا عند الحكم على شعره انما نظرنا في الديوان كما لو كان منتخباً مهذّباً صادرين في ذلك عن قول بشّار بن بُرْد فيما حدث عنه العباسُ ابن الفضل قال :

« كان بشار يجلس في مسجد الرّصافة فيحضره ناس كثير ويحدثهم وينشدهم شعره ، فاندسست في الناس ليلة ثم صحت به يا أبا مُعاد ! من الذي يقول :

أُحِبّ الخاتَمَ الأحمر من حبّ مَواليه ؟

فأعرض عني وأخذ في إنشاد شعره ، فلبثت ساعة ثم صحت به : يا أبا معاذ ! من الذي يقول :

إنّ سَلْمى خُلِقَتْ من قَصَب   قصَب السكّر لا عَظْم الجمل
وإذا أدْنَيْتَ منهـا بَصلاً   غلَبَ المسكُ على ريح البصل

فغضب وصاح : مَن الذي يُقَرّعُنا بأشياء كنا نعبَث بها ويأتي برُذّال شعرنا وما لم نُرِدْ به الجد !؟

فاذا انتفى شيخ المولّدين من سقَط شعره واغتاظ ممن يرويه عليه ، فابن زاكور أولى بذلك وأحرى أن يغض الراويةُ النظرَ عن ضعيف شعْرِه ، ويطوِيه على غِرّه ، آخِذاً لِلُبابه نابذاً لقَشْره ، وهذه بعض النماذج المختارة منه :

قال يمدح الشيخ علي بركة وهي من نفيس الشعر وحلال السحر وقد نظمها في سنة 1093 فهي من أوائل نظمه :

إلى مَ فؤادي يذوب زفـيرا   لقد كدتُ أقضي مُعنىً حسيرا
عراني من الوجـد ما قد نفى   كرايَ وأذكى حشايَ سعيرا
فمِن رقّة قـد حكيتُ نسيماً   ومن دَنَف قد حكيت نَضيرا
وشَيّبَني والشبابُ نضِـير   صدُودُ الألى أودعوني زفيرا
ومَن لسعتْه أفـاعي الصدود   فأجْدِرْ به أن يشيب صغيرا
فمـاذا على وُدّهم لوْ دنا ؟   وما ضرّ لو نعشوني يسيرا ؟

وماذا علـى عاذلي لو غـدا ... عذيراً لمن كان مثلي أسيرا ؟
فيا عـاذلي لا تكُن عاذري ... ولستُ أؤمّـل منك عذيرا
ويا هـاجِرِي لا تكُن واصِلي ... إلى ان تُوازي الحصاةُ ثبيرا
فَمُذْ شِمْتُ بَرْقَ العلا والهدى ... لدى (بركات العُلا) مستطيرا
سلوتُك فانجابَ ليلُ الأسى ... وأسفرَ صبح السرور بشيرا
فـلا مُقلتِي تستهلّ دمـاً ... ولا كَبِدِي تتداعى فُطورا
ومَن شامَ بَرْقَ العلا مُستطيراً ... فلا يعدَمَنّ دَداً وحُبُـورا
وهـان علـيّ الـذي قَد لقيـ ... ـتُ لمّا سقاني نَـداهُ نميرا
وأنقذني مـن ظـلام الهوى ... وكان لقلبي المعنّى مجيرا
إمـام تَسَرْبَل بالمـكرُمات ... وأرخى إزارَ العفافِ كبيرا
وطـاولَ بدْرَ السماء منيراً ... وساجَلَ قَطْرَ الغَمام غزيرا
وأضحى لكأس المعالي مُديراً ... وأمسى لروض العلوم سميرا
تواضعَ حِلْمـاً فزاد ارتقاءً ... ورامَ خفَاءً فزاد ظُهُورا
ومَن رام إخفاء بـدْرِ الدياجي ... بِجُنْح دُجى زاد نوراً كثيرا
تناهت مذاهِبُـه في العُـلا ... فليس يُرى لسواهـا ظهيرا
فطوراً تراه لقـوم بشيراً ... وطوْراً تراه لقوم نذيـرا
وكائن تـراهُ يفك المُعمّى ... ويُوضح ما كان صعباً عسيرا
الى رقّـة لو حواها النسيم ... لما قصّف الدهرَ غصناً نضيرا
ونظْم يُنسّيك شعر (جرير) ... إذا أنت عاينتَ منه سطورا
ووجه جلا البشرُ عنه الوجُوم ... فليس يُرى أبـداً قمطريرا

تضيء الديـاجيرَ غرتُـه فتحسبها قَبَساً مُسْتَنِيرا

* * *

ألا هــل أتى مَعْشري أنني عَلِقْتُ بتطوان عِلْقاً خطيرا
وآويتُ منهـا إلى جنّـــة فلا شمسَ فيها ولا زمهريرا
لدَى عـالِم قـد حوى عالماً وحَبْر تضمّن خلقاً كثـيرا
وألْحَفَهـــا من محاسنه بُرُوداً يحكت سندساً وحريرا
وأسْرَجهـــا بسراج الهدى وكم مكثت قبلُ تحكي قبورا
فلا نجْدَ إلا استطـار سنىً ولا غورَ إلا تلألأ نـــورا
ولا غصنَ إلا تَثَنّى ارتياحاً ولا طيْرَ إلا تغنى سرورا
اضاء سناها ففاح شـذاهـــا فشِمْت سنىً وشَمِمْت عبيرا

* * *

إمـامَ الورى بشفيع الورى أصِخْ لنظامي وكن لي عذيرا
وأسْبِلْ عليه بـرود القَبول فلستُ (حبيباً) ولست (جريرا)
وهبْني كذاك فمَن لي بمـــا أحلّي بــه مجدك المستنـيرا ؟
ومَن أرْهقَتْه خطُوبُ الدنَى فكيف يحوك القريض النضيرا
فعذراً لمـن خانـه دهـره و أخنى الزمان عليه مُغيرا
ودونك مني سلامـا كريمـا يُفاوِحُ عرفُه روضـا مَطيرا

وقال يمدح الشيخ محمد بن عبد المومن الشريف وفيها وصف بديع للبحر وغزل ظريف ، وكان نظمها سنة 1094

البحرُ قد أبدى سَنَا نَضْرته … فهامت الأعينُ في بهجَتِه
قد خلع الحسنُ عليه حلىً … وانتظمَ الإبداعُ في لبّته
كأنه والشمس قد أودعت … شعاعَها الأنضَر في لُجتّه
مطارفُ العِقْيان قد طُرّزتْ … باللاّزَوَرْد الغَضّ من زُرقته
ذكّرَني عهداً لنا قد مضى … بأرض تِطوان على ضِفّته
في جنّةٍ أربَت على جِلّق … علّمها الحسنُ بألْوِيَته
ما شئتَ من نَوْر كدُرّ على … زَبَرْجَد يسبي سَنَا خضرته
ومن غصون قد سقاها الحيا … فعَربَدت بالرقص من خمرته
دبّجَها النوّارُ من أصفَر … يحكي النّضار الغض في كُهبته
وأحمَر يشبه خدّ الذي … أنحَلَني الشوق إلى روئيَتِه
حيثُ المُنَى تُطلِعُه قمراً … تنأى دُجى الأحزان من طُرّته
لم يَعْرُهُ هجرٌ يهيجُ الجَوَى … ويعطف القلب على حرقته
إلا نِفاراً هو في طبعه … ان نفارَ الظبي من خِلْقَته
ينفرُ تِيهاً ثم يثنيه ما … يبصر من وَجْدِي على نفرته
فقلتُ إذ أبصرتُه تائهاً : … كن راضياً حِبّي عنيّ وتِه
ولا تعذبْني بنار الجفا … يا مَن حياةُ الصب في قبضته
فافترّ أين الدرّ من ثَغْرِه … وأين نَشْرُ المِسْكِ من نَكْهته
وأين بَدْرُ التّمّ من وجهه … وأين لمعُ البرق من غُرّته

واهتزَّ عُجْباً بخضوعي لـه ... فأين غصنُ البان من هزّته
أيّ هِلال في قضيب نَقي ... أضاءه الدَّيْجُور من لِمّتهْ
عانقتُ من قـامته غُصُنـاً ... كما قطفتُ الوردَ من وجنته
لم أصْحُ من سُـكرِي بتعنيقه ... إلا بتقطيعي على فُرْقَتـه
أيّ زمـان قـد مضى مسرعاً ... يا حَرَّ أنفاسي على سرعته
لم أنتبه مـن نـوم لذتـه ... إلا بأشواقي إلى أوْبَتـه
يا ليتَ شعري والمُنى ربما ... تساعد المُشتاق في بُغْيَتـه
هل يدنوَنَّ الغَرْبُ بعد النوى ... فاقْطِف الآمـال من ضيعته
وهل أرى تلـك البدور التي ... تَزْرِي ببدر الأفقِ في طلعته
ما أقدَرَ الله عـلى رَدَّ مَن ... نَدَّ بـه البَيْن إلى فِئَتِـه
فيا نسيماً مِن حماهـم سرى ... شممْتُ عَرْفَ المسك من هبّته
كيف الرُّبَى والمُنْحَنَى والنّقا ... والنهرُ والرّوْضُ على ضِفته
عهدي بها مَرْتَع كلّ رشا ... لا راعها الدَّهْـر بتنحيته
وكيف أحبابي وهـل علموا ... شوقي الذي أوبِقتُ في أزمته
نـكبَتي الدهـر ببينْهم ... أشكو إلى الرحمن من نَكْبته
أمْسَيْتُ صَبّاً بالجزائـر لا ... أعدَم شجْواً ذُبتُ من حسرته
لولا ابنُ عبد المومن المرتضى ... قضى فؤادي من لَظَى لوعته
جعلتُه قصـدي ونِعْمَ الذي ... يقصِده الانسان في غُربتِه
العـالم النحرير من دَأْبُه ... أن يُنقِذ الملهوف من كُربته
وان يُواسي مَن به ركضتْ ... خيلُ النّوى أو حادَ عن وجهته

انحتْ آمــــالي به فانثنت | عـــاطرَةَ الانفاس من نفحته
إن تسأل الأحبــابُ عن نُزُلي | فهـــا أنا انعَمُ في جنّتــه
أقْطِفُ أنْوارَ المُنى غضّــةً | تحتَ ظــلال العلم في حضرته
أثقلَني بالبرّ حــتى لقــد | أعجزُ ان انفكَّ من حوْزته
ما شانَه عيبٌ سوى أنّــه | يُغْضي على مِثْليَ في هَفْوَته
ويُسعِفُ الطالب في قصــده | ويُسْعِدُ الراغب في رغبته
نُزهتُه في العــلم يدرسـه | لا عاقَــه المِقْدَارُ عن نزهته

* * *

ما ذا يقول المرء في مــدحه | وقد تناهى الدهرُ في خدمته
والشمس أوْلَتْهُ أشعتّهــا | والبدرُ حــلاّه بتحــليتـــه
وخيّم المجـــدُ بساحتــه | وفاض بحرُ الجود في بُرْدته
بَدْر الهدى والعلم يا مَن غدت | تسجد أمــداحي إلى قِبْلته
خذْها عــلى رغْم العدا غادةً | لفّعهـــا الصدق بأمنيتــــه
خَوْد زهت إذ بُشّرت بكم | ولفّها المجــدُ بأرْديَتــــه
كم رامها قبلك ذو همــــة | فلم تُصِـخْ سمعاً إلى خطبته
بنتُ ابنِ زاكور فمنشــأهُ | فاسٌ وأهلُ الفضل من أسرته
صَدَاقُهـــا الغــالي قبُولُكها | منه فمـــا أغــلاه في نيته
فاسْمَح لــه واقبَلْ هديّته | وعَفَّ بالصفْح على زلّته
لا زلتَ ذا حــال تسُوءُ العدا | ما حنّ ذو بُعْد إلى تُربته

والله يُبْقِيك إمامَ هدى ما غرّد القُمْرِي على دَوْحته

وقال توشيحاً :

كُنْ عاذِلي أوْ لا فالنّشرُ فاح من الأقاح
فنَشْوَتي أوْلى من لَحْي لاح بينَ البِطاح
دَرَاهِمُ النّوْر وشّتْ بُرُود خُضْرِ النّجُود
ونَفْحَةُ الخيْري جاءت تَقُود سَعْدَ السّعُود
وَنَغْمَةُ الطّيْر أنْسَتْك عُود غَيْداءَ رُود
حادِي المُنى امْلَى آيَ انشراح ذاتَ اتّضاح
لله ما أحْلَى نَشْرَ الأقاح مَع الصباح
ما ابْدَع البُسْتان قَدِ اكْتُسى بالسّندس
مكلّل الأفْنان في عُرُس بالنّرجِسِ
فطَيْرُه النّشْوَان لا يأتَسِي بمَن نَسِي
فاطْرَب به كَيْلا تُرْضِي اللّوّاح فَهْوَ النجاح
ولا تُطِعْ نذْلا يرَى الجُناح في الارتياح

وقال توشيحاً أيضاً :

هل لصَبّ من لَماك المزْدرى بسُلاف الراح
رَشَفَاتٌ مُزِجَت بالسّكّر تمْنَح الافراح
مرويات عن صَحاحِ الجوْهر عن مُنَى الأرواح
عن هِلال الحُسْن عن ظبْي النّقا عن قضيب البان

مَن جِنانَ الخلد دوني أغْلَقا　　رِقّ يا رِضْوان !
وارْثِ لي مِن ذا العذاب الأكبر　　فعسى أرْتاح
فعلى ذاك المُحَيّا الانور　　ذي السّنا الوضّاح
مِن شجٍ نشْرُ سلام عنبري　　ما انبرَى الإصباح
وثنَتْ بانَ الرّبى كفّ الصّبا　　وشدَا القُمري .
وصبَا قلبي لأيام الصّبا　　ريّقِ العُمْرِ

وقال كذلك معارضاً موشحة ابن سهل ؛ (ليل الهوى يقظان) :

مَن علّم الغِزلان　　الفتْكَ بالليث الجرِي
وسلّط العينان　　على قُلوب البشر
يا ضَرّة الشمس　　اللهَ في الصب الكئيب
يا مُنْيَة النفس　　هجرُك للنفس مُذيب
حدّثَني حَدْسي　　انك لِلّبّ سَلِيب
بأسهُم الأجفان　　ذاتِ العذاب الأكبر
مُصْمِيَة الوَلهان　　بالدّعْج والحَوَر
ما ضرّ يا محبوب　　يا هاجرِي بلا ذنوب
لو تُنْعِش المطلوب　　بلفظِكَ العذب الحلُوب
بغاية المَرْغوب　　من وصْلكَ المحْيي القلوب
تذكّر يا وَسْنان　　يا ذا الرّواء الأنضر
ليالِيَ البُستان　　تحتَ العَريش الأخضر

وأنا في نشْوَه — من خَمْرِ ثغرك النقي
مُهيّج الصبْوَه — لكل من لم يَعْشق
لم تعرُنا جفوَه — تُثِيرُ نارَ حُرَقي
ما بيْننا ندْمان — إلا أريجُ الزهَر
أو نغمةُ الوَرْشان — على غصون الشجر
والبدْرُ من بعده — يَرْقُبنا بكلّ عين
أرسل من وَجْده — عَيْناً علينا الفَرْقَدين
فخاب في قَصده — وخَيْبة الرّقْبان شَيْن
والوُرْق في الأغصان — فاقَتْ حَنين الوَتَر
بمُطرب الألحان — عند الصباح المُسْفِر
تُثير أشواقي — بصوتها المُبْرِي السّقَم
قامت على ساقِ — إذ عنبرُ الليْل بَسَم
عن ثغر أشواقِي — تشدو بطيّب النغَم
مقالَ ذي أشجان — حِلْف أسى وضَرَر
(ليلُ الهوى يقْظان — والحبّ تِرْبُ السهر)

وقال في الربيع موشحاً :

جلّ صنيع البَديع — الفاعلِ المختار
حلّى الربيع البديع — بحِلْيَة النوّار
سرّ بديع لي مُذيع — سرائرَ الأزهار
الروض راضْ وهو راض — غصون أشجاره
شِفا المِراضْ في مِراض — جُفُون أنواره

صحّ العليـل من عليـل نسيمه المِعْطـار
إذ في تميـل النخيـل من غُصنِه أسرار
وفي مَسيـل سَلسَبيـل مياهه استعبـار
نعلُه مَـاض عنـدَ قـاض أفكارِ زوّاره
إذ لا اعتراض في اقتراض نفُودِ أزهارِه
ولا جُنـاح في مُبـاح ألحـان ورشانه
وهل يُتـاح ارتيـاح إلا بريحـانه
نروي الريّـاح عَن صَحاح آثـار نيسانه
مَن في الريّاض والحِياض أجلّ أوطـاره
نبـه تُـراض عـن تراض بنـاتُ أفكاره

وقال في الشوق والنسيب :

يا رعى اللهُ ليالٍ قد خلت كلآلٍ في سلوك من نُضار
وعهوداً سلفتْ لي بالحمى فسقى الوبلُ الحمى غير مُضار
حيث لا همّ ولا غمّ سوى رنّةِ العُود وكاساتٍ تُدار
من عُقار كنُضار افرغت في اباريقَ حكت شُهُبَ الدرّار
عللّوا قلب الشجي من شربها ما أُحيلى الشرب من تلك العُقار
معْ ظِباءٍ كَلِف القلب بهم سمحوا بالوصل من بعد نِفار
في رياضٍ كزَرابٍ نُمّقتْ بشقيق كعقيق وبهـار
أأرى احظى بوصل بعد ما بعدت من طاقتي تلك الديار

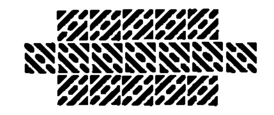
فعلى آرامِهـــا من دَنِف شائقٍ نشْرُ سَــلام كالعَرار

وقال في مدح تطوان وهو من مشهور شعره :

تِطْوانُ مــا أدراكما تطــوانُ تجري بهــا الأنهارُ والخُلجان
قُلْ إن لَحاك مكابرٌ في حسنها هي جنّةٌ فِرْدوْسُها الكِيتان

وقال يصف البحر وهياجه وقد أراد ركوبه إلى الجزائر :

يا أيها البحرُ مهــلاً فقد دهــانا اهتياجُك
إنا همَمْنــا بأمــرٍ منعَ منــه انزِعاجك
لو كنتَ تدري لابــدى سيمَا السرور ابتهاجُك
يا ليتَ شعري إلى كمْ يحكي فؤادي ارتجاجُك !



ابن الطيب العلمي

الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

AD 1994 - H 1414

دار الكتاب المصري

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة - ج.م.ع

ت: ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٢٤٢٠١ - ص.ب ١٥٦ محمد فريد - الرمز البريدي ١١٥١١

برقيا: كتامصر - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)

TELEX No: 23081-23381-22181-21881

ATT: MR.HASSN EL-ZEIN

FAX: (202): 3924657

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول

ت: ٨٦٠٧٩٢ - ٨٦١٥٦٣ - ص.ب ٨٣٣٠ / ١١

برقياً «دكالبان»

TELEX: DKL 23715 LE

بيروت - لبنان FAX (9611) 351433



14

ابن الطيب العلمي

بقلم
عبد الله كنون

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

ابن الطيب العلمي

اسمه – نسبه – مناقشة تعليق القادري على نسبه – النسب العلمي – فروعه وجماعه – عصره – تحديد تاريخ ولادته – والده – يتمه – طلبه – نبوغه – شعره – أغراضه – ضعفه في الرثاء – مرثيته للشيخ علي بركة – مقابلته بالصفدي – نثره – انتقاده لمرتكبي الغريب – مثال من نثره في النقد – آثاره – وفاته بمصر .



أبو عبدالله محمد بن الطيب بن أحمد بن يوسف بن أحمد الشريف العَلَمي . قال القادري في النَّشْر كذا كان يُنسب نفسه وهو فاسيّ الدار والمنشإ والقراره. فما معنى قوله كذا كان ينسب نفسه ألم يكن الناس ينسبونه كذلك ؟ أما مخاطبات اخوانه وكذا شيوخه التي أثبتها في كتابه الانيس المطرب فانها تكاد لا تخلو واحدة منها من هذه النسبة وليس ذلك قاصراً على النثرية منها فقط التي يمكن أن يقع فيها التبديل والتغيير بل ان الشعرية كذلك عامرة بهذا الشرف العَلَمي الذي كان أديبنا ينسب نفسه إليه . وحلاّه الإفراني في شرح التوْشيح بالأديب الأوحد أبي عبدالله محمد بن الطيب الشريف العلمي مرة ، وبتاج الأدباء وسراج البُلغاء صاحب القلم البليغ ابي عبدالله محمد بن الطيب الشريف العلمي

مرة أخرى ، وهو معاصر له ، فلم يُغْفِل ذكر شرفه في واحدة منهما ، زيادة على ما وصفه به من عظم الكفاءة الأدبية ، فلعل مراد القادري التقصي من درك إثبات هذه النسبة لكونه لم يطلع على حقيقتها لا الإنكار الذي يُجلّ مقامه عنه .

وحقيقةً فان النسب العَلَمي كثير التشعب عظيم الاختلاط حتى اشتهر بين الناس أن الأدعياء أكثر ما يندسون فيه لأمْنِهم من الفضيحة بسبب عُسر التمييز بين فروعه الكثيرة إلا على المطلع الخبير .

ثم هو على تعدد الفروع يرجع إلى أصل واحد وهو السيد أبو بكر جد مولانا عبد السلام بن مشيش . قال في دُرّة التيجان :

وابنُ مَشيشٍ قطبُ سِرّ الله	وارثُ نِسْبَةِ رسول الله
وجدّه المولى ابو بكر السّمي	هُما جِمَاعُ كلّ شِعْبٍ عَلَمي

وقال في شذور الذهب : « فمن السيد أبي بكر تفرعت جميع شرفاء العلَم » ثم قال : « ولِعقِبه رضي الله عنه أسامي وألقاب ، وقد ذكرناهم واحدا بعد واحد » الخ . ولا ندري هل كان لشريفنا ابن الطيب لقب زائد على العَلَمي أم لا . نعم رأيتُ في شرح ابن شهْبون على لامية العجم وصفه باليونسي والعلميّون اليُو نسيّون أيضاً لهم ألقابٌ خاصة ، فمنهم أبناء المؤذن والرّيسونيون وبنو رَحْمُون وغيرهم فيبقى لقبُه الخاص مع ذلك غير معلوم لنا .

وأمّا بَعدَ هذا فاننا نواجه عُقْدة عسيرة الحل في حياة هذا الاديب الا

وهي معرفة تاريخ ولادته فاننا لم نظفر بمن يشير اليه حتى هو نفسه بالرغم عما ذكره في كتاب الانيس المطرب من مُختلِف الاخبار عن حياته وماتقلب فيه من الاطوار لم يُشِرْ أصلاً الى هذا الامر الذي له أهمية كبيرة بالنسبة الى استجلاء وجه ترجمة الشخص واكتناه تطوره في حياته الادبية مما يعين على قياس نبوغه قياساً دقيقاً . فقاتل الله الاهمال فكم قتل من الرجال !

وحيث أعوزنا النص الصريح على تاريخه الصحيح فلنرجع الى ماذكره هو من الملابسات والظروف الخاصة مُقارِنين لها ببعض الحوادث التي لها تاريخ معروف عسى ان نصل الى نتيجة إيجابية من هذا السلب العام .

فقبل كل شيء لا نظن أن زمن وجوده سبق العصر الاسماعيلي وان كان لم يتأخر عنه أيضاً إذا كانت وفاته سنة 1134 أي قبل وفاة المولى اسماعيل بخمس سنين ، فقد قضى اذا حياته كلها من مبدئها الى منتهاها في ظل الدولة الاسماعيلية كما اننا لا نظن انه جاوز العَقْد الخامس من العمر فتكون ولادته في أول القرن الثاني عشر أو في العقد الاخير من الذي قبله إن ذهبنا بها بعيداً . وذلك أنّا نظرنا سني وفياتِ أشياخه الذين اشتغل عليهم وأخذ عنهم وبعضهم ممن أخذَ عنهُم الكتاب العزيز فوجدنا من اولهم وفاةً مَن كانت وفاته سنة 1106 واكثرهم ممّن قاربه في سنة الوفاة او تأخر عنه . فهذا ما يقوي الظن بانه لم يعمر طويلا اذ الذي يموت بعد شيخه الذي كان يقرأ عليه القرآن وهو الشيخ مسعود جمّوع بخمس عشرة سنة ، وقبل الشيخ الذي كان يقرأ عليه النحو والبيان وهو سيدي محمد بن عبد السلام بناني بتسع وعشرين سنة لا شك انه مات مبكراً .

ودون هذا فقد صرح هو بما يعضد الفرض الاول اذ قال في كتابه الانيس المطرب معتذرا عن قصيدة رثى بها الشيخ سيدي محمد بن مولاي عبد الله الشريف :

« ... وكان نظمي لهذه القصيدة ارتجالا في زمن الصغر مع ما انضم لذلك من سرعة الارتجال فهي جديرة بان ينظر فيها بعين الرضى وتقابل بالتجاوز» والشيخ المذكور توفي سنة 1120 ففي هذه السنة كان أديبنا لا يزال صغيراً باعترافه هو وقد جرى العرف بأن الصغير إنما يطلق على من كان في سن العشرين فما دون فان تجوز فيه فلا يطلق على من جاوز الخامسة وعشرين الا ان كان ممن يسلك بنفسه سبيل الجنس اللطيف فلا حرج اذاً عليه أن يكون كلما تقدم في العمر كلما تأخر في السن ! ثم إن مترجمنا يقول : إنه قرأ القرآن أولا على والده ثم انتقل عنه الى المكتب . فوالده كان حافظاً للقرآن بحيث يُقرئُه لغيره . نعم يظهر انه لم يكن على جانب من العلم وإلا لأعلن ولدُه ذلك وذكره فيمن ذكره من شيوخه العلماء . ولا يفهم أن ذلك كان لسبقه بالوفاة عن زمن طلب ولده فانه يقول : «ثم انتقلت عنه» وهذه العبارة نص في ان الانتقال كان في حياته الا انه لا يظن أن وفاته تأخرت كثيرا الى مابعد اشتغال ولده ونجاحه فاننا لم نعثر للمترجَم على بيت من الشعر قاله في رثاء والده ولا كلمة تأسّف مما يؤيد انه سبق نبوغَ ولده بكثير .

وعليه فإن أديبنا قد تيتّم صغيراً فنشأ معتمداً على نفسه وتمادى على الطلب كما كان يريده والده الا أن طلبه على ما يظهر لم يكن متواصلا بل كانت تتخلله

الفَتْرة وتعرض له العَثْرة وذلك هو السر في طول مدته إذ لا نعتقد ان ذلك كان عن جموده وبلادته . وربما كان السبب في هذا الانقطاع هو تلك الصّبْوة التي نشأت مع أديبنا اليتيم ، إذ لا يخفى مايدفع اليه عدم وجود الرقيب على الولد ، وبعبارة اخرى ماتدفع اليه الحرية المبكرة للنشئ من الانهماك في اللذة والمتاع والاكباب على اللهو واللعب خصوصاً مع ملاحظة ما طُبع عليه الشريف من الذوق الفني والاريحية الادبية ، فلا جرم انه خُلِق ليكون مُطرِبا مُؤْنّساً لامدرساً مُهَوّسا ! ولانعلم بالتدقيق في أي سنة بدأ بالنظم وان كان هو يثبت انه بدأ بذلك صغيرا كما رأيتَ وقد جعل من أوليات شعره قصيدتَه التي رثى بها شيخ آل وزّان كما سبقت الاشارة الى ذلك وقصيدةٌ اخرى في مدح المولى اسماعيل وهي مما صدّر به ديوانه الانيس المطرب . والواقع ان هاتين القصيدتين يلوح عليهما أثر التكلف والمعالجة مع خلوهما الا من هيكل النظم والالفاظ . وتزيد الاولى على كونها من نظم الصغر أن موضوعها وهو الرثاء لم يكن لاديبنا تمرّس به فسواء لدينا ما نظم منه في الصغر او الكبر . وفي الحقيقة ما له وللرثاء؟ ونفسُه المرِحَة لم تُخلَق لتحزَن وتأسى وإنما لتأنَس وتطرَب فان بكت فعلى ظبي نافر وان أسفت فعلى حبيب غادر ! اللهم إلا تلك القصيدة التي رثى بها مفخرة تطوان الشيخ على بركة فانها لإحكام صنعتها قد تُستثنى من عموم هذا الحكم فيمكن ان يقال إن فيها شيئا من معنى الرثاء . وهي هذه :

مِنّي عليكَ السلامُ والبركه ... يا واحد العصر يا علي بَرَكَه
قد كنْتَ ذا ورع وذا أدب ... وذا مُدارَسة وذا ملَكَه
عُلّمْتَ عِلْماً وكنتَ مالكه ... وحُزْتَ حِلْماً سواك ما ملَكه

لم يبقَ عــلمٌ إلاّ وتعلَمُه فهل رميتَ عليه من شبَكه
سبَكت صعبَ الكلام حتى بدا وما رأينا سواكَ مَن سبَكَه
وكان نجمُ العلوم في فَـلَك حتى أدرت على الورى فلكه
سلكت بالناس نهجَ مصلحة لولاك مــا كان واحد سلكه
وكنت في النحو غـير مشترَك والناس كم ناصبٍ له شرَكه
صيّرتَ تطـوان كلّها عرباً فما ترى اللحنَ ثمّ في حرَكه
واليوم ماتُوا ـ اذ متّ ـ من أسف وما لهم ان سكنتَ من حركه
لذاك عيني تعومُ بعـدك في بحر الدّمُوعِ كأنها سمكه
هتَكْتَ يا موْتُ فيه عِرْضَ فتى لولاك ما رِيءَ قـط من هتَكه
يا قوم مــا أسرع الحِمَام له ما ضرّه في الوجود لو تركه
انا احتسبناه يومَ صـادمه مـوْتٌ تحمّـل وحده درَكه
يا رب بارك للخلق في خلَف كي لا يعيش الورى بلا بَركه

أما مَرْتَعُه الخصيب ، ففي الخمريات والتشبيب ، اذ له فيهما كل معنى مطرب ، في لفظ جزل ونظم مُتسق واسلوب معجِب وشعره في هذا الغرض ينقسم الى قسمين : مقطوعات وقصائد . أما المقطوعات فيغلب ان تكون مصطنعة غاية القصد منها نكتَةٌ بديعية وصنعة لفظية ولا زائد ، فهي اشبه بمقطوعات الصفدي وامثال الصفدي من عُبّاد الزخارف الكلامية . وانت عندما تتأمــل بعضا منها لا بد ان تتذكر الصفدي ولا بد ان تلمس هذا الشبه بينه وبين مترجمنا . فان غفلت عن هذه المقايسة ارشدك الشاعر اليها بقوله :

ولي لِسانٌ يَزِينـــه لَسَنٌ أكادُ فيه أقاسُ بالصّفــدي

أما القصائد فمنها والحق يقال ما يتافكأ فيه اللفظ والمعنى سلاسة وعذوبةً فيكون مثالا للشاعرية الرقيقة التي لا تبدَهُك بشتّى المعاني والصور ولكنها تملأك سحرا وفتونا خصوصا وقد وُفِّق شاعرنا الى اختيار بعض بحور الشعر الخفيفة مثل الرمل والسريع والمنسرح ومرّن عليها فلانت له وطاوعته اشد المطاوعة فازداد نظمه بها حسنا على حسن ورونقا على رونق . والاخيران بالخصوص هما مما نظم عليه كثيرا على خلاف اكثر الشعراء الذين اطرحوهما في زاوية الاهمال وهذا دليل على عبقريته الفنية وحسن تصوره للجمال فان الملاءمة بين المعاني والألفاظ كالملاءمة بين الألوان والصور يُستَدَلّ منها على ذوق الرسّام وسلامة إدراكه فلا عجب إذاً ان كان من الناس من هو معجب بشعره جداً كما يقول القادري . ونذكر الآن نموذجاً من مقطوعاته وبعضَ قصائده ليطابق القارىء بينها وبين هذا الحكم فيقتنع بصحته ولو في الجملة فمن المقطوعات قوله :

ضلَلْتُ بليْل الشّعْر لما أطاله وكم عاشق بالوجه منه قد اهتدى
بِعارِضه لامٌ لها الحسن ينتهي ولكنها في محنتي لامُ الابتدا

وقوله :

أصْبَى وأصْلَى القلْبَ في حبّه خلّوه يُصبي القلب أو يُصلي
يا ألفَ القامــة كُــوني به بعدَ التجــافي ألفَ الوصـل

وقوله :

راحت إلى الصهْبــاء أرواحُنا فجاءنا يسعى بهــا الســاقي
اتى لنــا يكشف عــن ساقِه فهِمتُ في الساقي وفي الساق

وقوله :

أقول للمحبوب في روضــة والطلّ يسقي والثرى يشرَبُ
زَوّجْ ببنت الكَرْم إبنَ السما فالطّيْرُ في منــبره يخطُب

وقوله :

ناوَلني خمــراً لأشرَبَهــا كأنمــا ناولني جمْــرا
شمسٌ بأفْــق الكاس لكنها في وجنتيــه طلعت بــدرا

وقوله :

تفتّح ورْدٌ يانع فــوق خده ألا فانظروا ورداً تفتح في الخد
وفي ثغرِه وِرْد مُنِعتْ وُرُوده وما ضرّه لو جاد بالوَرْد والوِرْد

وقوله :

يا طلعةَ البدر في ليل من الشعر يا فتنة خُلِقت في صورة البشر
إرْحَمْ شهيداً له في الحبّ مُعترك بين المباسِم والألحاظ والطرّر

ومن قصائده قوله :

رب يوم ظَلَلْتُ في حِجْر الرياض ذا انبساط والسما ذاتُ انقباض
وغصون الروض تاهت فغدت في ارتفاع والسواقي في انخفاض
وبدت أزهــارُه مفتوحة وعيون الدهْر عنّا في اغتماض
نحسب النّسرينَ والوَرْدَ معاً وجنَةً ذاتَ احمرار وبياض
وعلى الأزْهار وُرْقٌ سجعت وحديث اللهو فيهــا مُستفاض
ورياحُ الجو لمــا سكَبَتْ نَفَضَتْ أطْيارَنا أيّ انتفاض
وجموع الشمْل لمــا انعقدتْ نقضت عهدَ التقى أيّ انتقاض
طاف ساقينا يُلبّى بالطّلا وكأنّ الخمر تُمْلا من حياض
سكر النّسّاكُ مــن كاساته لا على كُرْه ولكن عن تَرَاض
زوّجَ ابنَ الغَيْم بنتَ الكرم إذ راحتــاه شاهداه وهو قاض
فرأينــا المــاء إذا يقْتَضّها ما أرى التزويج إلا الاقْتضاض

وقوله :

تفتّحت أزهارُ روض السعود وغنّت الأطيارُ في كل عُود
فباكِرِ اللذّاتِ في روضة ما بين مِزْمار ودَفّ وعود
وقُم إلى الراح ورِدْ طَرْفَها فطالمــا أمّلتَ منهــا الورود
صَهْباء يعلوهــا الحباب كمــا تعلو على نحر الغواني العقود
في كأسهــا مــاء ولكنّه في القلب مثلُ النار ذات الوُقود
ولا تَمِلْ عن شربهــا أبداً من بأسِ واشٍ خِفْتَه أو شهود

فكم زَنتْ بِكراً مع ابنِ سما ... ولم تَجِب يوماً عليه الخدور
شمس إذا غابت بجوف امرىء ... أشرق في خديه بـدرُ السعود
فهاتِها من كف حُلْوِ اللّما ... لكنه للصبّ مُرّ الصدود
كأنها حمـراءُ في كفّه ... معصورةٌ من وَرْد ذات الخدود
ساقٍ اطـار النومَ عن مقلتي ... وكم سباني بالعُيون الرّقُود
أطلقَ دمعي من أليـمِ الجفا ... والقلبَ قد أوثقه في قيـود
أدخل ذاك الخَصْر في عـدم ... ورِدْفُه أخرجـه للوُجود
فذاكَ من ضُعْف يقـوم وذا ... من ثِقْلِه ما زال يبغي القُعود

وقوله :

خذ من حديث الرياض والزهر ... روايةَ ابنِ الربيع عن مَطر
وانظر إلى الروض زانـه نَهَرٌ ... مثلَ العيون تُزان بالحوَر
فخذ لنفسك في تقلّبهـا ... نصيبَها في السرور والسّرُر
ورِدْ من اللهو كلّ صـافية ... وشمـّر الذيل بعدُ للصّدَر
ولا تَخَف في وُرُودِها ضرراً ... فذلك الخوفُ باعِثُ الضرر
وقـل لِمَن نفسُه مُحـذّرة ... أهَلْ يُرَدّ القضـاء بالحذر
وليس يخطر للنفوس عُـلا ... ما لم تُجار جَـواريَ الخطر
فهاتِهـا من دِنـان معْصَرة ... تبثّ أخبار سالفِ العُصُر
لو أنهـا حدثت مُباشِرهـا ... كانت تحدث عن أبي البَشر
من كفّ بَدويـة مُخَـدّرة ... هبّتْ عليهـا شمائِلُ الحضَر

شمس بأفق القلــوب مطلعُها تفترّ عن بَرَد وعن دُرَر
بيضــاء ناعمــة مُغنّيَــة تغنيك نغمتُها عــن الوتر
يودّ سامعها إذا اقتصرت لو انهــا لم تَمِل إلى القِصَر

وله هذا التوشيح البديع ، عارض به توشيح (يا ليلة الوصل) :

يا ليلة السّكر ويوم الخمار بين الصغار علمتمَا الاكواس رمي الجمار
بات يحيينــا نسيمُ الريــاض
حتى اكتسى الليلُ قميصَ البياض
كأنما يمْــلا الطّلا من حياض
مهفهف ينسيك ذاتَ الخِمار غِبّ المَزار يدير باليمنى لنــا واليسار

فاشرب فما في شربها من جُناح
هذا غُرابُ الليل ضمّ الجَنَــاح
وقَهْقَــه الابريقُ والطير نَاح
وفاح كالعنبر نشرُ العَرارِ بين الثمار وانشد القُمريّ حيّ الديــــار

واستنطقَ الأوتَارَ تحت الورق
ظبيٌ صفا منــه الجبين ورَقّ
قامَ وأهــدى للعيــون الأرَق
عارِضه فوق الخــدود استدار ثم استنار وألبس الحُمْرة ثوْبَ اخضرار

بـــدرٌ على جيش المِـــلاح ظهر
يَعْبَق ريحُ المِسْك مهما ظهر
فهل رأيتَ الغصن لمـــــا زهَر
مستأنسٌ أصبح يبغي النّفار فما يُزار ووجهُهُ الجنّة حُفّت بنار

لما استحلّ الوصل لي واستبـــاح
في ليلة تُنسي الليـــالي الصّبـــاح
قلتُ وقـــد أسفَرَ وجهُ الصباح
(يا ليلةَ الوصْل ولَيلَ العُقار دون استتار علّمتُماني كيف خلْعُ العذار

ومِنْ أحسنِ قصائده المطوّلَة تلك الارجوزة التي عارض بها أرجوزة مُدْرِك بن علي الشّيْبَاني في محبوبه عَمْرو بن يُوحَنّا النّصْرانيّ المشهورة وهي قوله :

هذي رسالةٌ بمـــا في الصدر من الهَوان والهوَى والهَجْر
منظومـــةً مثلَ اللآلي تَزْري بكلّ بِكْر من بنات الفكر
فشعرُها إنسانُ عين الشعـــــر

من عاشق عـــانٍ بما يُعاني تفجّرت من عيْنِه عَيْنَان
فقلبُه مَراتــعُ الغِـــــزلان ودمعُه قلائِـــدُ العِقْيَـــان
منظومةً في صفحـــات النحو

تَرْميـه ألحاظُ المَهَـا بسهم   وما له في وصْلها من سَهْم
يبيتُ في فَرْش الضنا والوَهْم   دموعُه مثـلُ السحاب تهمي
حدّثْ بمـا تشاوُه عـن بَحر

أوْدَتْ بـه بواعثُ الأشواق   فهامَ بين الناس في الأسواق
مُذْ كشَفَ الساقي له عن ساق   والراحُ في إبريقِه البرّاق
ترمي الحَشَا بشَرَرٍ كالقَصْر

إلى غَزال من بني الأتـراك   ألحاظُـه منصوبَـةُ الأشراك
لم تُصْبِه شكايـةٌ من شاك   ولم تُلِنْـه دمعة من بـاك
ولم يُسرّح مُوثَقـاً مِن أسْر

مُقرّط لاحت بـه الأحـلاك   دارت بأفْق كفّـه الأفلاك
تحفَظُه بـين الورى الأملاك   وها المماليك وهـا المُلاّك
مِلْكٌ له من رِقّهـا والحُر

نبيّ حسْن بين أهـل الوجد   آيتُه يريـكها في الخـد
نارُ الجحيم وجِنـانُ الخُلْد   هل مُعجِزٌ مِثْلُ اجتماع الضِد
وآيُ ليـلِ شعره إذْ يَسْري

يَغارُ منه الغصنُ ان تثنّى والطّير في أفنانه ان رَنّا
والبَدْرُ في أفق السما ان عنّا والظبي إن يرْنُ ، وإن تغنى
ألقَى الهزارُ سمعَه والقُمْري

لله جمرٌ بفؤادي استعَرا مذ جاء يتلو آيةً في (الشعرا)
وشمّر الذّيْلَ وأرخى الشّعرَا فبان ما أعيا جميع الشّعرَا
ثقيلُ رِدْف وخفيف خَصْر

جرّدَ لي شَفْراً من الأشْفار ووجهُهُ كالشمس في الإسْفار
فليس في صحائف الأسفار وما رأى مَن جدّ في الأسفار
كحُسْنه في البَحر أو في البرّ

وَاحَيرتي من حاجب ازَجّ ومن جفون سحَرت بالغُنْج
وحُسْن ثغْر أبيضٍ كالثّلج وأعيُنٌ ذاتِ احورار دُعْج
وكسْر لحظٍ ما له من جبْر

حتى مَ هذا القلبُ لا يَلين ولا يكاد عَطْفُه يَبين
أما تُدان كالذي تدِين فاجعل بميزانك ما يَزين
وابتغ في الاخرى جزيل الاجر

عليكَ أقسمتُ بليل الطّرّه   وطالع الوجه وصُبْح الغُرّه
فذا أضلّ مَن سرى وغرّه   وذا هدَى الساري به وسرّه
وكم وكم رغبَه في السيْر

بحَق فرْق وجَبين وضحا   كالفجر أو كالشمس أومثل الضحى
وجَبْهةٍ منها الصباحُ افتضحا   ومُقْلَةٍ تصيد ما قد سنَحا
من بَطَل يُخشى ومن هِزَبْر

بحق رِيقٍ راقَ فيه وِرْدي   وحق خدّ عَنْدَمِيّ وَرْد
وشامَةٍ كالمِسْك أو كالنّدّ   ما إن لها في شكلها من نِدّ
في نَسْمة السّحْر ولوْنِ الحِبر

بحق ثغر جال فيه الراحُ   وطل منه الدّر والأقاح
لو مُلِئت من ريقه الاقداح   لطارت الارواح والاشباح
واي كاسٍ مُسكِرٌ كالثغر

بحق خط الزّور فوق الشارب   كطلسمٍ يذُود عنه الشارب
وصدغك اللداغ كالعقارب   يرد من يروم أن يُقارب
للخد او للثّغْر او للنحر

بحق نَمْل دَبّ فوق العارض ان كان يُعتدّ بشأن العارض
وطِرف طَرْف في فؤادي راكض ما راضه في سَيْره من رائض
ما هكذا فعلُ الجواد الُحر

بحق خَصْر شكّك الاخبارا اباقٍ ام من خِفّة قد طارا
وحق رِدْف ملأ الإزارا كم مال في أحكامه وجارا
على ضعيف الخَصْر كلّ جَوْر

بحق معنى مُودع في الكَشْح وحق ساق لائح كالصّبح
أركبني فيه مَطايا القَرْح لو انه بدا لذاتِ الصّرح
لمزّقت فيه ثيابَ الصبر

بحق قَدّ ينثني كالقُضُب ولونك المفضض المذهّب
بحمرّ مثلَ الشمس عند المغرب قَرّبْ قليلا عبدك ابن الطيّب
واسمحْ له بالرفْع عند الكَسْر

... الخ وقد كتَبَ عليها مبيّناً السبَبَ الذي حمله على معارضتها ما نصه :
« لمّا أن وقفتُ على القصيدة الرائية المنسوبة إلى مُدْرِك بن علي الشيباني في محبوبه عَمْرو بن يُوحنّا النصراني التي أولها: من عاشق ناءٍ هواه دان،...رأيته قد تعدّى فيها طَوْرَه ، وتجاوز من الغرام قَدْرَه ، حتى رضي بنَقْض الاسلام إسعافاً لسلطان الغرام، واتخذ إلهه هواه، وأشرك بمن سواه، فمِن مقالته التي خرج فيها عن الاسلام قولُه في القصيدة بعد كلام :

إن كان ذنبي عنده الاسلامُ فقد سعت في نقْضِه الايامُ
واختلّت الصلاةُ والصيام وحلّ في الدين له الحرامُ
يا خيبتي ان لم أفُزْ بنصر

فان كان بعد ذلك ثاب ، وأنابَ إلى الله وتاب ، وإلا فهو باق على الكفر ، وأيديه من الايمان صِفْر ، نسأل الله العافية والمعافاة ، والسلامة من جميع الآفات . وقصيدتُه تلك مع رقّة معانيها ، وسلامة تراكيبها ومبانيها ، تمجّها الاسماع ، وترغب عنها الطباع ، لكونه أبهمَ فيها وأغْرَب ، وأعجمَ في ألفاظها وأعرَب ، لا يطّلِعُ على أسرارها إلا مَن أخذ بحظ مع النصارى أو كان واحد الأسارى ، ومن ثَمّ نظمتُ لها اختاً تناظرها ، وتباحثها في صناعة الأدب وتناظرها ، ليَعْلَم مَن قابل احداهما بالأخرى ، ان الأخيرة أولى بالتقديم وأحرى ، فها هي تفتح من ديوان الأدب ما كان مقفولا ، وتتلو لِمُريدِها : « ولَلاخرة خيرٌ لك من الأولى » .

وهذا الكلام غني عن التعليق ونحن إنما أوردناه تندّراً به فلا نُجاوز الغرض الذي أتينا به من أجله .

وشعرُ المترجَم خلاف هذا كثير في المدح والتهنئة وغيرهما ولكنا نكتفي منه بهذا القدر ثانين عِطْف الكلام إلى نثره الذي هو قسم من أدبه له ميزته وطابعه الخاص . ونثره هو السجع المعهود الذي كان إلى أمد غير بعيد هو طريقةَ الكتابة الوحيدة وبضاعةَ الأدباء التي يتنافسون في تحصيلها أشد المنافسة .

وإنّا مهما ذهبنا مع أشدّ الآراء زراية على هذا السجع وأخذْنا بكثرة الاقوال تهمةً للمسجعين لا يمكننا أن ننقص من شأن أديبنا وسجْعه السهل لأنه حقيقة لم يكن فيه من المتكلفين بل كانت عبارتُه تلين بين بنانه ، ويَراعتُه تجري طَلْقَةً في ميدانه ، فلا يتوقف في سجعه أصغرُ المتعلمين لأنه لا تقْعير فيه ولا تفصّح كيف وهو لم يضطر إلى ذلك في الشعر فما بالك بالنثر ، وقد كان ينعَى على مرتكبي الغريب قصورَهم ولا يرى في التجائهم إلى الغرابة إلا ستراً لعجزهم وهاك قوله في خاتمة الانيس المطرب :

« مَراتِبُ هؤلاء الرجال متفاوتة في الارتجاح والارتجال ، فهم بين رئيس طاوعته أقلامُه ، ورسخَت في مراكز البلاغة أقدامُه ، وانتشرت في عساكر المُبارزة راياتُه وأعلامُه ، فهو في فنون الكلام يتصرّف ، ويريد أن يُنكرَ فيأبى الله إلاّ أن يُعرّفَ ، كلامه السهلُ يُسيل المدامع ، وتُصغي له المسامع ، ويَعِدُ بنظم مثله كلّ سامع ، فاذا ريمَ أعْجزَ ، وماطَل في ذلك الوعد وما أنجَز ؛ وبين آخر كثير الإغرابِ ، راغبٍ عن الإعراب ، لا يُعلم له مُراد ، ولا يُفْهَمُ من أبياته إلا الأفراد ، وهو إذا تأمّلته وجدتَه يتكلف ذلك الابهام ليعمّيَ على الأفهام ، ويُحتاجَ إليه للاستفهام ، وليعلم ان له اطّلاعاً على اللغة ، وانه بلغ من الغريب ما بلغه » الخ .

ثم ما دمنا نتكلم على نثره والسياقُ سياقُ انتقاد فلننقُل ما كتبه راداً على أديب مكناسي انتقد كلمةً في إحدى قصائده فانه فصل طريف جداً زيادة على

كونه مثالاً لسجع الرجل الذي قلنا إنه لا كلفة فيه ، ولاحِظْ مع ذلك ان المقام لا يتحمل التقيد بالسجع والكلمة المنقودة هي العتب في هذا البيت :

ان تمُت يا محمد اليوْمَ لا تَعْـــتِبْ فمِن قبلُ ماتت الانبياءُ

قال : « أما بعد السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقد بلغني عنك انك طالعت قصيدتي العديمة النظير ، الفائقة الدرّ النثير ، والروض النّضير ، المنظومة على الارتجال ، بشهادة عدة من الرجال ، فأنكرتَ كلمة العتْب من ذلك البيت ، الموضوع لتسلية الميْت ، وإني أقول لو تزودتَ شيئاً من المعقول أو طرَفاً من المنقول ، لتأملتَ قبل أن تقول ، واخترت التسليم لأهل العقول ، وهَبْ ذلك الخطأ قد كان ، وتصور فيه الإمكان ، فالانسان لا تُومن عثراتُه ومصائبه ، وكفى المرءَ نُبْلاً أن تُعدّ معايبه ، وقد ذكرت في إيرادك ، المبني على مُرادك ، اني جعلت الميتَ لم يرض بالوفاة ، ولم يقتدِ بمن فات ، وان ذلك حمَلَه على عتاب من أماتَه ، حيث لم يُطل حياتَه ، فنهيتُه عن ذلك العتاب بهذا الخطاب ، وقد حمّلتني في ذلك إثماً كثيراً وتعالى الله عن ذلك علواً كبيرا ، قلت وهذا من البعيد الذي لا يمكن أن يُقصد ، وتأويله لا ينكر أبداً ولا يجحد ، وذلك ان قولي لا تعتب نعني على الموت الذي أصاب ، فالكل به مُصاب ، لا على ربّ الأرباب ، ومع ذلك فهي هنا مصروفة عن معناها الذي له وُضعَتْ ، كما وردت في أشعار القوم وسُمِعَت . قال شاعرهم :

لا تعتبي يــا هندُ ان متّ فكلّـمـا حيّ الى المــوت

أخذه من قول الآخر :

دَع العتب يا سلمى فان ذقتِ مَوْتة فهـذا دعـاءٌ للـبريـة شامـل

وقرينةُ السياق تنفي ذلك المعنى البعيد ، وتُعيّن الوجه الذي أريد ، وفي هذين البيتين ، تسهيل مُصيبة الحَيْن ، لما عُلِم ان الأمر إذا كان عام النزول ، وكان لازماً لا يزول ، خفّ حِمْلُه ، وهان على الضعفاء حَمْلُه . فظهر بهذا انه لا يلزم على هذه الكلمة شيء ولا يترتّب ، لأنه يقال لا تَعْجبْ لمن عَجِب ومن لم يعجَبْ ولا تعتِب لمن عتب ومن لم يعتِب الخ ... »

وله من رسالة عتاب كتبها إلى صاحبه الأديب محمد بن العربي الشرقي :

... وبعد ما تستحقه تلك السيادة ، الممنوحةُ بالحُسْنى والزيادة ، من السلام الذي طابتْ نَفَحاتُه ، وطالت غدواتُه ورَوحاتُه ، والرحمة والبركة ؛ ما هزّ ذكرك ساكنَ القلب وحرّكه ، فانه لما طال أمد الفراق ، وبلغت الروح إلى التّراق ، وظُنّ انه الحَيْن وقِيلَ مَن رَاق ؟ فكرتُ فيما يفكّ من بد الأشواق أسْري ، ويجبر ما بين الاصحاء كسْري فقلت :

وبي منك مـا لو كان بالشمس لم تَلُحْ
وبالبدْر لم يطْـلُع وبالليل لم يَسْرِ

فما عثرتُ بعد معاناة البين ، ومعاتبة الدهر المفرّق بين المحبين إلا على بعض دُرَرٍ من كلامك استخرجتْ من بحور مَدَدك بمِداد أقلامك ، كنت ادّخرتّها عن القوم ، لمثل هذا اليوم :

تفقدتُها بعد السرور بأنسها وفي الليلة الظلماء يُفتَقَدُ البدر

فما زالت تذكرني أيام الوصال ، وتُقطّع من غُراب البَيْن الأوْصال ، وتُخرِسُه إن صاحَ أوْ صال :

ذكرتُ بها بعد التفرق ما مضى زمانَ اللقا والشيء بالشيء يُذكر

إلى أن استولت عليها يدُ الضياع ، واعقبت لي ذلك الامن بالارتياع ، فأصبت من فراقك وإياها بلوعتين ، واحترقت بجمرتين ، والتدغْتُ من جُحْرٍ مرتين :

وكنتُ كذي رجْلين رجل مريضة ورجل رماها الدهر يوماً فشلّت

غير أن الآمال كانت تُسوّفني ، والليالي لكتابك تُشوّفني ، فكنت أصدق فيك الأوهام ، واعدّ حديثها من الالهام :

صدقتُ وهْمي في الحديث ولم أقل خبر رواه الوهم وهو ضعيف

إلى أن ضاقت فسحة الأمل ، وخرجت شمس الرجاء من دارة الحمَل ووردت كتبك صريحةَ النصوص ، لأفرادٍ على الخصوص ، فقلت كيف يُحرم المتعفّف ويُعطى المُستَعير ، ويجعل فريق في الجنة وفريق في السعير ، فما طرق أذني ، ولا طرأ على ذهني ، في قديم الدهر والحديث ، أغربُ من هذا الحديث ، وبذلك علمتُ أني كنتُ في ذلك الظن السالف ، والاعتقاد المخالف ، كمن تبرّد بالجمر ، أو تطيّب بالخمْر ، أو استجار بعمرو :

المستجيرُ بعمْرٍو عنــد كربته ... كالمستجير من الرّمْضاء بالنار

وقديماً كنت لقفتُ من فيك ، ولم أخَلْ انك تنتسب لما ليس فيك ، إنك ممن يقوم بالحقوق ، ويبذل البُرُورَ لأهل العقوق ، فما لك وقد علمتَ مني صدْقَ المحبة ، التي لا يُظلَم منها مِثْقالُ حَبّة ، قابلتني بالاعراض ، ونسختني من ديوان الأغراض :

أغَرّك مني ان حبك قــاتلي ... وأنك مهما تأمُرِ القلب يفْعَل

فوالله لولا عهودٌ سلفت ، وقلوبٌ تألّفت ، ومواثيقُ تعددت ، وأيمانٌ تجدّدت ، ما قصدتُك بحرف ، ولا نظرتك بطَرْف ، بعد ما حاربتُ من عُداتك الأجناد ، وناديت بمديحك في كل ناد ، وعرّضتُ بقوة عارضتك . وان لا يُطمَع في معارضتك ، ومهّدت لك الأرض ، ما بين طولها والعرض ، وألهجْتُ الألسن بذكرك ، وملأت الدنيا بحمدك وشكرك ، فكان جميلاً منك أن تَسُلّني من القوم ، سَلّ البارحة من اليوم ، وإلى الآن فاقرأ كتابك ، واصبر على ما أصابك ، واعلم ان الدنيا للآفات ، والصحبة للمكافاة ، فمن كثُرت مكافاته قلت آفاته ... الخ .

فمن هذه الرسالة والنصوص التي قبلها يعرف القارىء ان أسلوبه في الانشاء على ما قلنا من الوضوح والبيان مع التزامه فيه للسجع والتقفية ، وهو لا يخلو من عبارات مستحسنة ، وتوريات لطيفة وتنزيل للابيات الشعرية الدائرة على الألسن منزلها من الشاهد والدليل على عادة بلغاء الكتاب القدماء .

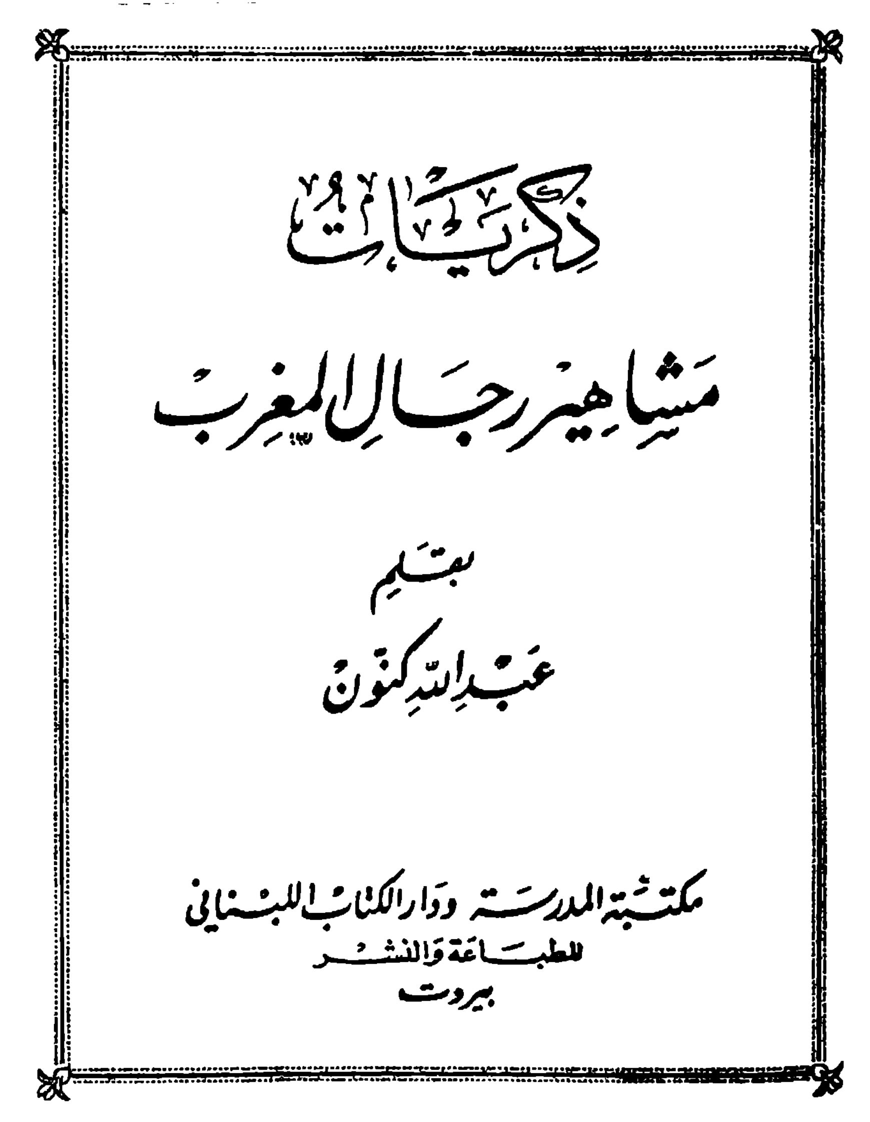
هذا وما خلّفه المترجم من الآثار الأدبية هو الكتاب الذي ورد ذكرُهُ في هذه الترجمة مراراً ومنه نَقَلْنا هذه القطع الشعرية والفصول النثرية بل منه انتزعنا رُوحَ هذه الترجمة . واسمه الانيس المطرب ترجم فيه اثني عشر أديباً من أهل عصره وضمنه غالب شعره مع استطراد كثير وحشو غير يسير قال في خطبته :

« واقْتصرْتُ من الرجال على المشهورين بين الجمهور ، وأطلعْت فيه من الأهلّةِ بعدد الشهور ، ولم أبخَل عليه ، بما جرّ الكلام اليه من الحكايات ، وبعض الشكايات ، ومسائل عِلْمية ، اقتضتها الصنعة القَلَميّة ، وربما أدى الحال إلى المجُون . والحديث كما قيل شجون . الخ » وهو مطبوع طبعاً حجرياً في فاس سنة 1315 إلا أنه كثير التصحيف رغم أن مصححه كان ممن ينتمي إلى الأدب وهو الفقيه الرايس رحمه الله . ومن آثار المترجم أيضاً القصائد المعشّرة ، في التشويق إلى البقاع المطهرة ، قال القادري رتّبَ رَوِيّها على حروف المعجم كل قصيدة بعشرة أبيات إلى تمام الأحرف التي تصلح أن تكون رَوِيّاً .

وأخبرني صديقي الأستاذ البحاثة محمد المنوني ان له كتاباً في فضائل الخيْل عنده منه نسخة .

وقد أراد أن يُطفىء غُلّة الشوق إلى البقاع المطهّرة فتوجه إلى ديار الشرق قاصداً بيت الله الحرام وزيارة قبرِ المصطفى عليه الصلاة والسلام ولكن المنية حالت بينه وبين أمَلِه ، فما بلغ الديار المصرية حتى حان حِينُ أجَلِه ، فتوفي بالقاهرة رحمه الله سنة 1134 أو 1135 قاله القادري واقتصر بعضهم على الأخير ولم ندر ما مستنده .

المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المكتبات المدرسية



ذكريات

مشاهير رجال المغرب

بقلم

عبد الله كنون

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني
للطباعة والنشر
بيروت

15



وزارة المعارف الكتابات المدرسية

ابن الونان

شهرته المطبقة – جهل أطوار حياته بالمرة – نتيجة الاهمال – اسم ابن الونان – نسبه – بماذا كانت شهرة قومه – والده كان نديم السلطان – كان أصم – تكنية السلطان له بأبي الشمقمق – جريان هذه الكنية على عقبه – موت والده – اتصاله بالسلطان – كيفية ذلك – انشاد ارجوزته – حصوله في معيته – وفاته – آثاره – اكثاره – شعره – بين أبي نواس وأبي العتاهية – آثاره من غير الأرجوزة – الارجوزة – عدد أبياتها – أقسامها – قيمتها الأدبية – اعتناء الأدباء بها – شروحها – طبعتها – منتخبات منها .

لا مبالغة إذا قلنا : إن هذا هو الشخص الذي يكاد لا يجهله أحد من مختلف طبقات المثقفين عندنا صغاراً وكباراً ، فهو قد أحرز على شهرة واسعة ، بحيث لا تسأل عنه متأدباً ولو ناشئاً إلا وجدت عنده من أمره خبرا . ولا مبالغة أيضاً إذا قلنا إنه مع ذلك الشخص الذي يكاد لا يعرف أحد من حياته قليلاً ولا كثيراً ، فهو سر مكنون في أحشاء التاريخ ، ما زال الباحثون يقتصّون آثاره ، ويستقصون أخباره ، وحسبك من الجهل به أننا لا نعرف تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته ، إلا ما ذكره الاستاذ النميشي في وفاته مما نتعرض له بعد ، والأمر

الذي يُقضى منه العجب هو أنه ليس ببعيد العهد منا جداً حتى نجد سلوة في عدم الاطلاع على أحواله ، وتعرّف أطوار حياته ، بل هو ممن درج بين يدي العهد الأخير وسمعه وبصره ، وأظلته دولة السلطان سيدي محمد بن عبدالله . فهل تريد دليلاً أقوى من هذا على إهمالنا لنبغائنا وعدم إنصافنا لهم حتى بعد مماتهم ؟ وهل آن لنا أن نتخلص من هذا الاهمال الذي قضى على جل مآثر أسلافنا وبالتالي على أحسابنا الموروثة ، وهي لِقاحُ الأحساب المكتسبة التي نسعى لايجادها وتهيئة أسبابها ؟

قلنا : إن ابن الونان هو الشخص الذي بقدر ما عُرِفَ جُهِل ، وكما ذُكر نُسي ، ومعرفته وذكره متأتيان من أرجوزته المعروفة (بالشمقمقية) التي نحمد الله على سلامتها من عوامل الفناء التي اصطلحت على كثير من آثار الأدباء غيره وعلى كثير من آثاره دو غيرها وأما جهله ونسيانه فهو مما مُنينا به من الاهمال الذي أشرنا اليه على أن صُبابة من أخباره مما بقي في بعض الأوراق كما يبقى السؤر في كأس الشراب ، تَقِفُنا على جانِب من أمره ، وتكشف لنا بعض سرّه .

فأول ما نذكر مما نعرفه عنه اسمه ونسبه : فهو ابو العباس أحمد بن محمد ابن محمد بن الوَنّان ، الحِمْيري النسب ، المُلُوكي القبيل ، التواتي الاصل ، الفاسي الدار ، وهو يُدْلي الى الحِمْيَرِيَّة بقومه بني مَعْقِل من عرب الصحراء الذين تملكوا وطنه تُوَاتَ بعد زِناته ، وبنو مَعْقِل هؤلاء رجّح ابن خلدون أنهم من مَذْحِج . ومَذْحِج من كهلان ابن سبإ أخي حِميْرَ ، وبهذا

يفسر افتخار المترجم بالانصار في الشمقمقية لان نسب الانصار في كهْلان ، لكن شهرة قومه بفاس إنما كانت بأولاد الونّان .

ثم نذكر أن والده كان من ندماء السلطان سيدي محمد بن عبد الله وكان أديبا ظريفا ، خفيف الروح ، لطيف الحس ، صاحب نوادر وملح . قال أبو عبد الله الجَرِيري : وكان شديد الصمم ، قد زال حس سمعه وانعدم ، وكان مَع ذلك يفهم بلطيف الاشارة ، ما لا يفهمه غيره بصريح العبارة ، حتّى إنه يجيب عما يكتبه الكاتب على اعضائه في الظلام ، وعما يرقُمه الراقم في الهواء نهارْ من الكلام ، من غير ان يبطئْ في الجواب ويخطيْ عين الصواب فهو كما قال الشاعر :

تُشير له بلحظك من بعيـد فيفهم طَرْفُـه عنك الاشارة

وهذا لا يستغرب ممن كان على شاكلته ، فإن ما حجبه الله من سمعه قد أفاضه على سائر مشاعره ، فقَوِيَ بذلك إدراكُه ولطُف حِسّه . وقد يكون هذا مما قوى رغبة السلطان فيه وزاد اغتباطه به .

ولقد كان من أثر إعجابه به أن كناه بأبي الشمقمق تشبيها له بذلك الشاعر الكوفي الماجن الذي نقرأ أخباره الطريفة في الاغاني والعقد الفريد والكامل وغيرها من كتب الادب ،فلزمته هذه الكنية وصارت عَلَماً عليه فكان لا يُدعى بعد ذلك إلا بها بل تخطته الى ابنه بل تخطت ابنه الى أرجوزته فلا تدعى إلا بالشمقمقية .

هذا كل مانعرفه عن والد شاعرنا ، بل كل ما نعرفه عن شاعرنا نفسه الى حين اتصاله بالسلطان سيدي محمد بن عبد الله إنما المفروض أن هذا الوالد الموهوب قد بذل غايةَ جهده في تربية ولده وتنشئته على أكمل الصفات . وقد ذكر الحَرِيري انه تلقى دروسه العلمية بفاس على الجِلة من مشيختها كمحمد بن قاسم جَسّوس وعمر الفاسي ومحمد التاوُدي ابن سُودَة ومحمد بن الحسن بَنّاني وغيرهم من اهل هذه الطبقة . وأخذ الشعر والادب عن والده فبَرع ونَبغ ، وما راعنا إلا ان رأيناه على بساط البَلاط العلوي ينشد شمقمقيته فيستحسنها السلطان ، ويجزل صلته ويرفع منزلته .

ولا نظن أن اتصاله بالسلطان سيدي محمد بن عبد الله كان في حياة والده ، لان الوسيلة التي اتخذها إليه تمنع من ان يكون والده في مَعيّة السلطان ويتكبّد هو المشاق للوصول إليه لانشاده شعراً يمدحه به ، إلا ان يكون ذلك الوالد قد كبر جداً او مرض حتى لم يعد في مقدوره حضورُ مجلس السلطان وهذا الوجه على ما فيه من التكلف غير مقبول تماما فلنُمِرّ القصةَ على سجيتها ما دام ليس هناك نص تاريخي يلزِمُنا الاخذُ به ولنقل : إن والده قد مات وانه بقي مدة يعلل نفسه بالحصول على مكانته من السلطان ؛ خصوصاً وليس ما يمنعه من ذلك مع ادبه الجم وشعره النفيس فعَمِل ارجوزتَه وقصده بها . لكن الحسود الكنود الذي يعرف من فضله ما لا يعرف غيرُه ويخشى من مزاحمته لدى السلطان ، كان يقف حجرَ عثرة في سبيله ويمنعه من الوصول إليه . فلما أعياه الامر تحين خروج السلطان في بعض المرار واعترضه في موكبه

وصَعِد نَشْزاً عالياً من الارض ونادى بأعلى صوته :

يا سيّـدي سِبْطَ النبيِ   ابو الشمقمق أبــــي

فعرفه السلطان وامر بإحضاره بعد بلوغه الى منزله فحضر وانشد الارجوزة التي نالت رضى السلطان ورفعت مرتبة الشاعر عنده .

وهنا ينسدل حجاب الغموض تماماً على حياة شاعرنا فلا نعرف عنه بعد ذلك ما قل ولا ما جل حتى تاريخ وفاته الذي إنما اسْتكشف اخيرا وكان الفضل في اسْتكشافه للاستاذ النميشي فهو الذي ذكر في مسامرته تاريخ الشعر والشعراء بفاس انه توفي سنة 1187 وقد بقينا في حيرة من ذلك التاريخ لانفراد الاستاذ به . ثم ألقي إليّ انه وقف عليه في كناش لبعض العلماء المتوفين قريبا بفاس ، وكان باستطاعتي ان اقف على ذلك الكناش في احدى زياراتي لفاس ، لكني لم افعل لضيق الوقت ولثقتي بأمانة الناقل .

وبعد ، فلننظر في آثار أديبنا التي ماوصل إلينا منها إلا أقلّ القليل على ما نعتقد ، لان ابن الونان كان شاعرا مكثرا سيّال الطبع كما يُعلم من قول الجريري : «وكان حسن النظم مِكْثارا ، لايخاف جَوادُ لسانه عِثارا» . وكما يعلم من دراسة هذا النزر اليسير الذي بأيدينا من شعره وخصوصاً أرجوزته ؛ فإنه لم يكن على مايظهر من الشعراء «الحوْليين» كثيري العناية بشعرهم ، الذين ينظمون القصيدة في ليلة وينقّحونها في سنة ، بل كان يُرْسِل نفْسَه على سجيتها ولا يعبأ باللفظ ينبو عن الموضع الذي وضعه فيه ، ولا بالعبارة تكون

قلقة بإزاء أختها المطمئنة ومن كان كذلك فأحْر به ان يُخلّف ديواناً ضخماً من الشعر لأنه قد ينظم عدة قصائد في اليوم الواحد كما قال ابو نواس لأبي العتاهية ، وقد سأله مرة كم تعمل في يومك من الشعر ؟ فقال له : البيت والبيتين . فقال ابو العتاهية : لكني أعمل المائة والمائتين ، فقال ابو نواس لانك تعمل مثل قولك :

يا عُتْبَ ما لي ولك يا ليتني لم أرَكِ

ولو اردت مثلَ هذا الالف والالفين لقدرت عليه .

ومن قول ابي عبد الله الجريري في مقدرته الادبية : «وكان الناظم على مابلغني شاعراً ماهراً ، وفحلا هادِرا ، ذا وُجْد وإجادة ، وقريحة وقادة ، وبديهة بارعة ، وفكرة لأبكار المعاني فارِعَة ، وكان حسن النظم مكثارا ، لايخاف جواد لسانه عثارا ، القت اليه الصناعةُ الشعرية زمامَها ، وفوضت إليه احكامها ، ووقفت عليه نقضَها وإبرامَها ، حتى صار في عصره قُطبها وإمامَها . مُبرّزا على ابطال الكلام وفُرسانه ، قاهرا لادباء زمانه ، بإكثاره وإحسانه ، وكان مع ما خوّله من الاكثار والاحسان ، مُولَعاً بالهجو بَذِيّ اللسان ، معجباً بشعره ونثره ، مزهُواً بأدبه وثقوب فكره ، ذاهباً بنفسه كلَّ مذهب ، لايحيد عما اعتاده من ذلك المذهب ، ريّانَ من الفصاحة اليَعْرُبية ، ملآنَ من العلوم العربية ، كاللغة والنحو ... الخ .

وما اشار إليه من ولُوعه بالهجو يدل عليه ما في الشمقمقية من ذم الحسود والتشنيع عليه وتوعده باغراقه في بحر الهجاء :

فبشّرنْ ذاك الحسود انه يظفرُ في بحر الهِجا بالغرق

وقد سمعت من غير واحد من الاعلام ان ابن الونّان يقصد بكلامه هذا عصريه الاديب الكاتب ابا عبد الله محمد بن الطيب سُكَيْرِج ، وانه كانت بينهما منافسة تستدعي تراشُقَهما بأمثال هذه الابيات ويؤيد هذا ما وقفت عليه من شعر سكيرج المذكور بخطه يهجو فيه منافساً له ويشاركه في الفخر بالإنتساب للانصار ، وليس هذا المنافس قطعا إلا ابن الونان . ومن قوله في هذا الشعر :

الا قُلْ لِغُمْر جاهل وحسود غبي بليد الطبعِ حِلْف جُمود
يُنافس في العلياء حَبْراً مهذّباً له في مقام المجد خيرُ شهود
لَعمري لقد ارقيتَ نفسك للعلا بلا سُلّم اذْ لم تبُؤْ بفريد
وحاولتَ امراً لستَ تعلم انه تمنّع عن ذي مَنْعة وعديد

... الخ وان شئت فقف على القصيدة كلها في الجزء الثالث من كتابنا النبوغ المغربي .

ولمناسبة ذكر شعر سكيرج المنقول من خطه اذكر اني وقفت على خط مترجمنا ابن الونان على ظهر نسخة مخطوطة من ديوان الحماسة لابي تمام .

وهي من محتويات خزانة باشا تطوان الحالي السيد اليزيد بن صالح ، وهذه النسخة مرتبة على حروف المعجم اولها ابيات قيس ابن الخطيم الانصاري :

ثأرتُ عَدِيّاً والخطيمَ ولم أُضع ولايةَ اشياخ جُعِلتُ فِداءَها

الخ . ولعل اول ورقة منها بخطه ايضاً كما تخللتها اوراق اخرى بنفس الخط . وهذا نص ما على ظهرها : «اشترى الاديب البارع الفقيه المطالع سيدي الطيب ابن صالح من كاتبه الواضع اسمَه عقب تاريخه بخمس آواق هذا الديوان المسمى بالحماسة سابع رمضان عام سبعين ومائة والف» ثم الشكل .

وتحته منحرفا عنه قليلا بعد الحمدلة والتصلية : «مِلْكٌ لله ثم لعبده المذكور في السطر اعلاه عبد الله تعالى محمد الطيب ابن صالح تداركه الله بخفي لطفه بالشراء من الاديب النحوي الفقيه البليغ أبي العباس سيدي احمد وَنّان بالثمن الذي ذكره» ثم الشكل .

وخط ابن الونان املح من خط ابن صالح وان كان كل منهما حسناً .

وآثارُ ابن الونان التي بأيدينا من غير الارجوزة هي قطعة شعرية مدح بها سيدي محمد بن عبد الله ، ورسالة مسجعة كتب بها الى الشيخ سيدي المعطي ابن الصالح صاحب ذخيرة المحتاج ثم أتبعها بشعر في مدحه ، وبيتان في مدح سيدي محمد بن عبد الله ، وثلاثة أبيات قالها في ترفعه عن أخذ الزكاة وهذه كلها تجدها في شرح العلامة الناصرى للشمقمقية . وليس منها أصلا البيتان

اللذان نسبهما له العلامة الناصري والاستاذ النميشي في الاعتذار عن بحد الكبراء على الشعراء ، وهما :

قد بانَ لي عُذْرُ الكرام فَصَدّهم   عن أوْجُه الشعراء ليس بِعار
لم يسأمَوا بذلَ النوال وانما   جمَد الندى لبرودة الاشعار

فقد ذكرهما العلامة الافراني في شرح التوشيح ونسبهما لابن حكّينا البغدادي كما ذكرهما صاحب معاهد التنصيص ، وكلا الرجلين ممن عاش قبل ابن الونان بكثير .

وله غيرَ ما ذُكِر نظمٌ رصين لمسائل ابن خميس المعروفة ، وهو أحسن الانظام التي تضمنت تلك المسائل ، وقد ذكرناه في مجموعتنا (أراجيز البلاغة).

أما الارجوزة أو الشمقمقية فهي أعظم آثار ابن الونان ، وديوانُ أدبه ، ونموذج شاعريته ، ومثال نظمه ، ولكثير من الادباء إعجاب بها يجاوز حد ما تستحق ، وهي على روي القاف وعدد أبياتها 275 وتنقسم بحسب الاغراض الشعرية إلى ثمانية أقسام .

1) النسيب بذكر رحيل الاحبة ، ووصف الإبل التي تحمّلوا عليها والبيد التي تعسّفوها ، ، ولَوم الحادي على جدّه السير ليل نهارَ حتى أضرّ بالإبل ضرراً بليغاً ، وتذكيره بمن يحمِلْن على ظهورهن من النساء اللاتي لاطاقةَ لهن بذلك السير العنيف ، وإظهاره شديد العطف على الإبل هذه حتى تبرّع وهو يُسِرّ حَسْواً في ارتغاء بالريادة لها والقيام عليها أحسن قيام .

2) التغزل بصفات محبوبته ، وما هي عليه من فنون المحاسن وضروب المفاتن .

3) الحماسة والفخر .

4) مخاطبة الحسود .

5) الحكمْ والامثال والوصايا .

6) مدح الشعر .

7) مدح السلطان .

8) مدح الارجوزة ، وتحدّي الشعراء ان يأتوا بمثلها .

اما قيمتها الادبية فلا نطيل الكلام فيها بعد ما عرفنا مما تقدم الشيْ الكثير عن اسلوب ابن الونان وطبقة شعره . وانا لا نغلو فيها غلوّ تلك الطائفة التي تجاوز بها حد ما تستحقه من الاعجاب ، ولا نبخَسُها حقها وكونها حقيقةً في بعض الاقسام تسمو إلى درجة المطبوعين من الشعراء حتّى لاتعدو بها طبقةَ ابن دُريد وغيره من اصحاب هذا النوع من الاراجيز الادبية المطوّلة ، إنما هي في بعض الابيات تسفل حتّى لا يبقى فرق بينها وبين «الألفيات» . وغالب ذلك في هذا القسم الذي يصف فيه البِيدَ والقفار، والنباتات والاشجار ، والحيوانات والاطيار ، وفي قسم الحكمْ والامثال والوصايا .

اما القسم الاول فلانه حشَر فيه من الالفاظ الغَرِيبة والكلمات. الحوشية مما يتعلق بوصف تلك الامور المشار إليها ما جعله كأنه متْنٌ من متون اللغة .

واما القسم الثاني فإنه اراد ان يسلك في ضرب الامثال طريقة ابن دريد في مقصورته من الاشارة إلى مَوارِدها ، والتَزم ذلك التزاما كِلّيا واغمَض فيه كلَّ الاغماض ، فعَميت انباؤه على القارئ وصار لا يدرك لها معنى إلا إذا كان بجانبه من يفسرها له . وبذلك خرج هذا القسم عديمَ الانسجام قليل الفائدة . فمثلا تجد هذا البيت البليغ :

لا تأمن الدهر فان خطبــــه ارشقُ نَبْلاً من رُماةِ الحدَق

وبجانبه هذا البيت الذي اكبر القصد منه ذكر الطالقاني والحصيب :

لا تنْسَ من دنياك حظـاً والى كالطّالقَاني والحصِيب انطلِق

على ان ارادته ـ فيما يظهر ـ لمكاثرة اسلافه من ابن دُريد وحازم والمكودي في ايراد الامثال واستيعاب الاخبار هي التي اركبته هذا المركب الصعب وجعلته يُسِفّ في تضمينها هذا الاسفاف .

ومما هو جدير بالذكر انه وان نسج على منوال هؤلاء فانه قلّ ان يستعمل هذه الامثال استعمالهم او يستعير صورة من صورهم الكلامية ، ولا كذلك المكوديّ في مقصورته فانه اخذ عن سابقيه كثيرا من عباراتهم وجُمَلاً من تصويراتهم . فمِمّا وقع لمتُرجمنا من ذلك ويكاد يكون الوحيد من نوعه قوله :

(وبين جنْبَيّ فؤاد) ابن ابي صفرة قاطع قرا ابن الازرق

اقتبس أولّه من قول حازم :

وبين جَنْبَيّ فؤادٌ لم يــرُع   جنابَه شيبٌ بفَوْدي بــدا

واما قوله في وصف السّراب :

كأنما رَقراقُــه بحرٌ طمـــا   والنّوقُ امواجٌ عليه ترتقي

وكلّ هوْدَج عــلى أقْتابهـا   مثلُ سفِينٍ ماخِرٍ او زَوْرق

مرّت بها هُوجُ الرياح فهي في   تفرّق حينـاً وحيناً تلتقـي

فيظهر انه اخذه من قول اليوسي في قصيدته الدالية :

فكأنه بحرٌ علَوْنـاه ومـا   حِيتانهُ غـيرُ الدّبا والجدجُد

بسَفِين خُوصٍ كالحنايا ضُمّر   نُجُب بأشْرِعة الهوادي تَهْتدي

يهتاجها رِيحُ الصّبابة لا الصّبـا   وغناءُ كلّ مطوّق متغرّد

وعلى الجملة فهي ارجوزة ظريفة جامعة لكثير من فنون الادب ، واخبار العرب ، وهي على عالمِية صاحبها ادلُ منها على شاعريته ، ولمكانتها الّتي اشرنا إليها عند الادباء ، فقد عارضها ابن عمْرو الرباطي من ادباء القرن الثالث عشر ، واعتنّى بشرحها جماعة منهم العلامة ابو عبد الله الجرِيري السّلَوي ، والعلامة الناصري « صاحبُ الاستقصا » وشرحهُ شرح حافل ، وغيث من الادب هاطل ، والعلامة ابو حامد البطّاورِي . ولم نقف نحن إلا على شرح الناصري وهو مطبوع بفاس عام 1314 في مجلّدين وعنه نقلنا ما سبق من كلام الجريري . ولنا عليها شرح مختصر طبع بمصر عام 1354 .

ثم أعيد طبعه مراراً .

وطبعت على حِدَتها ، ضمن مجموعة من المتون العِلْمية ، طبع حجَر بفاس 1315 هـ .

ولنذكر الآن نبذة مختارة منها نجعلها تتمة لهذا البحث والارقام بإزاء الابيات اشارة الى القسم المنقول عنه :

1) مهْلاً على رِسْلِك حادي الأينُق — ولا تكلّفْها بما لم تُطِق
فطالما كلفتها وسُقْتَها — سوْقَ فتى من حالها لم يُشفِق
ولم تزل ترمي بها يدُ النوى — بكل فَجّ وفَلاةٍ سَمْلَق
وما انْثَلتْ تذرعُ كلّ فدْفَد — اذرعُها وكلّ قاعٍ قَرِق
وكلّ ابطحَ واجرعَ وجِزْع — وصريمة وكلّ أبْرَق
مَجاهلٌ تحارُ فيهنّ القطا — لا دِمْنَةٌ لا رَسْمُ دارٍ قد بقي
ولم تزل تقطعُ جلبابَ الدّجى — بِجلَم اليد وسيْف العنُق
فما استراحت من عبور جعفَر — ومن صُعود بصعيد زَلَق
ألا وفي خضخاض دمعِ عينها — خاضتْ وغابت بسراب مُطبِق
كأنما رَقراقُه بحرٌ طما — والنّوقُ امواج عليه ترتقي
وكلّ هَوْدَج على أقتابها — مثلُ سَفِين ماخر او زورق
مرّتْ بها هُوجُ الرياح فهْي في — تفرّق حيناً وحيناً تلتقي
وكم بِسَوط البغي سُقْت سُوقها — سوقَ المعنّف الذي لم يتق
حتى غدت خُوصاً عِجافاً ضُمّرا — اعناقُها تشكو طويل العنَق

مرثومة الايدي شكت فرطَ الوَجا لكنها تشكو لغير مُشفِق
من بعد ما كانت هُنَيْدَةَ غدت اكثرَ من ذَود ودُونَ شَنَق
وان تمادَيْت على إتعابها ولم تكن مُنْتَهِياً عن رَهَق
فسوف تعرُوك على اتلافِها ندامةُ الكُسْعِيّ والفرزْدق
وكنتَ قد عوّضتَ عن أخفافِها خُفَّيْ حُنَيْن ظافِراً بالأنَق
لأنتَ اظلمُ من ابن ظالم ان كنتَ من بعدُ بِها لم ترفُق
رفقاً بها قد بلغ السيلُ الزّبى واتّسع الخرقُ على المرتَق
وهبْ لأيْديِهنّ ايْداً ولها متْناً متيناً ما خلا عن مصدَق
فما لظُعْن حمَلتْ من مِرّة بظَعَن اودى بها في الغسق
اسأتَ للغيدِ وللنّوق ولي اساءةً بتوبة لم تُمحَق
لو لم يكن بحُبّ حِلْم احنَفٍ والمِنْقَري قلبيَ ذا تعلق
حملتُ رأسَك على شَبا القنا مُروّعاً به حُداةَ الاينُق
فسُقْ فلا نعِمَ عوْفُك ولا أمِن خوْفُك ولا تَدَرْنَفِق
ودع يسُوق بعضُها بعضاً فقد دنا ولُوجها بوَعْر ضيّق
ولْتَتّخِذْني رائداً فانني ذُو خبِرْة بمبُهَمات الطرُق
إن غَرِثَتْ علَفْتُها ولو بما جمعته من ذهَب ووَرِق
او صَدِيتْ اوردتُها من ادمعي نهرَ الأبُلّة ونهرَ جِلّق

* * *

2) رفقاً بها شفيعها هوادجٌ غدت سماءَ كل بدر مشرق

مِن كل غيْداء عَروب بَضّة رُعبوبة عَيْطاء ذات رونق
خريدة ممْسُودة رَقْراقــة وَهْنانةٍ بَهنْنَانَةٍ المُعتَنَـــق
وقُل لربّات الهوادج انجليـــــــــنَ آمِناتٍ فــزَع وفرَق
فانني اشجعُ من ربيعــــــة حامي الظّعينة لدَى وقت اللّقي
فربّما يبدو اذا برَزْنَ لي رِيمٌ اليه طار بي تشوقي
لُبْنيَ وما ادرتك ما لُبْني بها عُرِفتُ صبّاً مُغرَماً ذا قلــق
تسبِي بثغر اشنَب ومَرْشِف قد ارتوى من قرقف معتّق
وناعِم مُهَيْكــل وفاحِــم مرجـــل وحــاجب مرقق
وعقِب مُحَجّل ومِعْصَـم مُسوّر وحاجب مُرَقّــق
ومُقلة ترمي بقَوْس حاجِبٍ لاحِظَها بسهْمها المُفوّق
تمنع مسّ جسمها لثوبهــــا ثلاثةٌ مثلُ الاثافي في الرّقي
حُقّان من عــاج وقَعْبُ فضة من ظاهر وباطن كالشفــق
وزاد مسكُ الخــال ورد خدها حُسناً وقد عمّ بطيب عَبِــق
وقبّلت اقدامهـــا ذوائــــب سُودٌ كقلب العاشق المحترق
كم اودعت في مقلّتي من سهر واضرمت في مُهجتي من حَرق
ولا يزال في رياض حسنهـــا يسرحُ فِكري ويجُول رَمقي
ولا تسَلْ عما أبُثّ من جَوى وما تُرِيق من دموع حَدقي
يومَ اشتكى كلّ بما في قلبه لحِبّه بِطرْفه بمــا لَقــي

* * *

ما عُذْرُ مَن يشكو الجوى لمن جفا　　وهْوَ لدمع عينه لم يُسرِق
آه على ذكر ليالٍ . سلَفت　　لي معها كالبارِق المؤتلَق
في مَعْهَد كُنّا بِه كنخلتَيْ　　حُلوانَ في وصل بلا تفرّق
نِلْنا به ما نشتهي من لذة　　ودَعة في ظل عَيْش دَغْفَق
ازمانَ كان السعد لي مساعداً　　ومُقْلةُ الرّقيب ذات بخَق
واليوم قد صار سلام عزّة　　يُقْنِعُ من لُبْنَى اذا لم نلتق

* * *

3) والله لو حلّتْ ديارَ قومها　　واحتجبت عني بباب مُغْلق
لزُرتُها والليل جَوْنٌ حالك　　وجفنُها لم يكتحل ببارق
مع ثلاثةٍ تقي صاحبها　　ما لم تكن نونُ الوقاية تَقي
سيفٌ كصَمْصامة عمْرو باترٌ　　لا يُتّقى بيَلب ودرَق
وبين جنبيّ فؤاد ابنِ ابي　　صُفْرَة قاطعٍ قَرا ابنِ الازرق
وفرَسٌ كداحِس او لاحِق　　يومَ الرّهان شأوُه لم يُلحَق
تقدَحُ نيرانَ الحُباحِب حوا　　فِرُه عند خبَب وطلَق
كالريح في هبُوبه والسّمْع في　　وثُوبه وكالْمَها في فَشَق
به اجُوسُ في خلال دارها　　وانثني كالبارقِ المؤتلِق
فإن تكُ الزبّا دخلتُ قصرها　　وكقَصير سُقْتُها للنّفَق
ومَن حماها ككُلَيْب فله　　جسّاسُ رُمح راصد بالطرق
لا بد لي منها وان تحصّنت　　بالأبلق الفَرْد وبالخَوَرْنَق

لا بد لي منها وان عثَرتُ في ذيْل الحُسام والسّنان الازرق
وان ظفرتُ بالمُنى من وصلها بالغتُ في صيانة العِرض النقي
وان بقِيت مثلَ ما كنت فلا زلت بغيضَ مضجعَي ونمرُقي
أشُنّ كلَّ غارة شعْوَا على من يحْمِها في مِقْنَب او فيْلق
وفي خَميس من خيار يَعْرُب ذوي رماح وخُيُول سُبّق
مِن أُسرتِي بني مُلُوك فهمُ اطوعُ لي من ساعدي ومرفقي

* * *

سلِ ابنَ خلدون علينا فلنــا بيَمَنٍ مآثرٌ لم تمحــق
وسَلْ سليمانَ الكلاعي كم لنا من خبَر بخَيْبَر وخَنْــدق
ويوم بدْر وحُنَيْن وتبُو كِ والسّويق وبني المُصْطَلق
بهم فخرتُ ثم زاد مفخَــري بأَدبي الغضَ وحُسْن منطقي
وزانَ علمي ادبي فلن تــرى مَن شِعرُه كشِعريَ المنمــق
فان مدحتُ فمديحي يُشتفــى به كمثل العسل المُــروّق
وان هجوتُ فهجائي كالشّجي يقِف في الحلْق ومثل الشّرَق
4) فبَشّرَنْ ذاك الحسودَ انه يظفَر في بحر الهجا بالغَرَق
وقل له اذا اشتَكَى مــن دنَس انتَ الذي سلكْت نهجَ الزلق
وفُقْتَ في الجرْأة خاصي أسدٍ فمُتْ بغيظك وبالرّيق اشرَق
وما الذي دعاك يا خبّ الى ذا الأفعُوان ذي اللسان الفرَق
نطقتَ بالزّور اما كنتَ تعِي أن البلا مُوكّلٌ بالمنطــق

ولم تخَفْ من شاعر مهما انتضى   سيفَ الهجا فرَى حبالَ العُنق
فلْتَقِ نفسَك بكفّك ولا   تسُمْ فصيحَ النطق بالتمشدق
فذاك خيرٌ لك واستمع الى   نُصح الحكيم الماهر المدقّق

* * *

5) فكُن مهذّب الطباع حافظاً   لِحكَم وادب مفترق
وعاشِر الناس بخُلْق حسن   تُحمَد عليه زمَن التفرّق
ولا تصاحِب من يَرى لنفسه   فضلا بلا فضل وغير المتقي
وكلّ من ليس له عليك من   فضل فلا تُطمِعْه بالتملّق
وفوّقَن سهْمَ النمَيْرِيّ لِمَن   لِطُرق العلياء لم يُوفّق
وافعلْ بمن ترْتَابُ منه مثلَ فعـ   ـل الملتمّس اللبيب الحذِق
ألقى الصّحيفةَ بنهر حيرَة   وقال يا ابنَ هِنْد ارعُد وابرق
ولا تعِدْ بوعْد عُرقوبَ اخاً   وَفِهْ وَفا سموْألٍ بالأبلَق
شحّ باذرُع امرىءِ القيس وقد   ترك نجْلَه غسِيل العلَق
ومثلَ جارٍ لأبي دؤادَ لا   تطمع به ان لم تكن بالاحمق
واحمَد جليساً لا تخاف شره   وكابْن شوْر لن ترى من مُطرق
ونَم كنَوْم الفَهْد او عبّود عن   عيْب الورى والظنّ لا تحقق
ولْتَكُ ابصرَ من الهدهد والزّر   قا بعيْب نفسك المحقّق
وكن كمِثْلِ واسِطيّ غفلةً   عن شتم ضارع وعتْب سُقُق
واعدُ على رِجلَيْ سُلَيْك هارباً   من قُرب كل خُنْبُق وسهْوق

وكُنْ نديمَ الفرقدين تنجُ مـن
منُقّص ومن طُرُوّ الرنـق

وكن كعقرب وضبّ مع من
عليك قلبُه امتلا بالحنـق

ثُمّتَ لا تعجَلْ وكن ابطأ من
غُراب نُوح او كفِنْد الموسِقي

مضى لنار طالباً وبعدَ عـام
جابها يسُبّ فرط القلـق

وخذْ بتارك وكُن كمَن اتـى
بالجيش خلْفَ شجر ذي ورق

وانتهِز الفُرصة مثلَ بَيْهَسٍ
وبالمُدَى لحْمَ العُداة شرّق

وكابنِ قيْس بهمُ كن مُولِماً
وليمةً شهيرة كالفلـق

يومَ مِلاكِـه بـأمّ فرْوَة
عرْقَب كُلّ ذات اربع لقي

ولا تدَعْ وان قدرتَ حيلـة
فهْي اجلّ عسكر مُدهْدق

إن كان في سفك دم العدا الشّفا
سفكُ دم البريء غيرُ ألْيَق

ولا تُحارِبْ ساقِط القدر فكم
مِن شَاهةٍ قد غُلِبت ببَيْدق

وكم حُبارى امّها صَقْر فلم
يظفَرْ بغير حتْفه بالـذّرق

وكم عُيونٍ لأسود دَمِيـت
بالعضّ من بعُوضها الملتَصِق

والخُلْدُ قدْ مزّق اقوام سبـا
وهـدّ سدّاً مُحكَم التأنق

ولا تنقّص احـداً فكلّنـا
من رجُل وأصلُنا من علَق

لا تُلزِمِ المرءَ عيوب أصله
فالمسكُ اصله دم في العنـق

والخمرُ مهما طهرتْ فبينهـا
وبين اصلها بحكم فـرّق

ولا تُؤيّس طامعاً في رتبـة
لمِثلها نظيرُه لم يلْحـق

فالزّرْدُ يومَ الغار لم يثبت له
فضلٌ وكان الفضل للخدَرْنَق

وقوسُ حاجب برهنها لـدى ‏ كسرى اطمأنّ قلبُه بما لقي
لا تغشَ دار الظلم واعلمْ انها ‏ أخربُ من جوف حمار خلَق
ولا تبع عرضَك بيعةَ ابي ‏ غُبْشَان بَيْع الغَبْن والتبلصُق
باعَ السّدانةَ قَصيّاً آخذاً ‏ عوَضَها نحْياً من أمّ زَنبق
ولا تكُن كأشعبٍ فربما ‏ تلحق يوماً وافدَ المحرّق
ولا تكن كواو عمرو زائداً ‏ في القومِ او كمثل نون ملحَق
لا ترجَونْ صفواً بغير كدر ‏ فذا لَعمرُ الله لم يتفق
لا تكتُم الحقّ وقُلْه معلِناً ‏ فهو جمالُ صوتِك الصّهْصَلِق
وصِح به شِبْهَ شَبيب وابي ‏ عُرْوَةَ والعباس عندَ الزعَق
لاتأمَنِ الدهرَ فان خطبه ‏ أرشقُ نبلاً من رُماة الحَدق
لا تنسَ من دنياك حظاً والى ‏ كالطّلقاني والخَصيب انطلق
واعضُلْ كهمّام بنات فكرة ‏ ضناً بها عن غير فحل مُعرِق
كي لا تقولَ بلسان حالها ‏ مقالَ هِنْد ألقِ من لم يَلِق
وسلْ مُهورَ كِنْدة ان تُهدِها ‏ لِذي ندى كالبحر في تدفق
لا تهجُ من لم يُعطِ واهجُ من اتى ‏ الى السراب بالدّلاء يستقي
وعُدْ لما عُوّدتَ من بذْل اللّها ‏ فالعَودُ احمدُ لكل مملِق
ولا تعُد لحرب مَنْ مَنّ ولو ‏ منّ فما غلّ يداً كمُطلِق
والعَوْدُ يَختار على مَن كان كالـ ‏ ـمختار او مَن كان ذا تزَندُق
والصمتُ حصن للفتى من الردى ‏ وقَلّ مَن شرّ لسانه وُقي
وان وجدتَ للكلام موضِعاً ‏ فكن عَراراً فيه او كالأشْدَق

لا تبخلَنْ بردَّ ما استعرتَه … كضابىء فالبخل شرّ مُوبِق
شحّ برد كَلْب صيدٍ وهجا … أربابَه ظلماً فلم يُصدّق
ومات في سجن ابن عفّان كما … قضى الاله ميتَة المُحرّق
ونجله من أجْلِه أجلّه … مِن سطوة الحَجّاج لم يكن وُقي
واسترُ عن الحُساد كلّ نعمة … كم فاضلٍ بكأس مكرهم سُقِي
فصاعِدٌ عـلى مَديح وردة … أصبح مُنحطّاً بقول سَهْوَق
وافخر كفَخْرِ خالدٍ بالعير والنـ … فير لا بحُلّة من سَرق
واتخِذ الصبرَ دِلاصاً سابِغاً … وبِمجَنّ عُمَر لا تتّق
وان حملت رايةَ الامر فكن … كجعفر أو دَعْ ولا تَستبق
قد قُطِعت يداه يوْم مُوتَة … ولم يدّعْها لكَمِي سَحْوَق
لكنه احتضنها لِحُبها … فيا له من سيد موفق
وكُن اذا استُنجِدت مثلَ من غزا … ارض العدا بكل طِرْف أبلق
وسُمْ عدوّ الدين بالخسف وكن … مثلَ أبي يُوسُف ذي التخبّق
رَدّ كتابَ من دعاه للوغى … منهم مُمزّقاً لفرط الحنق
وقال إني لا أجيبُ بسوى … جيشٍ عرمرم وخيْل دُلُق
وضرب الفُسطاط في الحين. وقد … أحاط جيشُه بهم كالشوْذق
وكان ما قد ابصروا من بأسه … أبلغَ من جوابه المشبْرَق
يا صاح واشغَلْ فسحة العُمْر بما … يَعني وزُر غِبّاً رسُوم العَيْهَق
وابكِ على ذنب وقلب قد قسا … كالصخر من هواه لم يستفق
بمُقلة كمقلة الخنساء اذ … بكت على صَخْر بلا ترفق

أو كبُكا فارعةٍ على الوليـــــد وبُكاءِ خِنْدِف وخِرْنِق

أو كُن مُتمّماً بُكا مُتمّم على الذنوب وارج عفوَ معتِق

وكن خميصَ البطن من زاد الربا وخمرةَ التقوى اصطبح واغتبق

وحصّل العلمَ وزنه بالتقى وسائرَ الاوقات فيه استغرق

وليكُ قلبك له أفرَغَ من حجّام ساباط ومن لم يعشق

ولا تكن من قوم مُوسى واصطبر لِكَدّه وللملال طلّق

فالعلمُ في الدنيا وفي الاخرى له فضلٌ فبشر حِزْبَه شرّاً وُقي

6) واعْنَ بقول الشعر فالشعر كما لٌ للفتى إن به لم يرتزق

والشعر للمجد نِجادُ سيفه وللعُلا كالعِقد فوق العنق

فقُله غير مُكثر منه ولا تعبأ بقول جاهِل او أحمق

ما عابه الا عَيِيٌّ مُفحَم لِعرفه الذكي لم يستنشق

كم حاجةٍ يسّرها وكم قضى بفك عان واسير مُوثَق

وكم اديب عاد كالنّطْفِ غنِيٍّ وكان افقرَ من المذلّق

وكم حديثٍ جاءنا بفضله عن سيد عن الهوى لم ينطق

وقد تمثل به وكان من اصحابه يسمعه في الحلق

وقد بنى المنبر لابْن ثابتٍ فكان للانشاد فيه يرتقي

وقال لابن أهتَم في مدحه وذمّه للزّبْرِقَان الأسْمَق

مقالةً ختمها بقوله إن من الشعر لحِكمةً تقي

وعند ما سمع من قُتَيْلَة رثْي قتيلها الذي لم يُعتَق

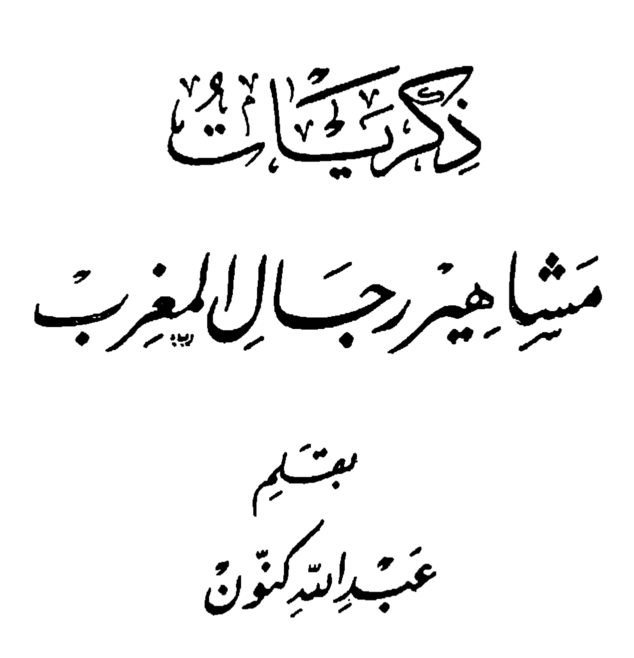
ردّ لها سلَبَه وقد بكـــى شفقةً بدمعـــه المنطلـــق
وقد حبا كَعْباً غـــداةَ مدحه ببُردة ومائة من أينُـــق
وبشّر الجَعْدِيّ وابن ثابت بجنة جزاءً شعر عُنسُـــق
كم خامل سما به الى العـــلا بيتُ مديح من بليغ ذلـــق
مثلُ بني الأنف ومثلُ هَرِم وكالذي يُعرف بالمحلّـــق
وكم وكمْ حطّ الهجا من ماجد ذي رتبة قعْسا وقدر سَمِق
مثلُ الرّبيع وبنِـي العَجْلان مع بني نُمَيْر جمَرات الحرق
لو لم يكن للشعر عند من مضى قدْرٌ على الكعبة لم يُعلّـــق
لو لم يكن فيه بيانُ آيـــــة ما فُسّرت مسائلُ ابن الازرق

* * * *

7) وان اردت ان تكون شاعراً فحلاً فكن مثلَ ابي الشمقمق
ما خلِتُ في العصر له من مثـــل – غيرأبي – في مغرب ومشرق
لذاك كنّاه بـــــه سيدُنـــــا السلطانُ عزّ الدين تاجُ المفرِق
يا ملِكاً ألويةُ النصر عـــلى نظيره في غربنا لم تَخفُـــق
طابَ القريضُ فيكم وازدان لي وجاش صدري بالفريد المونق
لولاك كنتُ للمديح تاركـــاً لعدم البـــــاعث والمشوّق
تَرْكَ الغزال ظلّـــه وواصل للرّاءِ وابن تَوْلَب للملَق
وكنتُ في تركي له كابن ابي ربيعةَ الناذِر عِتقَ الهُنبُق

8) إليكَها ارجـوزةً حُسّانةً لمثلها ذُو أدب لم يرتـــق
ما لجَرير وجميــل مثلُهــا في غزَل وفي نسيب مونـــق
ولا أديبٌ في قُرى اندلسٍ جرت بها اقلامُه في مُهرَق
من كان يرجو من سوايَ مثلَها رجا من القـِرْبةِ رشْحَ العرق





مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني
للطباعة والنشر
بيروت

طبع بمطابع دار الكتاب اللبناني
ساحة البرج - بيروت - هاتف ٢٥٨٧٠

16

ابن عبدون المكناسي

هذه السلسلة في الميزان

بقلم الاستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي

سلسلة محكمة الحلقات من تاريخ الادب المغربي يؤلفها وينشرها الاديب النابغة الاستاذ عبد الله كنون . وقبل ان ابتدىء في نقد هذه المؤلفات وتقريظها ينبغي ان اذكر شيئا من التعريف بالمؤلف ليستفيد من لا يعرفه حق المعرفة من أهل الشرق وغيرهم من أهل الآفاق البعيدة عن المغرب .

كنت في البلاد الجرمانية في مدينة – بُنْ – أولا ثم في برلين ثانيا فكانت الاخبار تترى عليّ عن عبد الله كنون . وكان الحاملون لها اناسا مختلفي المشارب والطباع والاذواق من جميع الطبقات ، ولكنهم جميعا اتفقوا على فضله ونبله . فاشتقت الى الاتصال به لاخبره واعرفه عن كثب ، فقدر لي ان اتوجه الى المغرب سنة ١٣٦١ ، ولقيت هذا الرجل في بلده طنجة وفي تطوان ، وعرفت حاله حق المعرفة فوجدته احسن واجل مما وصفه الواصفون .

كانت منافثةُ الرّكْبان تخبرني عن جعفرِ بْنِ فَلاحٍ اطيبَ الخبر
ثم التقينا فلا والله ما سمعت أذْني بأحسن مما قد رأى بصري

فلا تكاد تلتمس خلة من خلال النبل ولا خصلة من خصال الفضل الا وجدته متصفا بها . فقد جمع بين خصال الشيوخ من سعة العلم والادب وكمال العقل والمروءة وبعد النظر وسداد الرأى والرزانة والحلم والوقار الى خلال الشباب من النشاط والحزم وفكاهة الحديث وحسن المحاضرة وطرافة النكتة مع صحة العقيدة والكرم والشهامة والوطنية الموزونة بميزان الشرع المحمدى المكتسبة من القرآن وسيرة الرسول ، لا من العصبية الجاهلية الاولى ولا الآخرة ؛ متوسط القامة الى الطول اميل ابيض صبيح الوجه نحيف الجسم لا يلتزم زيا بعينه فصيح اللسان له شعر يصل فيه احيانا الى حد الابداع ، وله نثر منسجم مرصع بجواهر النكت ولطائف المُلَح الا انه قد يشوبه بالعبارات العصرية التى ينفر منها الاسلوب العربى الخالص ، ثم ان ارتكابه لهذه العبارات ناشىء عن اختيار واستحسان لا عن عجز او جهل بالقواعد اللغوية فانه فيها نسيج وحده (ولكلٍّ وِجْهةٌ هو مُوَلّيها) ، وبعبارة اخرى فهو من الادباء الذين يذهبون الى التجديد المطلق ، وللناس فيما يعشقون مذاهب .

وله تآليف غزيرة العلم جيدة التأليف حسنة السبك (أعُدّ منها ولا أُعَدّدُها) منها : تاريخ المغرب مختصر للمدارس المغربية وشرح الشمقمقية وشَرح مَقْصُورة المكودى وتعليق على ديوان ابن زاكور ؛ وأهمها كتاب النبوغ المغربى الذى جمع فيه ما لا يوجد فى كتاب واحد من تاريخ الادب والادباء والشعر والشعراء مع الإلمام بتاريخ الحوادث العامة والسياسية والنقد الصحيح لكل ما يعرض له . وقد قسم هذا الكتاب الى عصور متباينة وتوسع

ما امكنه فى تراجم المبرزين من الادباء والشعراء ، ونشر هذا الكتاب فى مجلدين من ماله الخاص لم يساعده على ذلك احد لا حكومة ولا جماعة ولا افراد من الامة ؛ بل وجد هذا الكتاب فى أمته من يحاربه ولكن جهود المحاربين كانت كالزّبَد الذى يذهب جفاء فانتشر الكتاب برغم انوفهم وترجم باللغة الاسبانية ومنحته احدى الجامعات الاسبانية عليه لقب دكتور شرفاً ، وتلقاه مؤرخ الادب العربى الاكبر فى هذا العصر بلا نزاع ، الاستاذ كارل بروكلمان الالمانى تلقاه بالاعجاب والثناء العاطر .

ولما تولى الاستاذ كنون ادارة المعهد الخليفى للباحثين الذى أسس فى تطوان سنة ١٣٥٦ وجد الفرصة سانحة لنشر كتابه « ذكريات مشاهير رجال المغرب » الذى لا يقل أهمية عن كتاب النبوغ المغربى ، فبدأ يخرجه فى أجزاء صغيرة ، ولكنها أجمل طبعا ، وأكثر تأنقا وأدق نظاما مُفْرِداً لكل عالم وكل أديب جزءاً خاصا يشتمل على سيرته ومخلّفاته الادبية من منظوم ومنثور مع البحث والتحليل الادبى والتاريخى الدقيق الذى يقال فيه (أعط القوسَ باريها) .

ولا يجب ان يكون مصيبا فى جميع آرائه فتلك صفة استأثر بها كتاب الله . قال الشافعى رحمه الله : أبى الله ان يسلَم من النقص الا كتابُه ؛ قال تعالى : (ولوْ كانَ مِن عندِ غيْرِ الله لوَجدُوا فيه اختلافا كثيرا) . ولكن كلّ من قرأ هذه السلسلة من أهل الفن المُنْصِفين يشهد له بالبراعة فى النقد والاصابة فى اغلب المسائل ، وذلك اقصى ما يطمع فيه البشر . وقد بلغ ما نشر من هذه

الاجزاء خمسة عشر فمُلِئتُ اعجابا بها وأكبرت هذه الهمة الشماء ، ولم أكن من قبل أجهَلُها . وان دنيا الادب لفي أشد الحاجة الى بعث هؤلاء النوابغ واخراج كنوز آدابهم من تحت انقاض البلى والاهمال في تلك الحلة القشيبة من قرطاس ابيض ناصع وحروف واضحة وطبع متقن . على ان في تصحيحه نقصاً لم يستطع هذا الفاضل ان يتجنبه ولا أظن ان ذلك ينشأ عن تهاون او قصور ولكنه نتيجة انحطاط الثقافة اللغوية في البلاد العربية بأسرها ؛ وقد يتغاضى هذا الاستاذ الناقد احيانا عن الخرافات الملتصقة بالادب المغربي الذى تخدِشُ وجهَه الجميل مع انه بعيد عن العقائد الخُرافية بُعْدَ الثّريا من الثرى لان الجمهور لا يزال يخبط في ظلماتها ولعله لم ير في الامكان ابدعَ مما كان . ثم انه لم يرتب هذه السلسلة على العصور فيبدأ بالمتقدم فالمتقدم في الزمان او المتأخر فمن دونه ولم يرتب اولئك الرجال على درجاتهم في الكمال. فلا أدرى ماذا قصد في ترتيبهم والخطب في ذلك يسير .

وانى لأهنىء الباحثين في الادب المغربي وتاريخه بهذا العمل المبرور والسعى المشكور أولا ، ثم أهنىء المؤلف ثانيا بما اتاح الله له من خدمة الادب والتاريخ وخصه بهذه المزية دون ابناء جلدته ؛ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

بغداد في العاشر من السادس من ١٣٧١

تقي الدين الهلالي

ابن عبدون المكناسي

الاشتراك في اسمه ـ هل درس بفاس ـ هل كتب لأحد من الأمراء ـ السبب في عدم انتشار شعره – ثناء ابن غازي وابن القاضي وابن الخطيب عليه – مساجلة بينه وبين أدباء عصره ـ هل هو شاعر المغرب – علمه بالقراآت – شعره ـ نثره ـ ـ تاريخ وفاته .

نحتاج الى التنصيص على نسبة مترجمنا لبِبَلَده تخلّصاً من الاشتراك الواقع في اسمه ، اذ نرى انه لا يكاد يتميز عن غيره ممن اشتهر بهذا الاسم كابن عَبْدُون الاندلسي صاحب القصيدة المشهورة في رثاء بني الأفْطَس من ملوك الطوائف بالاندلس ، ونحن اذا كنا آمنين من الوقوع في هذا الاشتراك لاننا لانذكر في تراجمنا هذه الا الاشخاص المغاربة فلا ننسى ان هناك كثيرين من أدباء المشرق وغيره لايعرفون عن مُترجَمنا شيئا ، وربما لم يسمعوا به فيقع لهم الاشتباه في اسمه وينسبون ما له لغيره لاسيما ومؤلفُو الآداب لا يذكرون ابن عَبْدون حين يذكرونه إلا بكنيته هذه، وخصوصا الاندلسي والمكناسي من ابناء عبدون ، فلو انهم يسمونهما باسمَيْهما الحقيقيين فيقولون : عبد

المجيد بن عبدون ، ومحمد بن عبدون ، لكنا نطمئن قليلا على تراث اديبنا المغربي من السطو الذي عدا كثيرا على آداب المغرب وحضارة المغرب باسم الاندلس ، ولكن هذا لم ، يقع فلا بد من ذكر « مَكْناسِية » مترجَمنا بازاء كنيته فانها هي المخصصة له من غيره .

اما الاسم الحقيقي لابن عبدون المكناسي فهو : محمد بن عبدون بن قاسم الخزْرجي العربي النجار من ذُرّية الانصار المكناسي الدار ، قال ابن القاضي «من اهل مكناسة ودخل مدينة فاس» ولذلك ذكره في الجَذْوة اذ شرطه ان لايذكر الا من دخل فاسا .

ثم انظر هل دخلها في سن الشباب بقصد الطلب فيكون اخذ عن علمائها وتخرّج باساتذتها ام لا ؟ اما دخوله اليها بعد الاكتمال وفي زمن النّضْج الادبي فانا متحققون منه لما بيدنا من الشاهد التاريخي عليه ، وما يدرينا لعل دخوله اليها قد تكرر خصوصا اذا قدرنا انه كان في مَعِيّة احد الامراء على ما تشعر به تحْلِيَةُ ابن غازي وصاحب الذخيرة السنية له بالكتَابة ، وعادتُهم انهم لا يُحلون بها الا من شغل وظيفتَها في دواوينها ؟ .

واذا ثبت ذلك فمَن يكون هذا الامير الذي صَحِبَه وكتب له ابن عبدون ؟ لا جواب لنا قاطِعاً عن هذا السؤال لاننا نستنطق تاريخه المجهول فلا يكاد يجيبنا عن شيْ من امره ، وانما نقول انه كان يعيش في عصر فَتْرَة ؛ لا فتْرَة

وَحْي ، ولكن فتْرة أدب ! نعني في اواخر عصر الموحدين ، وابتداء تأسيس دولة بني مَرِين ، ولا نظن انه كان في صحبة الموحدين لان بلد هؤلاء هو مراكش ، وهو كان بمكناس فضلا عن اشتغالهم بحرب بني مَرين القائمين عليهم فلم تكن ايامهم ولا احوالهم مما يُرغّب الاديب في الاتصال بهم والكون في معيّتهم ، واما بنو مَرِين فقد كانت ايامهم في إقبال واحوالهم الى صَلاح ؛ الا انهم كانوا لا يزالون مُتَبدّين مُخْشَوشِنين تَغلِبُ عليهم السذاجة الاعرابية وحالة الفِطرة ، فهم ابعد ما يكون عن الادب واصطناع اهله ، خصوصاً ولم يدرك اديبُنا من ايام اول سلاطينهم الذي قعّد قواعدَ ملكهم وشاد صرح دولتهم وهو يعقوب المنصور الا مدةً قليلة ، اذ توفي بعد ولايته بعامين او ثلاثة حيث إن ولاية المنصور كانت في سنة 656 ووفاةُ ابن عبدون كانت سنة 658 على ماعند صاحب الجذوة او 59 على ما عند صاحب الذخيرة السنية ، فهو وان يكن اتصل باحد امراء بني مَرِين لا يجوز ان تتعدى صلته بهم صلةَ الوظيف الذي كان يشغله وهو الكتابة الرسمية ، فلا مجالَ لادبياته عندهم ولا سبيل لاظهار نبوغه لديهم وذلك هو السر في عدم انتشار شعره وتناقُل المؤلفين له ؛ ولاسيما المؤرخون منهم الذين لا يذكرون في الغالب الا ما كان مدْحاً لامير او ثناء على ذي سلطان .

ودونك الآن عبارةَ ابن غازي في الروض الهتون حيث تعرّض لذكر أعلام بلده مكناسة الزيتون قال : «ومنهم ابن عبدون حائزُ قصَب السبق

في الشعر والكتابة » . وهذه شهادة تنمّ عمّا لمن قيلت فيه من فضل خصوصا عند اعتبار مكانة قائلها الفاضل .

وفي زَهْرة الآس لابي الحسن الجزنّائي عند الكلام على الثريا الكبيرة التي بجامع القرويين أن الاستاذ المزْيَاتي كان جالساً تحت هذه الثريا في ليلة السابع والعشرين « من رمضان » ومعه الاستاذ ابنُ عبدون الاديب ، ومالك بن المرحّل ومحمد بن خلَف فأنشد الاستاذ ارتجالا :

انظُرْ الى ثُرَيّةٍ نورُهـا — يصدَعُ باللألاء سَجْفَ الغَسق

فقال ابن عبدون :

كأنّها في شكْلِها رَبْوةٌ — انتظَم النّوْرُ بها فاتّسق

وقال ابن المرحّل :

أُعيذُها من شرّ ما يُتّقى — وفَجْأةِ العيْن بربّ الفلَق

وقال ابن خلَف :

بَاهَى بها الاسلامُ ما اشرقت — كاسَاتُها عند مَغيب الشّفَق(1)

1) أورد ابن القاضي الحكاية في جذوته لكن بسياق آخر وذكرها الافراني أيضاً في شرح التوشيح على وجه ثالث وأسند الرواية فيها لابن رشيد باعتباره شاهد عيان . وكان ابن رشيد عند وفاة ابن عبدون صبياً رضيعاً فلهذا اضربنا عن غير رواية الجزنائي المؤلف المعاصر لأصحاب الحكاية.

والقارىء الاديب إذا عمل مقارنةً بين ابيات هذه المُساجلة لا بد ان يحكم لابن عبدون على اصحابه ولو ان فيهم مالك ابن المرحل شاعر المغرب الاكبر . ومن هنا يعلم صدق قول ابن غازي فيه . إنما لا يفهم من هذا تفضيله على المذكورين في الجملة والتفصيل فاننا انما دللنا به على براعته في القول وحسن بديهته في النظم .

وقال ابن القاضي : «كان شاعراً مُجيداً ، وهو شاعر اهل العُدْوَة » ويظهر ان الجملة الاخيرة من كلام بعض الاندلسيين لإشعارها بأن قائلها ليس من اهل العدوة ، وأيّا كان فهل ذلك صحيح ؟ ما اصعب الجواب عن هذا السؤال ولو وُجِد بيدنا ديوان شعر ابن عبدون كاملاً ، فكيف معَ عدم وجود شيء من شعره الا النزْر اليسير الذي لا يُسمِن ولا يغني من جوع !؟ وذلك لانه على تقدير وجود جميع ما قاله من الشعر فمِنْ اين لنا جميع ما قاله غيره من شعراء المغرب الكُثار لِنُوازن بينه وبينهم حتّى يمكننا ان نحكم له او عليه ؟ وإذا افلا يكون في هذه الكلمة مبالغة واغراق في التقدير سوّغ اطلاقها النسجُ على منوال قولهم في ابن عبدون الاندلسي انه اديب الاندلس فابن عبدون المكناسي ايضاً شاعرُ العدوة ، وتَمّ حينئذ الاشتراكُ بينهما في الاسم والوصف ! ...

وقد حلاه في الذخيرة السّنية بالفقيه الاستاذ المُقرىء الكاتب البارع اديب وقته ، وشاعر عصره ، وهي حِلَى ضَخْمة كما ترى ، فأما الكتابة والشعر

فقد توارد مع ابن غازي على وصفه بهمـــا ، واما الاستاذية وهي العِلْمُ بالقراآت كما كان سلفُنا يستعملون ذلك اللفظ فقد افدناه من زهرة الآس لكن بقي في النفس شيءٌ من ذلك اذ قد لا يراد به ذلك المعنى فجاء قول الذخيرة : الاستاذ المُقْرىء نصاً في المراد ، فهو اذاً من الاساتذة القُرّاء ، وذلك مما يزيد في رفعة شأنه كأديب على ما هو معلوم من ان تلـك القراآت انما هي لغاتُ قوم من العرب ومذاهب جماعة من النحويين فالعالم بها له مزيدُ تضلّعٍ بالعربية وبصرٍ باسرارها .

ونرجع في تتميم ترجمة هذا الاديب الى شعره نستجني منه نفْسَه الشاعرة وطبعه الرقيق ، اذ لم يبق بيدنا من اخباره شيء نتعلق به في توْرِيخه فعسى ان نكون رسَمْنا خطوط ترجمته لمن يملأها من بعد .

واول ما نورده من شعره قوله في بلده مكناسة الزيتون لانه اشهرُ نظمه وأسيَره ، والكثير من الناس لا يعرفهُ الا به وهو :

إن تفتخر فاس بما في طيّها ... وبأنها في زيّها حسناء
يكفيك من مكناسةٍ ارجاؤها ... والاطيبان : هواؤها والماء

ولما اوردهما ابن الخطيب عند ذكره مكناس في نُفاضة الجراب قـال : « لله درّه » استحساناً لهما ، وتنويهاً ببراعة ناظمهما . ومن قوله الدال على خفة روحه ولطافة جوْهَر نفسه وهو مما اورده صاحب الجذوة ، واكثر الناسخ

من التصحيف فيه فصححنا منه ما امكن :

يا جيرتي ومن استجرت بهم ... من جور عزهم على ذلي
عوضتموني بالوداد قلى ... وأبدلتم الانصاف بالمطل
وشغلتم بالي بهجركم ... وبباله عن كل ما شغل
ما هكذا فعل الكرام بمن ... منهم تعود اجمل الفعل
علقت حبل محبتي بكم ... بحياتكم لا تقطعوا حبلي
ما كان أندى ظل عيشتنا ... اذ كان منتظماً بكم شملي
إذ نجتني ثمر المنى ذللاً ... في روض أنس وافر الظل
نجلو الهموم بحث صافية ... مزجت بخمر الاعين النجل
وعرى العقول متى تحل بها ... إحداهما آلت الى الحل
عودوا الى عادات وصلكم ... لا تحرموني لذة الوصل
حاشاكم والفضل شيمتكم ... أن تعقبوا الإخصاب بالمحل
واذا أبيتم غير جوركم ... فالجور منكم غاية العدل
ان شئتم قتلي فها أناذا ... لا تحذروا من طالب ذحلي

وهذه القطعة برشاقة لفظها ، وعذوبة معناها ، تحسبها لابراهيم ابن سهل او العباس بن الاحنف ، الأمر الذي يدل على ما لصاحبها من رقة طبع ولطف ذوق .

ومن قوله يصف نهراً وردتْه عصابة طير :

أما ترى النهرَ في انصِبَابِه   كأنه الصّل في انْسِيابِه
قد انتحته ظِمَاء طيْر   مُقْتحِمَات على جَنَابِه
تنقَعُ من مائه أواماً   وتلقُط الحَبَّ من حَبَابِه

ولا تغفل عن تشْبيه انصباب النهر بانسياب الصل فانه غريب وقال ايضاً في نهْر قُذِفَتْ فيه مَصابيح :

انظُر الى النهر يحكي الأفق إذ قذِفت   فيه مصابيح ذادَتْ عنه أحْلاكا
جالَتْ به سرُجٌ شبَّهتُها شُهُباً   على قواعِدَ قد حاكين أفلاكا

وله في مصباح :

تلألأ مِصْباحُنا فاكتسى   بهيمُ الدجا من سناه نحول
كأن الذبالةَ نوّارةٌ   ومن حولها الدّهن ماءٌ يجول
اذا رَوِيَتْ نَعِمتْ نَظْرةً   وان ظَمِئت اخذَتْ في الذبول

وهو بديع لا يكاد يوجد له نظير .

وله في الشيْب :

لمّا تراءتْ للمشيب بمفْرقي   شُهُبٌ أغَرْنَ على شَبَابي الأدهم

أبْدَى التجَهّمَ مَن أحِبّ أما درى أنّ الليالي حُسْنُها بالانجُم؟

ومن شعره يخاطب الاديب احمد بن القصير الاشبيلي عند فراقه له ، وقد كان هذا الاديب فاتحه بابيات يقول فيها :

ياسيّدي قد سِرْتُ عن غرْبكم مُشْرِقاً ابكي على غُرْبتي

فاجابه ابن عبدون :

مللت دنيايَ لبَيْن دنا من صاحب مِلّتُه مِلّتي
فَرِقتُ اذ جَدّت به فُرقة حلّت عُرى صَبْري اذ حَلّتِ
وكنت أنسيتُ بأنسي به نوائبَ الدهر التي جَلّتِ
لا أحمدُ الحالَ اذا كنتَ يا أحمدُ عني نائي الحِلّةِ
وكيف يسلُو عنه ذو رَوعَة عليه أسياف الهوى سلتِ
لا أهلَ بالبَيْن ولا مرْحَباً فأدمُعي من أجْله انهلّتِ
كم شَتّ من شمل وكم ثَلّ من عرْش وكم فرّق من ثُلّةِ
إن غِبْتَ او أغْبَبْتَ زَوراً فَفي طيْفك ما يُطفئ من غُلّتي

وقد عاوده الاديب المذكور بابيات لزُومِيّة مثلِ ابياته يقول فيها :

أيا ابنَ عَبْدُونَ تَعَبّدتني بأنعُم في جيلنا جلّت

فمضلُك اليوم يُسرى عُمدةً اضحى له غيرك كالفَضْلَة

ذكره ابن رُشَيْد في رحلته .

فهذا النزْر القليل من شعره يَقِفُنا على شيء غير قليل من شاعريته الخِصْبَة فهو دقيق الحسّ لطيف الشعور قويّ التصوّر حسَن المُلاحظة وخصوصاً في وصفه . وأما نثْرُه فاننا لم نقف منه الا على نُتْفٍ يسيرة ، وهو بحكْم تقلّده للكتابة على ما فهِمْنا من تحليتِه بها فيما مرّ ، يلزَمُ ان يكون له آثار نثرية لا تقِل عن شعره ، وحتى لو لم يتقلّدها رسمياً فانّ تحليتَه بها يؤْذنُ بان له كتاباتٍ ادبيةً على الاقلّ ، إخوانيةً وغيرها . ولكنّا لا نجد له شيئاً من ذلك فيما بايدينا من المظانّ ، الاّ هذه الجُملة من رسالةٍ كتَبَها عن اهل بلده مكناسة الى المأمون الموحّدي لما حاصر بعضُ القبائل بلدهم ، ونصّها :

« فالعَبيدُ ايّدكم الله هالكون لا محالة ، وحياتهم في حيّز الاستحالة ، الا ان يتداركَ الله تعالى بلطفه ، ويتلافى الجميع بجزيل عَطْفه ، ومعروف ان هذا القُطْر ــ حماه الله ــ قُفْلُ الغرب ، والبلادُ مُعتمِدة عليه اعتماد الحسام على الضرب ، فإغاثتُه واجبة ، وحمايته حاجبة ، فالعَجَل العَجَل ، قبل بُلوغ الاجل ، والغياثَ الغياثَ ، قبل تمكنّ الفساد والاعباث (1) »

وقد اورَد هذه الجملة صاحب البَيان المُعْرب وقال بإثرها « وله شعر في

---

١) كذا في الأصل ونظن أن صوابها العباث جمع عابث كالفساد قبلها جمع فاسد .

المعنى طويل ، فمنه :

إمامَ الهُدى سَمْعاً لدعوة شاكِ ثَوَى بين هُلاّكٍ رَهِين هَلاكِ

أوْشك ان يَغْتَالمكناسةَ الردى وتبكى على مَن تحتَويه بَواكِ

واحاطتْ بها الاعداء من كل جانب فقد قعدتْ منها بكل شِرَاكِ

وقدزارَها من أهل زَرهون(1)هونُها وبثوا لها التطليق بعد مِلاكِ

وابناء فَازَاز (1) لهـا مُسْتَفِزَة فها هي تشكُو كلّ اروْع شاكِ

ثم قال عقبه :

« رفع هذه الشكوى ، الى المكان الأعلى ، ادامَ الله أيامه ، ونصَر ألويتَه وأعلامه ، عبيده المستجيرون بعدله اهلُ مَكْناسة تلافَى الله برحمته تَلافها ، وتدارك بلطفه قطّانها وآلافها ، مستصرخين جلاله ، مُترقبين إقباله ، فالعبيدُ في حُكْم الفَوات ، وعِداد الأموات ، وعدل المقام الاعلى كَفِيلٌ بتدارك أرْماقِهم ، وحلّهم من وثاقهم » .

ويُورِدُ ابنُ عَذارى ايضاً من نثْر صاحبنا فصولا من بَيْعة كتَبها اهل مكناس للسيّد ابن المأمون المُوحّدي مجدّدين له العهد الذي نقَضه قاضيهم ببيْعَتِه لغيره . وأولها فصلٌ في التحميد :

---

1) لعل هذه هي القبائل التي كانت تحاصرها .

« الحمد لله مُقدّر الامور ، ومُصرّف المقدور ، ومخرج عباده من الظّلمة الى النور ، عالم السرائر ، ومُنوّر البصائر ، ورافع الدّرجات ، وواضع الخطيئات ، (وهو الذي يَقْبَلُ التوبةَ عن عباده ويعفو عن السيّئات) وسِعَ كلّ عاصٍ حلمُه ، وأحاط بكل شيء علمُه ، ونفَذ في كل موجود حُكْمُه ، لارادّ لما به حكَم وامَر ، ولا ناقض لما أحكَمَ وامرَ ، قدّر الاشياء ، واتقن الإنشاء ، وآتى مُلكَه مَن شاء ، واسّس بالإمامة مَباني الديانة ، وامدّ مَن اهلّه لوراثة المقام الأسْمى ، واختاره للأمانة العظمى ، بالإنجاد والإعانة »، ومنها فصل في الترضّي عن الخليفة :

« اللّهم ارضَ عن خليفتك في عبادك ، المرْتَسم في ديوان أوْليائك وعُبّادك ، الامام المؤيّد ، والحسام المهنّد ، الاتقى الاطْهر ، الاعلى المعتضد بالله امير المومنين ابي الحسن بن سيّدنا الخليفة الامام المأمون امير المؤمنين ابن الخلفاء الراشدين رضىً يُبلّغه امله في الدنيا والدين ، ويحكُم لدولته السعيدة ، ومُدّته الحميدة ، بالتمهيد والتمْكين ، ويجعلُ كلمتَه الباقية الى يوم الدين ، اللهم كما انتقيتَه من أكرم جُرثُومة ، وسدّدتَه لإقامة حُدود الله المرسُومة ، فضاعِف اللهم في قلوب رعاياه حُبّه ، وأيّد بالملائكة والروح عِصابتَه وحِزْبَه » .

ومنها فصل في الاعتذار وتجديد العهد :

« ومَنْ شُكِرَت في الخدْمَةِ آثارُه ، فحقيقٌ أن تُغْفَرَ زَلّتُه وتُمحى

آثاره ، وإن العَبيد من أهل مكناسة قد اجتمعوا ووَقفُوا موْقِف الاستِكانة والمذَلّة ، وقرَعوا سِنّ الندم على ما صدر منهم من زَلّة ، واستشعروا لِباسَ الإنابَة ، وبادرُوا لهذه الدوْلة المُعتصميّة بالاجابة ، واتّفقوا جميعاً على ما جددوا بيعتهم لسيدنا ومولانا الخليفة الامام المعتضد بالله أمير المومنين ابي الحسن بن الأيمّة الراشدين ، أعلى الله يَدَه ، ونَصرَه وأيّدَه ، حسبما تقدم مُسْتَوْعبةَ الشروط ، مُستوفاة العقود والرّبوط ، لم يَستثنوا فيها فصْلاً ، ولا أغفلوا من عُقُودها فرعاً ولا أصلاً ، بنفوس مُغتبِطة ، ونيّاتٍ على الوفاء بما التزموه من عقودها مُرتَبِطة ، وأشهدوا الله وملائكته على أنفسهم بذلك وهم به عالمون ، (ومَن يتعَدّ حدُودَ اللهِ فأولئك هُمُ الظّالمون) .

هذا ما عرفْناهُ من نثر المُترجَم ، وهُو وإن كان قدْراً ضئيلاً لا يمكن معه الحُكْمُ على مَقامِه في الكتابة ، إلا انه يَشِفّ عن مقدرة وبَراعة يعرفُهما أهل الصناعة .

ونحن إذا أغفلنا الكلام على تاريخ ولادَةِ الشاعِر ونشأته لعدم وقُوفنا الآن على مَرْجِع نعتمِدُه في ذلك فلا نَغُضّ الطرفَ على هذا الاختلاف في وفاته فقد تقدّم عن صاحب الجذْوَة انه توفي في سنة 658 وعن صاحب الذّخيرة السّنيّة أنّ وفاته كانت سنة 659 وزاد قائلاً في العُشْر الأول لذي

قَعْدة منها . فنحن لِمَا أنّ صاحب الذخيرة كان مُعاصراً أو كالمُعاصر لابن عبدون ولِمَا أنه زادَ تَعيين الشهر الذي كانت الوفاةُ فيه وذلك يدلُ على مزيد التحقيق ولِما أن ابن القاضي كثيراً ما تضطرب نُسَخُه في مثل هذه الأمور نُرجّح تاريخَ صاحب الذّخيرة ، ونزيد في حياة شاعرنا سنةً كاملة ، وقد كانت وفاتُه بمكناس باتفاق المؤرخين رحم الله الجميع .



كتب للمؤلف

خاصة بتاريخ المغرب وأدبياته

1 ـ النبوغ المغربي في الأدب العربي ـ ثلاثة أجزاء في أكثر من ألف صفحة، وهو تسجيل للمساهمة القيمة التي قام بها المغرب في بناء صرح الحضارة الاسلامية والحياة الفكرية العربية .

2 ـ مدخل إلى تاريخ المغرب .
وهو يتضمن عرضاً شيقاً لتاريخ المغرب منذ عصور الجاهلية إلى الآن مزيناً بالخرط والصور .

3 ـ أمراؤنا الشعراء :
مجموعة من الشعر الجيد الذي قاله ملوك المغرب وامراؤه من لدن الفتح إلى الآن .

4 ـ المنتخب من شعر ابن زاكور .
وهو مجموعة من شعر هذا الشاعر المغربي الرقيق مشكولة ومشروحة ومصدرة بترجمة له واسعة .

5 ـ شرح الشمقمقية لابن الونان .

6 ـ شرح مقصورة المكودي .
وهما أرجوزتان عامرتان من المطولات مشروحتان بقلم المؤلف ومصدرتان بترجمة ناظميهما .

7 ـ أحاديث عن الأدب المغربي الحديث .
وهي المحاضرات التي ألقاها المؤلف على طلبة معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة .

8 ـ ديوان ملك غرناطة ، يوسف الثالث .
وهو مجموعة شعر هذا الملك الاندلسي الذي عاش في أواخر أيام العرب في اسبانيا ، مع دراسة عن حياته وتعاليق وفهارس تفصيلية ، نُشر على نسخة وحيدة في ملك المؤلف .

9 ـ رسائل سعدية .
وهي مجموعة من الرسائل والظهائر السلطانية الصادرة عن ملوك الدولة السعدية في المغرب بأقلام كبار كتابها ، محقّقة مشكولة .

10 ـ كتاب التيسير في صناعة التفسير
لبكر بن ابراهيم الاشبيلي وكان يلي تسفير الكتب أعني تجليدها للملوك الموحدين وهو طرفة فنية في هذه الصناعة ، نشر مع مقدمة وتعليق مفيدة.

11 ـ سابق البربري .
بحث عن هذا الشاعر الذي نبغ في العصر الأموي وملأ الدنيا بشعره الحكمي البليغ وهو من أصل مغربي وكان مقرباً جداً من عمر بن عبد العزيز .

12 ـ ذكريات مشاهير رجال المغرب .
في العلم والأدب والسياسة وهي هذه التراجم ، صدر منها لحد الآن ثلاثون ترجمة كل ترجمة في حلقة مستقلة .

أبو بكر ابن شبرين

الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

AD 1994 - H 1414

دار الكتاب المصري

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة - ج.م.ع

ت: ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٣٤٣٠١ - ص.ب ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١

برقياً: كتامصر - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)

TELEX No: 23081-23381-22181-21881

ATT: MR.HASSN EL-ZEIN

FAX: (202): 3924657

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول

ت: ٨٦٠٧٩٢ - ٨٦١٥٦٣ - ص.ب: ٨٣٣٠ / ١١

برقياً «دكالبان»

TELEX: DKL 23715 LE

بيروت - لبنان

FAX (9611) 351433



17

أبو بكر ابن شبرين

بقلم
عبد الله كنون

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

أبو بكر ابن شبرين

أصله وسلفه – مولده – مشيخته – كفايته وأخلاقه – دخوله الأندلس وكتابته عن ملكها – ولايته القضاء – وفاته – آثاره – شعره – نثره – شبرين بالباء لا بالياء .



أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن علي بن شَبْرين (كذا عند ابن الخطيب في الاحاطة وعند النّباهي في المرقبة العليا بعد محمد الثالث بن أحمد بن شَبْرين الجُذامي القاضي المؤرخ الأديب البارع ، من أهل سَبْتة مُهاجر أبيه بعد استيلاء العدو على مدينة اشبيلية سنة 646 وكانت دارَهم من قبلُ وتقدم لهم بها سَلَفٌ كريم .

وولد أبو بكر في سبتة أواخر عام 674 ودرَج بها في مراقي النجابة وأخذ عن أعلامها البارزين منهم جدّه لأمه الأستاذ الامام أبو بكر بن عُبَيْدة الاشبيلي والأستاذ أبو اسحاق الغافِقي ثم سمع بغَرْناطة على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير

والخطيب أبي عبدالله بن رُشَيْد وبمالَقَة وبِجايَة وتُونس على كثير من المشاهير وأجازه غيرُهم من أهل المشرق ؛ فهذا الاتّساع في الرواية مع الأبوّة الكريمة من الطرَفين أخرج منه عالماً نبيهاً وأديباً نابغاً نافَس فحول النظم والنثر في عصره وتقلّب في المناصب العالية التي لم يكن يَليها إلا أهلُ الكفاية التامة من ذوي المعرفة الناضجة واللّباقة السياسية والخلق السجيح .

ودونكَ ما يقوله تلميذُه ابن الخطيب في الاحاطة واصفاً كِفايَتَه وأخلاقَه على العموم « كان فريد دهره ونسيج وحده في حُسْن السَّمْت والرّواء وكمال الظرف وجمال الشارَة وبراعة الخط وطيبِ المُجالسة وقوراً عظيم الأبّهة عذْبَ التلاوة لكتاب الله ، من أهل الدين والفضل والعدالة ، تاريخيا طُلَعة أخْبار أصحابه مُحقّقاً لما ينقله ، فَكِهاً مع وقار غَزِلاً لوْذعياً ، جميل العِشرة عَلِيّ شأن الكتابة أشدّ الناس (اقتداراً) على الشعر » الخ ما قال مما يفيد أنه كان مُكْثِراً منه جداً حتى عظُم ديوان شعره وان ميزانه في النثر ارجح .

وذكره في التاج والكَتيبَة بقوله : « خاتمة المُحْسِنين ، في هذه السنين ، وبَقيةُ الفُصحاء اللّسِنِين ، ملأ العيون هَدْياً وسمْتاً ، وصوْناً وصَمْتاً ، وسلك من الوقار طريقةً لا ترى فيها عِوَجاً ولا أمْتا ؛ ما شئت من كمال باهر ، وتألّق زُهر وتأرّج أزاهر ، ومُناسبة باطن لظاهر ، وبراعة أدوات ، وذات فضّلها الله على ذوات ، ان خطّ ، نزل ابنُ مُقْلَة عن درجته وانحطّ ، وأنْكرَ البَرْيَ والقَطّ ، وان نظم أو نثر ، تبعت البلغاءُ ذلك الأثَر ، وان تكلّم انصتَ الحَفْل لاستماعه وفرّغ لدُرره النفيسة صَدَف أسماعه » .

ومثل هذه الحلى ما قاله فيه القاضي النّباهي بل كاد يكون نقلاً عن الاحاطة ونصه : « وكان رحمه الله فريد دهره في حسن السمت وجمال الرواء وبراعة الخط وطيب المجالسة من أهل الدين والفضل والعدالة ، غاية في حسن العهد ومجاملة العشرة ، أشد الناس اقتداراً على نظم الشعر ، والكَتب الرّائق » .

وإذ كان بهذه المثابة من العلم والاقتدار ، فلا غَرْوَ أن يلي المناصب الكبار ، ويتلقاه رجال الدولة في الاندلس بمزيد الحفاوة والاعتبار كما قال ابن الخطيب : « قَدِمَ الاندَلس وذو الوزارة ابنُ الحكيم بُدير مَلكَها ، ويُنير حَلَكَها ، فانهض آمالَه ، وألقى له قبل الوسادة مالَه » ... الخ وكان قدومه للاندلس في سنة 705 حين استيلاء صاحب غرناطة على سَبْتة ونَقْلِه لروسائها وكرام عشائرها الى حضرة غرناطة فَوَلّي اولاً الكتابة السلطانية بتصدير الوزير ابن الحكيم ثم تصرّف في القضاء بجهات مختلفة من الايالة . محمود السيرة مشكور المسعى ، وان كان على ما يظهر من عبارة ابن الخطيب في الاحاطة لم يُواتِه الحظ دائما في هذه الولايات نعم تأثل المال والشهرة وجرى مجرى الاعيان والوجهاء ثم مات في ليلة السبت الثاني من شعبان عام 747 وخلف وفْراً لم يشتمل على شيءٌ من الكتب لإيثاره اقتناء النّقْدَيْن وعيّن جِرايةً لمن يتلو كتاب الله على قبره ، ودُفِن بباب البيرة في دار اتخذها لذلك رحمه الله رحمة واسعة .

وكما لم يُخلّف المترجَم كتُباً لم يُخلّف مؤلفات الا ما كان من ديوان شعره الكبير جدا المتعدد الاسفار وهو في حكم المفقود الآن ، ورسائلِه التي نظن انها لم تجمع ولا احتفظ معاصروه بالكثير منها وان كان هو كاتباً اكثرُ

منه شاعرا ، ويقول ابن الخطيب في ادبه على وجه العموم « وله الادب الذي تحلّت بقلائده اللبّاتُ والنحور ، وقَصرت عن جواهره البحور ».

على ان ناحية اخرى من نواحيه العِلْمية غيرَ الكتابة والشعر قد أهْمِلت ايضا وهي ثقافتُه التاريخية وقد وصفَه ابنُ الخطيب في الاحاطة بالمؤرّخ ، ومِن استقراء كثير من كتب التراجم كالاحاطة وغيرها نرى ان جملة من وفَيات العلماء والشخصيات الكبيرة انما حُفِظت ونُقِلت من خطه وذلك مما يدل على اطلاعه وحسن ضبطه .

ومن قول ابن قَطْرال فيه مجيباً له عن شعر خاطبه به :

زارت فأزرت بمسك دَارين تَفَنّنْ للحسن في أفانين
ومثلُها في شتى محاسنها ليست ببدع من ابن شَبرين

اما شعره فالنّبذ التي قرأناها منه تدل على طبع سليم وتمكن من الصنعة وحسن تصرف في الفنون الشعرية ونزوع في بعضه الى المعاني الصّوفية والدقائق الحكْمية ، وهذا النوع عليه مُسْحَة من الجمال الرّوحي تهزُّ المشاعر وتبعث على التفكير العميق فيما وراء المادة وعالم الغيب ومن هنا جاء احسانُه في الرثاء واكثارُه منه على ما تُشير اليه عبارةُ ابن الخطيب في اللمْحة البَدْرِية :

«وكان على ظَرْفه وحُسْن رُوائه غُرابَ نُدْبة ونائحةَ مأتم »فمن مَراثيه الشجية هذه التي قالها في بلَديّه العلامة ابن هانئ وقد استُشْهِد في حصار جبَل طارق :

قد كان ما قال البريد فاصبرْ فحُزْنُك لا يفيد
أودى ابنُ هانئْ الرضَى فاعتادني للثكل عيد

الى آخرها وقد ذكرناها في النبوغ المغربي ... ومنها مرثيته في الشيخ ابي جعفر الزيّات واولها :

أيساعد رائده الاملُ او يسمع سائله الطلل
ياصاح فديتك ما فعلت دمَنُ الاحباب وما فعلوا
فاجاب الدمع مناديَه أما الاحبابُ فقد رحلوا

ومنها ما رثى به سادسَ ملوك بني نصر وقد اغتيل في عنفوان شبابه ولاحِظْ كيف يدافع عنه التهَم التي رُمِي بها ويتولاه احسنَ الولاء وفاءً منه وحُسْنَ عهد قال :

إستَقلاّ ودعاني طائفاً بين المغاني
وانعَما بالصبر إني لا أرى ما تَريَاني
قُضي الامرُ الذي في شأنه تستفتيان
ومضى حكمُ إلاه ما له في الملك ثان
مات يوم السّلْم قعْصا مدره الحرب العوان
واستُبيح الملكُ ابنُ الملك الحُرّ الهجان
يا خليلي أعينا ني على شجْو عنَاني
واذكرا سابغةَ النّعمة فيما تذكران

واذا صابيتما يو مـاً عليه أذ"نان
ما علِمْنا غيرَ خير فاقْضِيا ما تَقضِيان
لا نُبالي ما سمِعْنا من فلان وفلان
غيرَ ما قالوا اعتقَدْنا وعليْنا شاهدان
وغداً يجمعُنا المو قِفُ من قاص ودان
ورضَى الله هو المطلوبُ في كل أوان
وأخو الصدق لعمري ذُو مقاماتٍ حِسان
وهَوى النفس عناء حائلٌ دون المعَاني
وعلى البغضاء يطوي ودّ إخوان الخوَان
بأبي واللهِ أشلا ءٌ على الرمل حَوان
بفتي ما كان بالوَا ني ولا بالمُتواني
يمزِجُ الماء نجيعاً وينادي : علّلاني
ليس بالهيّابة النّكّس ولا الغُمْر الهدان
ابيضِ الوجه تراه والرّدى احمرُ قان
ايُ سيف لضِراب اي رُمح لطِعان
ذو نجار خَزْرجي المنْتَمَى سامي المَكان
ذكرُه قد شاع في الا رض الى اقصى عُمان
لا تراه الدهرَ الا حِلْفَ سَرْج او عِنان
عن صَهِيل الخيل لا يُلـهيه تَعزافُ القيان

إن ألمّت هيْعةٌ طا رَ اليها غيرَ وان
يصرَعُ الليلَ بقلب ليس بالقلب الجبّان
يا لهَا من نَصْبة لو لا نحوس في القران
وشباب عاجَلُوه بالردى في العنفوان
لم يجاوز من سِنيه العَشْرَ الا بثَمان
دوّخ الاقطارَ غزْواً من هضاب ومحان
حكّموا فيه الظّبي اسرعَ من لمْح العيان
ان يكونوا غادَرُوه في الثّرى ملْقى الجران
تشرَبُ الارض دماً منه تهاداه الغَواني
وتُحيّيه بتَسليم ثغورُ الأقحوان
فالمَعالي اودعتْه بين سحْر ولَبان
وغوادي المُزْن يُرضعن ثَراه بلِبان
ضاع صرْحُ الثّغر لما أغمد السيف اليّماني
وأعيرَ الاسدُ السور دُ القَميص الأرْجُواني
عاطِيّاني اكوُسَ الحُزْ ن عليه عاطِيّاني
حملُه دون صلاة للثّرى مما شجاني(1)
أو ما كانُوا له يعد عُون اعقابَ الأذان
لا تُهِينُوه فما كا ن بأهْل للهوان

---

1) انظر القطعة الآتية بعد هذه القصيدة مباشرة .

عجبي والله من إبطان هذا الشنشان
انا مذ غاب فبالسا لي فؤاداً ما أراني
وبحسبي دعوات انا فيها ذو افتنان
بت أهديها اليه بعد ترتيل المثاني
ذلك جهدي إن احسا ن ابيه قد غذاني
فانا الشيعة حقا بفؤادي ولساني
أفأنسى ذلك العهد وليس الغدر شاني
ويقال الرشح موجو د قديماً في الأواني
وعهود الناس شتى من عجاف وسمان
وهي النعمة حقاً شكرها في كل آن
اتئد يا فارس الخيل فغير الله فان
والمعالي تطلب الثأ ر وتأتي بالأمان
وهي الارحام لا تنسى ولو بعد زمان
انت من رحمة غفا ر الخطايا في ضمان
وهو يوفي الخصم ان شا ء وزاناً بوزان
والذي افشى قبيحاً حظه عض البنان
سلم الله على من فيه ذو جهل لحاني
وجزاه بجهاد جاء منه ببيان
ربنا انت خبير بخفيات الجنان

ويــداك الــدهرَ فينــا بــالنّــدى مبسوطتــان
ومجــال العفو رحــب والرضى غضٌ المجــاني
فتغمّدْنــا بــرُحمىَ وقَــبُول وأمــان
واجمــع الشمــلَ عــلى افــــضل حــال في الجنــان

ومن المعاني البديعة في عكس الأغراض قوله :

عيْنِ بكّي لميّت غادروه في ثَراه مُلقىً وقد غَدرُوه
دفَنُوه ولم يصــلّ عليــه احدٌ منهــم ولا غسّلُوه
انمــا ماتَ حين مات شهيداً فأقامُوا رسْماً ولم يقصدوه (1)

ومن رثائه لوالد المذكور وهو الخامس من ملوكهم :

عزّ العَزاءُ فمــا الذي نُبديه في الحزن الا بعضُ ما نُخفيه
يا ايهــا الغادي يحثّ قَلوصَه إيهِ عن الخبرِ المُرجّم إيــه
أوْدَى اميرُ المسلمين فكيــف لا نأسى عليــه وكيف لا نبكيه
قد كان للاسلام عيْنَ بَصيرة فاصابت الاسلامَ عينٌ فيــه

وقال على لسان الثالث منهم بعد خلْعِه واستقراره بقصبة المنَكّب مُغرّباً

---

1) يعني دفنه دون غسل ولا صلاة كما يدفن الشهداء .

والمترجم يومئذ والي احكامها وقد جرت بينهما مودة اكيدة بحيث طلب المذكور منه ان يُعبر عن حاله شعرا :

قفا نفَساً فالخطبُ فيه يهون ... ولا تَعجلا ان الحديث شُجون

علِمْنا الذي قد كان من صرف دهرنا ... ولم تَعلما هذا الذي سيكون

ذكرْنا نعيماً قد تقضّى نعيمُه ... فأقلقنا شوقٌ لـه وحنين

وكنّا بأمس كيف شئنا وللدّنا ... حَراك على احكامها وسكون

واذْ بَابُنا مثوى الغوادي ونحوَنا ... تُمدّ رقاب او تُشير عيون

فنُغّص من ذاك السرور مُهنّاً ... وكُدّر من ذاك النعيم مَعين

وبنّا عن الاوطان بينَ ضرورة ... وقد يغرُب الانسان ثم يَبين

ايا معهدَ الإيناس حُيّيت معهداً ... وجادك من سيب الغمام هتون

تُريد الليالي ان تُهينَ مكانَنا ... رُوَيْدك إن الحرّ ليس يهُون

فان تكُنِ الايام قد لعِبَتْ بنا ... ودارت علينا للخطوب فنون

فمن عادة الايام ذلّ كرامها ... ولكنْ سبيلُ الصابرين مُبين

لئن خاننا الدهرُ الذي كان عبدَنا ... فلا عجَبٌ ان العبيد تَخُون

وما غضّ منا مَخبَرَ غير اننا ... تضاعفَ ايمانٌ وزاد يَقين

وقَفْنا على فضل الاله ظُنونَنا ... وفي فضل ربي ما تَخيب ظنون

وله ايضاً في رثاء الوزير ابن الحكيم الذي اخذ بِضبْعِه وكان السبب في اعلاء قدره ورفعه ، وهي :

سقى اللهُ أشلاءً كرُمْن عن البِلا ... وما غضّ من مقدارها حادثُ البَلا

وبما شجاني أن أُهين مكانُها — وأُهمِل قدر ما عهدناه مُهمَلا
الا اصْنَعْ بها يا دهرُ ما انت صانع — فما كنتَ الا عبدَها المتذلّلا
سفكْتَ دماً كان الرّقُوء نَوالَه(1) — لقد جئتَها شنعاءَ فاضحةَ المَلا
بكفّي سَبَنْتَى ازرق العين مُطرقٍ — عَدا فغدا في غيلِه مُتوغّلا
لنِعْم قتيلُ القوم في يوم عيدِه — قتيلٌ تُبكّيه المكارمُ والعلا
الا إنّ يومَ ابن الحكيم لمُثكِلٍ — فؤادي فما ينفكّ ما عِشتُ مثْكلا
فقدناه في يوم اغرّ مُحجّلٍ — ففي الحشر نلقاه اغرّ محجّلا
سمتْ نحوَه الايامُ وهو عميدُها — فلم تشكُر النُعمى ولم تحفظِ الوَلا
تعاورت الاسيافُ منه ممدّحاً — كريماً سما فوق السّماكَين مرجلا
وخانتْه رجلٌ في الطواف به سعت — فناءَ بصدر للعلوم تحمّلا
وجُدّل لم يحضُره في الحي ناصر — فمن مُبْلِغُ الأحياء أن مُهلهِلا(2)
يدُ الله في ذاك الأديم مُمزّقاً — تُبارِكُ ما هبّت جنوباً وشمألا
ومن حزَني ان لست اعرف مُلحَداً — له فأرى للتّرب منه مقبّلا
رُوَيْدَك يا مَن قد غدا شامتاً به — فبالامس ما كان العمادَ المؤمّلا
وكنّا نغادِي او نُراوِحُ بابَه — وقد ظلّ في اوْج العُلا متوقّلا

---

1) رقوء الدم انقطاعه بعد جريانه والاسم بالفتح ومنه لا تسبوا الابل فان فيها رقوء أي حقنه والمراد انه كان يحقن الدماء بعطائه .

2) مأخوذ من قول مهلهل بن ربيعة محرضاً على الأخذ بثأره ممن قتله :

من مبلغ الحيين ان مهلهلا — أمسى قتيلا في الفلاة مجدلا
لله دركمـا ودر أبيكمـا — لا يبرح العبدان حتى يقتلا

ذكرناهُ يوماً فاستهلّت جفونُنا بدمع اذا ما أمحلَ العامُ أخضلا
ومازّج منه الحزنُ طولَ اعتبارنا ولم ندر ماذا منهما كان اطوَلا
وهاجَ لنا شجْواً تذكّرُ مجلسٍ له كان يهدي الحي والملأ الألى
به كانت الدنيا تؤخر مُدْبِراً من الناس حتماً او تُقدّم مُقبِلا
لِتَبْكِ عيونُ الباكيات على فتىً كريم اذا ما اسبغَ العُرف اسجلا
على خادِم الاثار تُتْلَى صحائفاً على حامل القُرآن يُتلى مُفصّلا
على عضُدِ الملك الذي قد تضوّعت مَكارِمُه في الارض مِسكاً ومندلا
على قاسِم الاموال فينا على الذي وضَعْنا عليه كلّ إصْر عَلّي على.
وأنّــى لنا مِن بعده مُتعللٌ وما كان في حاجاتنا مُتَعلّلا
الا يا قصير العُمْر يا كاملَ العُلا يميناً لقد غادرت حُزْناً مُؤثّلا
بسوء المصلّى أن هلكتَ ولم تُقَم عليك صلاةٌ فيه يشهدُها المَلا
وذاك لان الامرَ فيه شهادةٌ وسُنَّتُها محفوظــةٌ لن تُبَدّلا
فيا ايها الميْتُ القديم الذي قضى سعيداً حميداً فاضلاً ومفضّلا
لِتَهْنِك من رب السماء شهادةٌ تُلاقي ببُشرى وَجْهَك المتهلّلا
رثَيْتُك عن حُبّ ثوى في جوانحي فما ودّعَ القلبُ العميدُ وما قلا
ويا رُبّ مَن اوليتَه منك نعمة وكنتَ له ذُخراً عتِيداً وموئلا
تناساك حتى ما تمرّ ببالــــه ولم يدّكر ذاك النّدى والتفضّلا
يُرابِض في مثواكَ كلَّ عشية ضَفيفَ شِواء او قَديراً معجّلا
لحَى اللهُ من ينسى الاذمّة رافضاً ويَذْهَل مهما اصبح الامرمشكلا
حنَانَيْك يا بدر الدجى فلَشَدّما تركتَ بُدورَ الافق بعدك أُفّلا

وكنتَ لآمالي حياةً هنيئـــة فغادرتَ مني اليوم قلباً مُقتّلا
فلا وابيكَ الخيرِ ما انا بالذي على البُعْد ينسى من ذمامك ماخلا
فأنت الذي آويتَني مُتغرّباً وانتَ الذي اكرمتني مُتطفّلا
فآليتُ لا ينفكّ قلبي مكمَداً عليك ولا ينفك دمعي مُسبَلا

وترى آية الوفاء ايضاً في هذه القصيدة مُسجّلة على المترجم من حسن العهد وكرم الصحبة ما يزيد به قدرُه ارتفاعاً ونجمُ ذكره التماعاً ، ولذلك ثبت بعدها بخط ابن لسان الدين هذه الجملة « شكرَ اللهُ وفاءَك يا ابن شبرين وقدّس لحدَك واين مثلُك في الدنيا حُسْناً ووفاءً وعِلْما » .

ومن مراثيه الإخوانية هذه التي قالها في صديقه ابي بكر البَلَوي وهي مُركّزة على التنويه باخلاقه الحميدة فكأنها مرآة تعكس ما كان لصاحبها من هُيام بالمثُل العليا قال :

يا عَيْنُ سحّي بدمع واكفٍ سربٍ لحامل الفضل والاخلاق والادب
بكيتُ اذ ذُكِر الموتى عل رجل الى بَلِيٍّ من الاحياء منتسب
على الفقيه ابي بكر تضمّنَـــه رمسٌ واعْمَل سيْراً ثم لم يؤب
قد كان لي منه ود طاب مَشرَعُه ما كان عن رغَب كلا ولا رهب
لكن ولاءً على الرحمن مُحتَسباً في طاعة الله لم يُمذَق ولم يُشَب
فاليومَ اصبح في الاجداث مُرتهَناً ما هزّت الريح أملوداً من القُضب

إنّا الى الله من فقد الاحبة مـــا ... اشدّ لذْعاً لقلب الثاكل الوَصِبِ
مَن للفضائل يُسْديها ويُلْحِمها ... مَن للعلى بين موروث ومُكتَسَب
قل فيه إمّا تَصِفْ رُكْناً لمُستنِد ... روضاً لمنتجِع أُنساً لمُغْتَرِب
باقٍ على العهد لا تَثْنيه ثانيَةٌ ... عن المكارم في وِرْدٍ ولا قُرُب
سهْل الخَليقة بادي البِشْر منبسط ... يلقي الغَريب بوجه الوالد الحَدِب
كم غيّر الدهر من حال فقَلّبها ... وحالُ اخلاصه ممتدةُ الطّنُب
سامي المكانة معروفٌ تقدّمه ... وقدْرُه في ذوي الاقدار والرّتب
أكرِمْ به من سجايا كان يحملُها ... وكلّها حسن ينبيك عن حسب
ما كان الا من الناس الألى درجوا ... عقلا وحلماً وجُوداً هاميَ السّحب
امسى ضجيعَ الثرى في جنْب بَلْقعة ... لكن محامده تبقى على الحقُب
ليست صبابةُ نفسي بعده عجباً ... وانما صبرُها من اعجب العجب
اجاب دمعيَ اذْ نادى النّعيّ به ... لو غيرُ منعاه نادى الدمع لم يجب
ما اغفل المرءَ عما قد أُريد به ... في كل يوم يناديه الردى اقتَرِب
يا ويْحَ نفسي لأنْفاس مضت هَدراً ... بين البطالة والتسويف واللعب
ظننتُ انيَ بالأيام ذو هُـــزءٍ ... غلِطْت بل كانت الايام تهزأ بي
اشكو الى الله فَقْري من مُعاملة ... لله انجو بها من موقف العطب
ما المالُ الا من التقوى فأفلَح من ... جاء القيامة ذا مال وذا نشــب

* * *

أبا ابا بكر الارضى نداءَ اخ … باكٍ عليك مدى الايام مكتئب

اهلا بقَدمتك الميمون طائرها … على محل الرضى والسهل والرّحب

نَمْ في الكرامة فالاسباب وافرة … وربما نِيلت الحُسنى بلا سبب

لله لله ! والآجال قاطعـــة … ما بيننا من خِطابات ومن خُطب

ومن فرائد آداب نحبّـــرها … فنَودع الشهبَ افلاكاً من الكُتب

أما الحياة فقد مللتُ مدّتهـــا … فعوّضَ الله منها خير منقلب

لولا قواطعُ لي اشراكها نُصبَت … لزرتُ قبرك لا اشكو من النصب

وقلّما شُفيت نفس بزورة من … حلّ البَقيع ولكن جهدُ ذي ارب

يا نُخبةً ضمها تُرْبٌ ولا عجب … إن التّراب قديماً مَدفَن النُخَب

كيف السبيلُ الى اللّقيا وقد ضربوا … بيني وبينك ما يُعيى من الحجب

عليك مني سلامُ الله يتبعـــه … حسنُ الثناء وما حييت مِن كَثَب

ومن نظم ابن شبرين في السوانح الغرامية والمواعظ الدينية :

ظعَن الصِّبا ومن المُحال قفُوله … ان كنتَ باكِيَه فتلك طلُوله

قف عندها خيلَ الدموع ورجْلهَا … واندُب شباباً شطّ عنك رحيله

نزحت (بثينته) و (ليلاه) معاً … فبكى المعاهد (قيسُه) و (جميلُه)

رعْياً لجيراني وللظـــل الـــذي … قد كان يجمعُنا هناك ظليلـــه

حاذي ديارُهم فمثّلهـــم بها … ان المتيّم شأنه تمثيلـــه

واندُب اخلاءَ المُصافاة الالى … فلربما ندب الخليلَ خليلُـــه

عهد أُحيلت حالهُ فاليوم لا … معقولُه منا ولا منقولُـه

أشْجَاك مجتمَعٌ عفت آياته … وتعاورته شَمـالُه وقَبولَهْ

قد كنت تصغُر عن سِني فِتْيانه … فاليوم تصغر عن سِنيك كهُولُه

ولَقلّما تبقى الرسوم فويْحَ مَن … الهاه مِن هـذا المتاع قليلُه

لا يأمنَن ذو مُهْلة فكأنْ بـه … قد يمّمتْ دار المقام حمُوله

ما كان ماضي العيش الا خطرةً … خطَرت ووقتاً قد تتابع جِيله

أسفاً على زمَن كريم عهـدُه … ولّتْ غضارتُه وغاب سبيله

ضيّعتَ في طلب الفضول بكورَه … لكن ندمتَ وقد اتاك اصيلـه

دع عنك تذكارَ الصّبا ان الصبا … رسم يَهيج لك الغرام مَحِيلُه

يا مَفْرقاً نزل المشيبُ به اتئد … فالحر لا يوذَى لديه نزيلُـه

لم يعتمد شيبٌ محلة لِمّـة … سوداءَ الا والحمامُ زَميله

قد كان أُنسي في الشباب فصدني … وابى عليّ وصالُه ووصوله

فعليك يا أُنسي تحيةُ مُقْصِر … طاحت على اللذات منك ذُحوله

حسْبي اذا رمت الانيس مونسٌ … من ربنا سبحـانـه تنزيلُه

تبدو الحقائق لي اذا رتلتُـه … يا حبّذاه وحبذا ترتيلـه

يبلى الزمان وما يزال مُجدّداً … لا نصّه يبلَى ولا تأويلـه

اعظم به للمومنين مفصّلاً … فَرّقَ الضلال من الهدى تفصيلُه

نالَ الهُدى والبِرّ حاملُـه كما … نال الكرامة والعـلى محمولُه

ادى امانتَه امين ناصـح … في السِّدْرة العلياء طاب مَقيلُه

روعاه عنه مصطفى متـخيّـر ... صحت رسالته وصُدّق قيلُه

فلشدّ ما قد احسنا في امره ... هذا (محمّده) وذا (جبريلُه)

للقانتين به زئيرٌ كلمـا ... مُدّت من الليل البهيم سدولُه

كم تحت هذا الليل من متـململ ... متملّق خرّق الحجاب عويلُه

من كل من راقت اسرة وجهه ... وحلا له بين الانام خمولُه

ذي مشية هوْن وبُرد منهـج ... وعلى المقامات العلى تعويلُه

رفض الوجود ولم يُبال برزقه ... لِمَ لا ومولاه الغني كفيلُه

لله منه في الدّجُنّة وقفـة ... هبّ النسيم لها فرّقّ بليلُه

فاذا الصباح بدا طوى منشوره ... صوْناً لسر والجهول يزيلُه

يا حاضراً عندي وليس بجائز ... ادراكه ان العيون تحيلُه

يا غائباً عن ناظريّ ولم يغب ... احسانُه عني ولا تنويله

يا واحداً حقاً وليس بممكـن ... تشبيهُه كلا ولا تخييلُه

انا ذلك العبدُ الظلوم لنفسـه ... زلّت به قدم وانت مقيلُه

ومنه في هذا الصدد :

يا ليت شعري وهل يجدي الفتى الطمع ... هل بعد مفترق الاحباب مجتمع

جزعت اذ قيل سار القوم وانطلقوا ... وليس يُنكر في امثالها الجزع

حاز الاسى بعدهم صبري بجملته ... لا النّصف فرضيَ منه لا ولا الربع

رُدّوا على فؤادي انني رجـل ... بالعيش بعد فؤادي لست انتفع

وعللوني بأخبار العُذَيْب فلي ... على العذيب اسى للصبر ينتزع

جارت عليّ النوى في حكمها وعدت ... فكُلّف القلب منها فوق ما يسع

فمن رأى ليَ سِرباً عند كاظمة ... كادت عليه حَصاةُ القلب تنصدع

قرينُ انسي في دار الغرام ثوى ... فيا نعيم الهوى هل انت مُطّلع

وايّ أنس لناءي الدار مغترب ... ولت على رغمه لذّاتُه جُمَع

يا حبذا منزل بالغَوْر تندبه ... وحبذا فيه مصطافٌ ومُرتَبَع

وحبذا ذلك الوادي المقدس اذ(1) ... سالت مَذّانبُه فالرّي والشِبَع

وحبذا وقفةٌ لي عند شاطئه ... طوراً اقوم وطوراً عنده أقَع

يا تلعةً اخضلت ماءً جوانبُها ... هل فيك للطارق المجهود مُنتَجع

ويا شباباً ذوى هل كرة ابداً ... ويا خليطاً نأى هل انت مُرْتَجَع

اذا تذكرت ايامي فَحَيّهلاً ... بالدمع ينصبّ والأنفاس ترتفع

خزَعْبِلات صِبى مرت واهل هوىً ... مرُوا فلا رجعت يوما ولا رجعوا

فلو رأيتَ رسوم الدار ماثلة ... ينتابها الظّبي أو يغتالها السّبع

انكرتَ ماكنتَ قبل اليوم تعرفه ... واخبرتْك الليالي انها خُدَع

آه على صَبْوة جاد الزمان بها ... وكلّ انس لايام الصبا تَبَع

ما أسأرت غيرَ اشواق وغير اسى ... يَحُثّه ندم يشقى به لُكَع

سُرعان ما رِيع ذاك السّراب واأسفى ... فاليوم لا سُبع فيه ولا رُبع

قوم جميع على حكم النوى نزلوا ... لم يغن ما أنفوا قِدْماً وما جمعوا

---

1) كذا بالأصل ولعل الصواب ان .

واي حال على الايام باقيــــة ... فبادر السير واعلم انها قُلَع
عادوا حديثاً وعادت دارهم طلَلا ... كأنهم في عِراص الدهر ما ربَعوا
ألبِي الزمان عليهم خِلعة حسُنَتْ ... لكن على عجَل ما ابتُزّت الخُلَع
حتّى مَ انت على دنياك معتكِفٌ ... اما تُغصّلك منها هذه الجُرَع
ما ضرّ لما رأيتَ الصالحين بهـا ... لو كنت تقنع منها بالذي قنِعوا
جازوا عليهم (1) فلم يستهوهم عرَض ... ولا المّ بهم حرص ولا جَشَع
فكلما عرضت دنيا لهم نفروا ... وكلما ذكروا مولاهم خشَعوا
طوبى لهم فلقد قرّ القرار بهم ... في مستقَرّ نعيمٍ ليس ينقطع

ومن مقطوعاته البديعة :

أخذتِ بكَظْم الروح يا ساعةَ النوى ... واضرمتِ في طي الحشا لاعج الجوى
فمن مُخبري يا ليت شعري متى اللقى ... وهل تُحْسِن الدنيا وهل يرجع الهوى
سلا كلّ مشتاق واقصَر وجـده ... وعند اللوى وجْدي وفي ساكني اللوى
ولي نيةٌ ما عشتُ في حفظ عهدهم ... الى يوم ألقاهُم وللمرء ما نوى

وقال ايضاً :

متى تسمَح الدنيا بقربكُم متى ... لقد عاث هذا البينُ ظُلْماً وعنّتا
الا قبّح اللهُ الفراقَ فانــه ... لأصعب ما يلقاه من دهره الفتى

---

1) كذا ولعل الصواب عليها .

أفي كل يوم رحلةٌ بعد رحلةٍ   لقد اتعبتنا رحلةُ الصيف والشتا
وكنت أُرى ذا قوة وشبيبـــةً   ولكن تولتني الليالي فولّتـا
وكيف احتمالي ذاك والركن قدهوى   وهذا مَشيبي بالحِمام مبكّتا

وقال ايضاً :

هل ترجِعَنّ لي الايام هيهاتـا   سُرعانَ ما صَدَّرَ الاحباب أشتاتا
لهفي على ما تقضّى من عهودهم   فانما كُنّ للأفراحِ ميقاتا
ارجو لقاءَهم والحال ينشدني   هيهات يرجع في دنياه من ماتا
هانت على نفسيَ الأرزاءُ بعدهم   فلست آسى على شيء وان فاتا

ومن نسيبه قوله :

مُنتهَى مطلبي واقصى مرامي   نظرةٌ منك قبل يوم الحِمام
لم أسِغْ مذ نَزَعْتَ عني ، شرابي   يا حبيبي ولا استطبت طعامـي
ظلمتْني فيك النّوى ايّ ظلـم   وامتحى نورُ وصلنا بظلام
فسلام على السرور فما كــا   ن سوى الحُلم غرّني في المنام

ومن مليح غرامياته :

يا من اعاد صباحي فقدُه حلَكاً   قتلت عبدك لكن لم تخف دَرَكا

مُصيبتي منك ليست كالمصائب لا — ولا بكائي عليها مثل كل بُكا
فمن أطالب في شرع الهوى بدم — لحْظي ولحظك في دمي قد اشتركا

وقال مقتبساً :

لي همّةٌ كلما حاولت أُمسكها — على المذلة في أوحال ارْضيها
قالت ألم تكُ ارضُ الله واسعةً — حتى يهاجرَ عبدٌ مومن فيهـا

وقال مستوحشاً من شيبه :

قد كان عيبي قبلُ في غيْب — فمـنذ بدا شيبي بدا عيبي
لا عذرَ لي اليوم ولا حجـةٌ — فضحتني واللهِ يـا شيبـي

وقال مشفقاً من ذنبه :

أثقلَتْني الذنوب وَيْحي وَوَيْسي — ليتني كنت زاهداً (كَأُوَيْس)
إنما اصلُ محنتي حبّ دنيـا — هي(ليلى) ولي بها وجدُ (قيس)

ومن عجيب قوله في الاعتذار عن بَرْد غرناطة :

رعَى اللهُ من غَرناطةٍ مُتبوّأً — يسرّ كئيباً او يُجيرُ طريدا
تبرم منها صاحبي عند ما رأى — مسارحها بالبَرْد عُدن جليدا
هي الثّغرُ صان الله من أهلَت به — وما خيرُ ثغر لا يكون بَرُودا

وله هذان البيتان المشهوران ونختم بهما شعره :

الاَ يا مُحِبَّ المصطفى زد صبابةً وضمّخ لسانَ الذكر دأباً بطيبه
ولا تعبأنْ بالمُبْطليـن فأنما علامةُ حب الله حـبُّ حبيبه

وقد ذيلها جماعة من اهل العلم والادب من المعاصرين فقال ابو الحسن بن الجيّـاب :

فمَن يعمُر الاوقات طرا بذكره فليس نصيب في الهدى كنصيبه
ومن كان عنه مُعرضاً طولَ عمره فكيف يُرَجِيه شفيـع ذنوبه

وقال ابو القاسم بن ابي العافية :

أليس الذي جلى دُجَى الجهل هَديه بنور أقَمْنا بعده نهتدي بـه
ومن لم يكن من دأبه شكرُ منعمٍ فمشهَدُه في الناس مثلُ مغيبه

وقال ابو بكر بن أرقم :

نبي هدانا من ضلال وحـيرة الى مُرتقى سامي المحلّ خَصيبه
فهل ينكر الملهوف فضل مُجيره ويَغمط شاكي الداء شكرَ طبيبه

وقال الخطيب ابو محمد بن ابي المجد :

ومن قال مغروراً حِجابُك ذكره فذلك مغمور طريدُ عيوبه
وذكرُ رسول الله فرض مؤكد وكل محق قائل بوجوبه

فهذه نبذة صالحة من شعره لا يبقى معها مجال للتردد في الحكم بنبوغه وعبقريته ، واما النثر فَبِرغم شهادة ابن الخطيب له بانه كان سابقاً بميدانه راجحَ الكفة فيه على النظم فاننا لا نستطيع ان نحكم فيه بشيء لِنُدرة ما بيدنا منه وانما نقدم للقارىء — كنموذج منه — هذه الرسالة التي كتبها الى ابي الحكم بن مسعود ، وهو شاهد بالمواريث ، يُداعبُه فيها مُداعبةً تستخف الوَقور ، وتلِجُ السمعَ الموْقور :

«اطال الله بقاءَ أخي وسيدي لاهل الفرائض يُحسِن الاحتيال في مُداراتهم ، وللمنتقلين الى الدار الآخرة يأمر بالاحتياط في امواتهم ، ودامت اقلامه مشروعة لِصَرْم الاجل المُنسأ ، مُعَدّة لتحليل هذا الصنف المنشأ من الصلصال والحمأ ، فمن ميت يُغسَل وآخر يُقبَر . ومن اجل يُطوى وكفن يُنشَر ... فكلما خَرِبت ساحة ، نشأت في الحانوت رَاحة ، وكلما قامت في شِعْب مَناحة ، اتّسعت للرزق مِساحة ، فيباكر سيدي الحانوت وقد احتسى مرقته ، واسبَل عنفقته ... فيلحظ هذا برفْق وينظر الى هذا شزْراً ، ويأمر بشقّ (الجيوب) تارة والبحث عن (المناطق) أخرى ، ثم

يأخذ القلمَ اخذاً رفيقا،ويقول وقد خامره السرور رحم الله فلاناً لقد كان لنا صديقا،وربما واراه بالازعاج الحثيث،وقال مستريح كما جاء في الحديث،وتختلف عند ذلك المراتب، وتتبين الاصدقاء والاجانب، فينصرف هذا وحظه التهديد، والنظر الحديد، ثم يغشى دارَ الميْت، ويسأل عن الكيت والكيْت، ويقول علي بما في البيْت، اين رِعاء الثاغية والراغية، اين عُقُود الأملاك بالبادية، قد كانت لهذا الرجل حال واي حال وقد ذُكِرَ في الاسماء الخمسة فقيل ذو مال، وعيون الأعوان ترنو من خَلل، واعناقُهم تشرَئبّ الى ما خلف الكللَ، وارجُلهُم تدِبّ الى الأسْفاط دبيب الصَقْر الى الحجَل، والموتى قد وجَبت منهم الجنوب، وحضر الموروث والمكسوب، وقيّد المطعوم والمشروب وعُدّت الصّحاح، ووزن بالارطال وكيل بالاقْداح، والشهود يُغلِظون على الورثة في الأليّة، ويسيئونهم بالسّباب في النشأة الاولية، والروائح حينئذ تفغَم الارض طِيبا،وتهدي الى الارواح شذا يفعل في الابدان فعلا عجيبا، والدلاّل يقول هذا مفتاح الباب، والسمسار يصيح قام النداء فما تنتظرون بالسباب، والشاهد يصيح فتعلو صيحته، والمشرف يشرف فتسقط سُبْحَتُه ... ثم يشرع في تقسيم الفرض،ولو أكفِئت السموات على الارض، ويقول لاهل السّهام، احسنوا فالاحسان ثالث مراتب الاسلام، وقد نص ابن القاسم على أخذ اجرة القسّام وسوّغَه اصبَغُ وسَحْنُون، ولم يختلف فيه مُطَرّف وابنُ الماجِشوُن ولعل الخروج الى الانبساط يجرُ عذْرا، ونسأل الله حمدا يوجب المزيد من نعمائه وشكرا، ولولا ان أعقِل عن

الخصم،واثقل رحلَ الفقيه ابي النجم،لتوسعنا في المجال شرحا،ولكان لنا في بحر المباسطة سبحا[1] . ولأفضْنا في ذكر الورّاث ، وبينّا العلة في اقسام الشهود مع المشتغل بنسبة الذكور مع الاناث ، والله يصل عز اخي ومجدَه ، ويهبُ له قوة تخصه بالفوز عنده ، ويزيده بصيرة يتبع بها الحقوق الى اقصاها ، وبصرا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ودام يحصي الخراريب والفلوس والاطمار ، ويملأ الطوامِر بأقلامه البديعة الصنعة ويقرِن الطوُمار بالطومار» .

وعلى كل حال فما تصدُر هذه الرسالة الا من متمكن في صنعة الانشاء متفنن في ضروب الكلام حلو التندير بديع التنكيت والعجب من اجادته في هذا الباب وباب الرثاء وهما نقيضان . وذلك مما يعرف به علُوّ كَعْب الرجل ورسُوخُ قدمه رحمه الله .

ومن آثاره النثرية ايضا ما كتب به الى صديقه ابي عبد الله محمد بن عمر المليكشي وهو معتقل بقصبة بجاية يُسلّيه عقِبَ شعر : «لا غرو ان وقع تَوان ، او تلوّم دهرٌ ذُو ألوْان ، فالامر بين الكاف والنون ، ومن صبر لم يبُؤْ بصفقة المغبون ، وللسعداء تخصيص ، ومع التقريب تمحيص ، وما عن القضاء مَحيص ، والمتصرف في ملكه غير معتُوب ، وقديم

1) المقام للرفع لا للنصب كما لا يخفى ، ولعل أصل الفقرتين : لتوسعنا في مجال الشرح. ولكان لنا في بحر المباسطة سبح .

الحقيقـــة الى الحيْف ليس بمنسوب ، وقد ورد خطاب عمادي اطاب الله محْضره، وسدد الى المرامي العلية نظره ناطقا بلسان التفويض سارحا من الرضى في الفضاء العريض، لائذا بالانقياد والتسليم، قائما على أسكُفّة باب الادب لمثابة حُكم الحكيم » الى ان يقول :

«والوقائع عافاكم الله وُعّاظ ، ونحن هُجُود وفي الحي ايقاظ ، وما كل المعاني تؤدّيها الالفاظ ، وهذا الفناء الذي نشأ عن الوقت هو ان شاء الله عين البقيا واذا احب الله عبدا حماه الدنيا ، وما هي الا فتُون ، وجنُون فنون ، وحديث كله شجون ، وقد يجمع الله الشّتيتيّن ،ولن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْن، فلا بأس ، ويا خطب لا مِسَاس وابعد الله اليأس ، وانما يوفي الاجر الصابرون ولا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ».

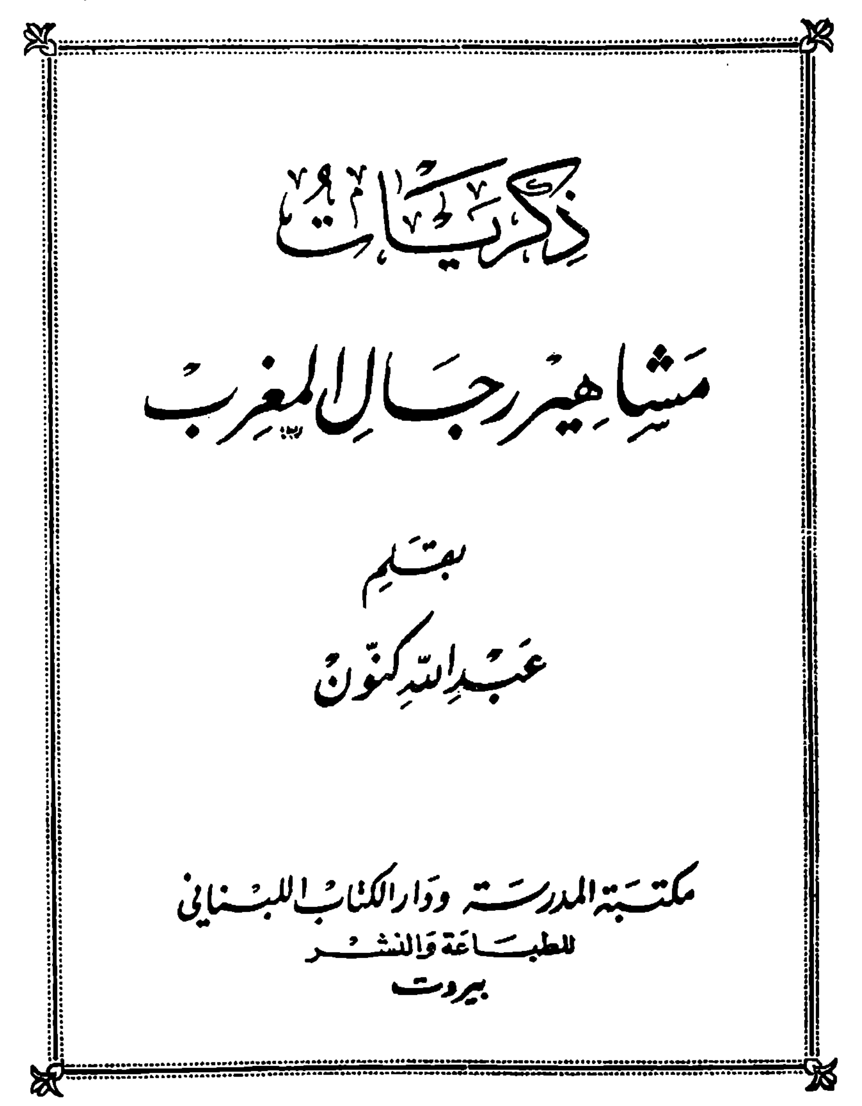
قال ابن الخطيب «وهي طويلة بديعة » وفي نظرنا ان هذا الذي رأيناه من نثره ، لا يفوق كثيرا شيئا من شعره ، فهُما لديه فرسَا رِهان ، كلما ركب احدَهما جلى في الميدان .

وبعد فقد كتبنا ابن شبرين بالباء على ما هو الصحيح فيه وهو الواقع في غالب الكتب، الّتي ذكرته كاللمحة البدرية وهي مصححة على عدة نسخ والكتيبة الكامنة في ذكره وذكر ابن اخ له وهي مخطوطة والصلة لابن بشكوال طبع

كديرة ، والتكملة لابن الابار طبع ابن ابي شنب وبل ، كلتيهما في ذكر جده ابي عبد الله ومخطوطة الاحاطة ، والنفح والاحاطة المطبوعين في مواضع منهما وفي مواضع اخرى كتب شيرين بالياء ومن حيث ان هذين الكتابين غير مصححين فانا نجزم بان كتابته بياء بعد الشين انما هي تصحيف مطبعي لاغير ، وقد غلط من قلد هذا التصحيف من العصريين والعلم كله لله .



المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المكتبات المدرسية



ذكريات
مشاهير رجال المغرب

بقلم

عبد الله كنون

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني
للطباعة والنشر
بيروت

طبع على مطابع دار الكتاب اللبناني
رأس النبع - بيروت هاتف: ٢٥٨٧٠

18

ابن رشد

ابن رشيد

اسمه ونسبه ـ مولده ـ طلبه للعلم وتفوقه في صناعة الحديث ـ رحلته إلى المشرق ثم رجوعه إلى بلده ـ شخوصه إلى غرناطة وتوليه بها المناصب المختلفة ـ اجادته للخطابة ـ تألب الفقهاء عليه لأخذه بالسنة ـ محنته وانتقاله إلى المغرب ـ استقراره بفاس في كنف السلطان ـ وفاته ـ كتبه ـ رحلته ملء العيبة ـ فوائد منها .

ابو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن ادريس بن سعيد بن مسعود بن حسن بن محمد بن عمر بن رشَيْد الفِهْرى السَّبْتي الخطيب المحدث، الرحّالة المتبحّر في علوم الرواية والاسناد ، يعرف بابن رُشَيْد مصغرا ويُلَقّب من الالقاب المشرقية بمحب الدين .

ولد بسَبْتَة عام ٦٥٧ ودرس بها على الاستاذ ابى الحُسَيْن بن ابى الربيع النحوى كتابَ سيبويه والقراءات السَّبْع ، ثم توسع في الاخذ عن غيره بافريقية والاندلس،ورحل الى المشرق فزادت روايته اتساعا،وادرك جِلّة من مشائخ مصر والشام والحجاز ، فروى عنهم وانقلب الى بلاده يتفجر علما وادبا ويطاول

الشيوخ فضلا عن الاقران بعلو روايته وصحة سنده .

وكان مشاركا في العلوم ، الا انه أرسخُ قدما في العربية والادب وعلم الحديث ، وصفَه ابن خلدون في تاريخه بكبير مَشْيَخة المغرب ، وسيد اهله ، شيخ المحدثين الرحالة . وقال فيه ابن الخطيب : «كان رحمه الله فريد دهره عدالة وجلالة وحفظا وادبا وسَمْتا وهَدْيا ، واسع الأسْمِعَة ، عالى الاسناد صحيح النقل ، اصيل الضبط ، تام العناية بصناعة الحديث قيّما عليها بصيرا بها ، محققا فيها ، ذاكرا للرجال ، جمّاعة للكتب ، محافظا على الطريقة مضطلعا بغيرها من العربية واللغة والعروض ، فقيها اصيل النظر ، ذاكرا للتفسير ، ريان من الادب حافظا للاخبار والتواريخ ، مشاركا في الأصْلين ، عارفا بالقراءات عظيم الوقار والسكينة ، بارع الخط حسن الخلق كثير التواضع ، رقيق الوجه متحملا كُلفَ الخاصة والعامة مَبْذُول الجاه والشفاعة كهفا لاصناف الطلبة ...» ولم يبالغ ابن الخطيب رحمه الله فيما حلاه به من الاوصاف فسنستعرض من احواله مايصدق ذلك كله .

وقال ابن القاضي في ترجمته من دُرّة الحجال : «رحل الى المشرق لاداء فريضة الحج سنة ٦٨٣ وكانت اجازتُه البحرَ من المَرِيّة ، فتلاقى بها هو والوزير ابو عبد الله ابن الحكيم وكان قصْدُهما واحدا فترافقا في السفر فدخل افريقية ومصر والشام واخذ بها وبالحجاز عمن لقي من الائمة . وكان له تحقق بعلم الحديث وضبْطِ اسانيده ، وميْزِ رجاله ومعرفة انقطاعه واتصاله ، ثقة

عدلا من اهل هذا الشأن ، وكان من اهل المعرفة بعلم القراءات والعربية وعلم البيان والاداب والعروض والقافية ...».

ولما رحل وهو في عنفوان الشباب ، في اواسط العقد الثالث من عمره ، كان قد برع في علم العربية والبيان والاداب وفي الفقه والحديث والاصول ، بحيث كان يذاكر ويناظر اهل كل فن من هذه الفنون ، وربما راجع المشائخ الكبار في دقائق المسائل فسلموا له . واكبرُ ما استفاده في رحلته هذه هو سَعَةُ الرواية والاطلاع على الأمهّات من كتب الفقه والحديث والأدب واللغة ومعالجة طُرق التحديث وممارسة اساليب البيان ، وهو إن تفوّق في صناعة الحديث ففي الادب لم يزل متوسط الطبقه برغم الكثْرة الكاثرة مما روى من ادبيات عصره وممن لقيهم وساجلهم من الادباء والبلغاء .

وكما كان توجهّه الى المشرق من الاندلس عن طريق تونس ، كذلك كان رجوعه ، وحيث ان رفيقه في رحلته الوزير ابا عبد الله ابن الحكيم الذى رجع قبله ، كان اخذ عليه العهد انه ان ألمّ بالاندلس لا بد ان يزوره قبل قُفوله الى اهله ، فانه قصد رنْدَة من مَالقَة ووجه اليه الوزيرُجماعةً من كبار القوم يستقبلونه ، وبالغ في الاحتفال به ثم توجه من رندة الى الجزيرة الخضراء وركب البحر الى سَبْتة صبيحةَ يوم الاثنين ٢٢ جمادى الاخرى عام ٦٨٦ فوصل اليها ضحى ذلك اليوم .

عاد ابن رُشَيد الى بلَده ثغرِ سبتة المحروس ، ومحلّ نشأته المأنوس ، على

حد تعبيره بعد غياب ثلاثِ سنين زار فيها عدة مدن وعواصم اسلامية كانت زاخرة بمظاهر الحضارة ومعاهد العلم ، ولقي رجالا من ذوى الكفايات النادرة في مُختلف ابواب المعرفة ، واخذ عنهم واخذوا عنه ، وسجل من آثارهم ودوّن من اخبارهم ما لولاه لغاب في مطاوي النسيان ، ولمّا اطّلع عليه انسان نَاهِيك بما اكتسبه في هذه الرحلة الطويلة من شهرة وبعد صيت ، وحسن ذكر ورفعة شأن ، فلا عجب اذا نبَتْ به بلدته الصغيرة وضاق بها وهو قد تعوّد حياة العواصم وألِف التقلب في بلاد الله الواسعة حيث يلقى كل يوم شخصية جديدة ويرى منظرا غير مألوف .

ولم يَكَدْ صديقهُ ورفيقه الوزير ابو عبد الله ابن الحكيم يعلم بحاله حتى كتب اليه يستدعيه الى حضرة غرناطة ويَعِدُه بكل مأمول فلبى دعوته وانتقل الى غرناطة حيث قدم للخطبة والصلاة بجامعها الاعظم ، وهو قد عُرِف باجادته في فن الخطابة حتى وُصِف بالخطيب ابن رُشَيد ، فكان توليه لهذا المنصب الديني المهم من باب إعطاء القوس باريها واسكان الدار بانيها ، ثم وُلى قضاء الأنكحة وبقى على هذه الحال الى ان وقع اغتيال صاحبه الوزير ابن الحكيم عام ٧٠٨ فأزمع الرحلة الى المغرب .

وفي دخوله غرناطة ومقامه بها يقول ابن الخطيب في احاطته : «ورد على الاندلس في عام اثنين وتسعين وستمائة ، فعقد مجالس للخاص والعام يقرىء بها فنوناً من العلم ، وتقدم خطيباً وإماماً بالمسجد الأعظم منها ، حدثني بعض

أشياخنا قال : قعد يوماً على المنبر وظنّ أن المؤذّن الثالث قد فرغ فقام يخطب والمؤذّن قد رفع صوته بأذانه فاستعظم ذلك بعضُ الحاضرين وهمّ آخرُ بإشعاره وتنبيهه ، وكلّمه آخر فلم يثنه ذلك عما شرع فيه وقال بديهةً :

« أيها الناس ! رحمكم الله ! ان الواجب لا يُبْطِله المندوب ، وإن الأذان الذي بعد الأول غيرُ مشروع الوجوب ، فتأهّبوا لطلب العلم وانتبِهوا ، وتذكروا قول الله تعالى : « وما آتاكم الرسولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهُوا » وقد روينا عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : مَن قال لأخيه والإمامُ يَخْطُب أنْصِتْ فقد لَغَى ، ومن لَغَى فلا جُمْعَةَ له ، جعلني الله وإياكم ممّن عَلِمَ فعَمِل ، وعمل فقُبل ، وأخلَص فتخلّص » ثم نزل وتقدم للصلاة ، وكان ذلك مما استدل به على قوّة جَنانه وانقياد لسانه لبيانه » .

وذكر ابنُ حجر في الدرر الكامنة ان ابنَ الحكيم كان إذا فرغ من الخدمة يَجيءُ إلى ابن رشيد فيباشر خدمتَه بنفسه أحياناً ، ويبالغ في إكرامه ، وان المترجَم أيام إقامته بغرناطة كان له مجلس في صحيح البخاري يقرأ فيه حديثين فيتكلم على سندهما ومتنهما أحسن كلام ، وذلك بالمسجد الأعظم منها ، وأنه كان على مذهب أهل الحديث في الصفات يُمِرّها ولا يتأول ، وكان يسكُت لدعاء الاسْتِفْتاح ويُسِرّ البسملة فأنكروا عليه وكتبوا محضراً بأنه ليس مالكياً ، فاتفق أن القاضي شرع في المحضر مات فجأة وبطل المحضر .

وهذا الذي ذكره ابنُ حجر من كونه على مذهب أهل الحديث صحيح ، إلا أنه على ما أُرَجّحُ ليس عاماً في جميع الأحكام بل في الاعتقاد ومسائل العبادات خاصة كما كان عليه غيرُ واحد من فقهاء المذاهب المشتغلين بالحديث وسيمرّ بك ما يشهد له من أقوال المترجم واستظهاراته ، كما أن المحضر المذكور لا بد أن يكون عُمِلَ في الاندلس إذ هي التي عُرِفتْ بهذا التشديد في اتباع مذهب مالك ، وأما في المغرب فان الناس وأعني بهم العلماء كانوا كثيراً ما يَنْهَجُون هذا النهج ان لم يكن في كل المسائل ففي بعضها ، ولذلك لم يكن عَمَلُ محضر من هذا القبيل في المغرب مُحتملاً كثيراً .

ومع ذلك فان ابنَ رشيد وان أفلت من هذه ، لم يُفلت من محنة أخرى يوم اغتيل صديقه وحاميه الوزير ابن الحكيم وكان فيها ذهابُ نفسه لولا لطف الله وبقيةٌ من عمْر ، وفي ذلك يقول ابن الخطيب : « تعرض اليه قوم يوم قَتْل صديقه أبي عبد الله بن الحكيم بإذاية قبيحة وأسْمِع كلّ شانىء من القول على ألسِنَةِ زَعانِف ممن وَتَرَهم القتيل فتخلّص ولا تسأل كيف ؟ وأزمع الرحيل فلم يلبث بعدُ » .

وإذا كان في طي كل نقمة نعمة ، فان النعمة في هذا الحادث السيء هي انتقالُ ابن رشيد إلى المغرب وعودتُه إلى وطنه حيث قضى ما بقي من عمره عزيزَ الجانب ، موفورَ الكرامة ، ونَشر علومه الغزيرة(1) وألّفَ كتبه القيمة ،

(1) كان لابن رشيد مجلس حافل في صحيح البخاري يعقده بين الظهر والعصر شرق صحن القرويين .

وكان له من المكانة العالية عند ذوي السلطان ما لايقل عما كان له في الاندلس ان لم يزد عليه .

قال ابن القاضي : «رَحل عن غرناطة ولحِق بحضرة فاس فحلّ بها تحت عناية وفى كَنَف رعاية ، وجعل له الأمرُ السلطاني الاختيار ، أين يُحب الاستقرار ، فاختار التحوّل إلى مراكش إذْ كان قبل قد سكنها ، فاستحسنها فورد عليها وقُدّم للصلاة والخطبة بجامعها العتيق ، ثم استدعاه المَقامُ السلطانى الى حضرة فاس فورَدها وصار من خواصّ السلطان بها وأقام على ذلك إلى أن توفي بفاس في الثالث والعشرين لشهر محرم سنة ٧٢١ ودُفِنَ خارج باب الفتوح بمَطْرَح الجنّة » .

والسلطان الذي عاش ابنُ رُشَيْد في كنفه ، هو أبو سعيد المريني الأكبر ابن السلطان يعقوب المنصور المريني ، وكان معروفاً بحبه للعلم والعلماء وتعظيمهم واحترامهم وهو الذي بنى مدرسة العطّارين بفاس وغيرها .

أما مَطرح الجنّة الذي دفن فيه ابن رشيد فهو روضة معروفة بمقَابِر باب الفُتوح خارجَ فاس ، كان يقال فيها مطرَح الجِلّة بكسر الجيم وباللام لما ضمّته من مراقد العلماء والفضلاء من الغرباء الواردين على فاس ومن أهلها أيضاً في الأخير ، ولكنّ العامّة صحّفت ذلك الاسم بمطرح الجنّة ، وهو تفاؤل حسن .

* * *

وخلّف ابن رُشَيْد تآليف مهمة في علوم الرواية والاسناد والعربية والأدب هذه أسماؤها :

١) تُرْجُمان التراجم في إبْداء مناسبة تراجم صحيح البخاري يستمدّ منه كثيرٌ من شرّاحه .

٢) السَّنَن الأبْيَن في السند المُعَنْعَن .

٣) إيضاح المذاهب فيمن ينطَلِق عليه اسمُ صاحب .

٤) المقدّمة المعرّفة لِعُلوّ المسافة والصّفة .

٥) المحاكمة بين البُخاري ومُسْلم .

٦) إحكام التأسيس في أحكام التجنيس .

٧) إيراد المَرِيع لرائد التسجيع والترصيع .

٨) وَصْلُ القوادم بالخوافي في ذكر أمثلة القوافي ؛ شرح فيه كتاب القوافي لشيخه ابي الحسن حازم القرطاجني .

٩) جزء مختصر في العروض .

١٠) تقييد على كتاب سيبويه قيده أيام قراءته على الأستاذ ابن أبي الربيع النحوي بستة .

١١) إفادة النّصيح بالتعريف بإسناد الجامع الصحيح وقفتُ عليه بمكتبة الاسكوريال

١٢) رحلته مِلْءُ العَيْبة فيما جُمع بطُول الغَيْبَة في الوجْهتَين الكريمتين إلى مكة وطَيْبة ، وهي أهم كتبه وأعظمها قيمة علمية ، جمع فيها من الفوائد الحديثية والفرائد الأدبية كل غريبة وعجيبة وهي كما قال ابن شَبْرِين : « ديوان كبير لم يُسْبَق إلى مثله » .

وقد اختلفت كلمة المؤرخين في عدد أسفارها ، فمن قائل انها أربعة ، ومن قائل انها ستة ، والموجود منها بمكتبة الاسكوريال باسبانيا خمسة أجزاء ، أربعة منها بخطه وواحد وهو الخاص بمصر بخط مغاير ، وفي بعض هذه الاجزاء خَصاص من ورقة وورقتين ، وابتداء الكلام فيها من وجوده بتونس مَقْدَمَه عليها أولا من المغرب إلى أن تنتهي برجوعه إلى بلاده سبتة في التاريخ الذي ألمعنا اليه من قبل ، فالظاهر ان الذي ينقصها هو الجزء الأول الذي يتحدث عن ابتداء الرحلة وركوبه البحر من المرية إلى تونس ، ووصوله إلى تونس ومن لقيه من الفضلاء غير من ذكرهم في الجزء الذي يليه والذي هو أول النسخة الموجودة .

وقد كانت هذه النسخة في ملك الامام ابي العباس أحمد الوَنْشرِيسي صاحب المِعْيار ، والعلامة أبي العباس أحمد المنجور وعليها خطّهُما كما تخللتها خطوط غيرهما من العلماء في أسْمِعة واجازات مختلفة ، ومنها خط الرئيس عبد المهيمن الحضرمي بسماعه لها من المؤلف وخط أبي عبدالله بن يوسف الحلاسي وابي عبدالله بن هارون شيخَي المؤلف في اجازتهما له وسواهما .

ويظهر أن مُسودّة المؤلف الأولى لما تحتويه من الزيادات والالحاقات وعدم الترتيب في ذكر بعض الحوادث أو التواريخ التي حقها أن تذكر مثلاً في الجزء الأخير فذكرت في الذي قبله وهكذا ، ولعلها ان تكون هي المسودّة التي وقف عليها ابن شبرين في سبتة فقال فيها كلمته السابقة كما عند ابن الخطيب ، وهي من دون شك كانت من مُحْتويات مكتبة زَيْدان بن المنصور السّعْدي ، التي نُقِلت إلى اسبانيا بخيانة المركب الفرنسي الذي كان حاملاً لها .

وأما قبل وبعد فإن ما تشتمل عليه هذه الرحلة العامرة من فوائد علمية وأدبية وتاريخية ، وتحقيقات في المسائل العويصة من المعقول والمنقول ، وتعريف بأحوال المترجَمين فيها من علماء وأدباء وشيوخ الرواية والحديث ، وتوصيفٍ للبُلدان التي مرّ بها المؤلف وما شاهد فيها من مآثر ومناظر فضلاً عن الروايات والأسمعة التي تَحَمّل بها ، والكتب والأجزاء التي قرَأها في مُختلَفِ فنون العلم ، هو شيء لا يأتي عليه الوصف في هذه الترجمة المختصرة ولا يُدرك أهميّتَه إلا من وقف على نفس الرحلة واستوعَب مضمونَها واستخلص زُبْدَتَها في غير ملل ولا ضجر ولكنا بالرغم من ذلك نورد جملة من فوائدها ونستعرض نماذج من محتوياتها ، خصوصاً ما له تعلّق بالمترجَم وما يكون فيه مَزِيدُ تعريف به ، وقديماً قيل : « مِن كلامهم تعرفونهم » ؛

فمن ذلك ما جاء في خاتمتها من أنه لم يكن يقصد بها قصدَ التأليف ولذلك لم تجيء مرتبة مهذّبة كما أشرنا إلى ذلك في وصفها آنفاً ، وهو قوله : « ولما أنعم

الله سبحانه بتيسير الغرض ، من هذا التقييد الذي تَسنّى ببركة التوجه لأداء المفترض ، سنح ببالي أن بعض ما ذكر فيه قد يعترضه من اعترَض ، ممن لا يُفرّق بين الجوهر والعرَض ، فرأيت أن أبين كيفَ وقع الحال ، فيما اشتمل عليه بين الحَلّ والترحال ، فأقول : والله في العفو والصفح المسؤول ، اني لم أكن قصدتُ به مقصد التصانيف المهذبة ، ولا التآليف المرتبة ، وإنما قيّدتُه بحسب ما يُسرّ لي مما كنت كتبته على ظهور الكتب وفي بطون البطائق مما قيّد للتذكار بتلك المعاهد اللائحة الأنوار ، فقصدت أن أضم بَدَدَه ، وأجمعَ عَدَدَه ، وأكثره وقع على غير رَويّة ، بل وَفْق ما سمحت به السجيّة ، فبحسب ذلك ربما وقع فيه من افراد الشيوخ ، مقدّماً من غيرُه أحقّ بالتقديم منه ، ومؤخّراً مَن حقه أن يؤخر غيره عنه ، وربما وقعت كذلك أيضاً التواريخ في قراءتي على مَنْ قرأت عليه أو سمعت منه أو أخذت عنه ... » .

ولعل من تتمة الكلام في هذا الصدد الاشارة إلى ما كان للرئيس عبد المهيمن الحضرمي تلميذ المؤلف من يد طُولى في كتابة هذه الرحلة واستخراجها من مُسودّاتها كما قال ابن رُشَيْد ، وقد ذكره في إحدى المناسبات وذكر مقابلتَه معه للرحلة واعتناءَه باكتتابها لنفسه واكتسابها وتحمله لها عنه ومعرفته لفضلها قال : « ولولا عزْمُه علي في تخليصها ما خلصتها ولا أخرجتها ولا أظهرتّها لعدم الراغب وقلة الطالب » .

وهاك نقلاً منها يدلّك على مبلغ تمسكه بالسنة واحتياطه لدينه : « وبمَقْربة

من العين (عين تَبُوك) أصلُ شجرة يابس فيه غصن كبير ناعم ، أظنها سِدْراً يزعم الناس أنه صلى الله عليه وسلم قعد هناك فاخضرت الشجرة والله أعلم ، ولقد اتفق لي هناك أن أخذت يسيراً من لِحائها بسكين الاقلام على حكم التبرّك بما ذُكِر من أمرها ولأني رأيت بعض من حضر هناك أخذ شيئاً منها متبركاً ، فرأيت شخصاً قد أقبل إليّ لم أعرفه قبل ولا بعد فقال لي : حتّى أنت تفعل ذلك ؟ فقلت ولِمَ ؟ وما تُنكِرُ من ذلك ؟ فقال ان كان حقاً ما ذُكِر فيقتدِي الناس بك في الأخذ منها فيُفْنِيها الناس فيذهب هذا الأثر المبارك فتكون سببَ إذهابه ، والا يكن فيقتدي الناس بك في باطل أو معى هذا الكلام ، فشكرتُه وانصرف » .

ونظيره قوله في المَبِيت ليلة التاسع بعرفات موافقة للجمهور على ما أشار به عليه الشيخ أبو محمد المَرْجانيّ قال : « ورأينا في تلك الليلة عَجَباً فيما ابتدعته العامّة من الاستعداد والاحتفال بوقْد الشمع بطول تلك الليلة بالجبل القائم في وسط عرفات ، المعروف عند القدماء بإلال ، وهو جبل مرتفع ، وفي أعلاه مسجد تُنصب به راياتُ أمراء الركب ، وقد صُنع له درَج بالبناء من أمامه ومن خلفه فيُرتَقى اليه عن طريق وينزل من أخرى ، وربما التقى فريق مع فريق فيغص الجبل بالصاعدين والنازلين وهو يتأجج ناراً ، ويتموّج كالبحر زخّاراً ، والطرق اليه بالشمع في بسيط عرفات ، كالسطور المُذهَبات ، تتصل به من كلّ الجهات ، وأنت إذا نظرتَ إليه على بعد من الخيْمات ، تراه كشعلة واحدة ، وما يطول من الشمع كأنه ألسُنٌ متعاضِدة فترى عجباً ،

صَلْداً عاد ذهباً ، أو صار لهبا » ثم أتى في ذلك بشعر من نظمه وقال : « استغفر الله من هذا المقال ، واسأله الصفح عما جرى مما يوهم استحسان هذه الحال ، بل هذه الحالة من قبيح البدع ، التي يجب أن يزجر عنها فاعلها ويردع » ونقل بعد ذلك كلاماً لأبي عَمْرو بن الحاجب الفقيه المالكي في استنكار هذا الذي أحدثته العامّة من الخروج لعرفة في تلك الليلة وإيقاد الشموع واختلاط النساء بالرجال.

ومن دلائل مَيْلِهِ للنظر وعدم تعصبه للمذهب مذكراته مع شيخه أبي محمد بن عبد القادر البِجاءي التونسي في مسألة النضْح في الطهارة وهي كما قال : « وجرى الكلام يوماً بحضرته في حكم النضح وكان الشيخ رضي الله عنه يماشيني على طريقة النظر ، ويسامحني في الاحتجاج للمنصور ، وان كان في المذهب المالكي ليس بالمشهور فقلت ما معناه لا يخلُو ان تَتَحقّق النجاسة ويُشكّ في الحصول أو يشك في النجاسة ويتحقق الحصول أو يشك فيهما ، فان شك فيهما فلا نَضْح ، وان شك في الحصول لم يلزم النضح ، وان شك في النجاسة وتحقق الحصول وجب النضح ، وجرى في كلامي أثناء التناظر أن قلت هذا هو المعروف ، وكان حضر في المجلس شاب يعرف بابن عيّارة ، ولم يكن من عادته أن يحضر فقال مبادراً : هذا المعروف يحتاج إلى معروف ، فخجِلتُ منه وأعرض الشيخ عنه :

ومَن ظنّ ممن لا يلاقى الحروب بأن لا يُصابَ فقد ظن عجزا ».

وأشار إلى ضابط المسألة في المذهب من قول ابن الحاجب رحمه الله ، ان

شك في إصابتها نَضَح والنضْح من أمر الناس طُهُور لكل ما يشك فيه ، فان شك في كونه نجاسة فقولان ، فان شك فيهما فلا نضح لضعف الشك وتعرض للفرق بين حكم النضح إذا شك في الحاصل وحكمِه إذا شك في الحصول فقال لو قيل بإلزام النضح حيث يتحقق الحصول ويشك في الحاصل لكان أولى .

ثم قال : « وبالجملة فمآخذ النضح ضعيفة من حيث المآخذ اللفظية والنظرية ، أما المآخذ اللفظية فلأن النضح في اللغة يقال بمعنى الصب ويقال بمعنى الرش فهو مجمل فلا يتعين لأحد المَحْمَلين إلا بدليل ، واما النظرية فلأنه قد ينشُر النجاسة ، ولذلك شرط بعضهم في صفته ان يرش ثم يترك حتى يجف وحينئذ يلبس ، ودليل المالكية على شرعية النضح في الشك ما جاء في حديث الطفل الذي بال في حَجْره عليه السلام ، فنضَحَه ولم يغْسِلْه ، وغسَل عمر رضي الله عنه ما رآه من الاحتلام في ثوبه ، ونضح ما لم يره ، وامره عليه السلام بنَضْح الحَصِير الذي اسْوَدّ من طُول ما لُبِس » .

ومن ذلك كلام له في حكم العُمْرة والنية فيها وإليك بسْطَه كما عرضه على شيخه ابن عبد القادر البِجَاءي المذكور وما عقّب به عليه قال : «واستَفتيت يوماً شيخنا الامام أبا محمد عمن تردد نظره في العمرة لاختلاف العلماء رضي الله عنهم بين الوجوب والندب هل يأخذبالنية العامّةوهي كونها مطلوبةوهو القدر المشترك بين الوجوب والندب فقال مُجِيباً يقلد من يقول بالوجوب أو الندب فهو أولى من هذا النظر » قال : « ولي في تسويغ النية العامة سؤال شديد قد

عرضته على غير واحد من نبلاء الاصحاب فاستصعب الجواب عنه ، وأجاب بعضهم بما هو أضعف من السؤال ولم يتفق لي عرض السؤال على الشيخ لانه لم يخطر ببالي إلا بعد مفارقته ، ولكن سؤالي عن المسألة له هو الذي حرّك عندي ذلك مع تسويغ بعض الفقهاء الدخول في الصلاة المعادة في الجماعة بنيّة التفويض وقد جمع بعض فضلاء أصحابنا ونبلائهم سؤالي وجوابه وجواب الأصحاب في جزء فمن تشوف إليه ليقف عليه فليتطلبه .

وملخص السؤال ان قلت : ان أحد الأمرين لازم ، أما إبطالُ القول بأن الاحكام الشرعية منحصرة في خمسة الوجوب والندب والحظْر والكراهة والاباحة ، أو في ثلاثة منها عند من يرى ذلك ، أو خلافُ الاجماع في جواز الاقدام على العمل من غير توقّف بالمطلقات إذا تعرّتْ عن القرائن كقول القائل اعتق واضرب ، واعتق رقبة فيمن جعل الأمر حقيقة في القدر المشترك فإذا فرضنا صحة ما اختاره الفخر بن الخطيب من ان الأمر حقيقة في القدر المشترك دفعاً للمجاز والاشتراك ولتعارض الأدلة بين الوجوب والندب فوجب تركهما ولزم القول بالقدر المشترك لما ذكرناه فنشأ عن هذا جوازُ الاقدام من غير توقف عند قول الشارع مثلا اعتمروا من غير قرينة معتقدين للقدر المشترك، وذلك يستلزم ثبوت حكم سادس ، وهو كونه مطلوباً وذلك أعم من كونه واجباً أو مندوباً ، والعام لا اشعار له بالخاص ، وهو معنى النية العامّة أو يلزم التوقف عن الاقدام على العمل ، في المطلّقات العرّيات عن القرينات وهو خلاف الاجماع ، فقد لزم أحد الأمرين : إما ثبوت حكم زائد ، أو لزوم

التوقف وكلاهما خلاف الاجماع ، ومما يُستدلّ به لصحة القول بالنية العامّة قولُ ابن عمر رضي الله عنهما لما سئل عن الوتر أواجبٌ هو أم لا ، فقال أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوتر المسلمون ، فأعيد عليه السؤال فأعاد الجواب ، والسؤال قوي ، وما يجاب بهعنه ضعيف ولله الموفق للصواب بمنه».

ومما يدلّ على ضبطه وإتقانه ومعرفته بعِلَل الحديث وطرق الاسناد أنه قلّما يمرّ به حديث فيه انقطاع أو علة أو تحريف لمتن أو إسناد إلا ويقف عنده وينبه على الصواب فيه مُقارِناً محتجاً برواية غيره ممن أخذ عنه لنفس الحديث حتى يتبين الصبح لذي عينين ، والأمثلة على ذلك كثيرة فمنها هذا الحديث من الجزء المعروف بجزء أبي الجهم العَلاء بن موسى الباهلي وهو ممن يروي عن الليث بن سعد ، وقد قرأه المترجم على الشّيْخة الصالحة الكاتبة فاطمة بنت ابراهيم البطائحي بالحرم النبوي قال : « ومنه بالاسناد ، حدثنا الليث ابن سعد عن نافع عن ابراهيم بن عبد الله بن مَعْبَد بن عباس أنه قال : ان امرأة اشتكت شكوى فنذَرَت لئن شفاني الله لأخرُجنّ فلأصلينّ في بيت المقدس ، فبرئت وصحت ، وظهرت تريد الخروج فلما أتت ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم تسلّم عليها فأخبرتها بذلك فقالت : انطلقي فكلي ما صنعت(1) ، وصلي في مسجد الرسول ، فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : صلاة فيه أفضل من الف صلاة فيما سواه إلا مسجد الكعبة »

---

1) تعني بذلك الزاد الذي صنعته للسفر .

قال ابن رشيد : « قلت كذا سمعنا هذا الحديث على فاطمة عن نافع عن ابراهيم بن عبدالله بن مَعْبَد بن عباس أنه قال ان امرأة وكذا رأيته في الأصل السموع على ابن أبي مسعود الفارسي وفي غيره من الأصول ولعله سقط فيه عن ابن عباس، والحديث عند مسلم بن الحجاج رحمه الله عن قُتَيْبَة بن سعيد ومحمد بن رمح عن الليث عن نافع عن ابراهيم بن عبدالله بن معبد عن ابن عباس أنه قال وذكر الحديث ؛ وفي اللفظ اختلاف يسير .

وابراهيم هذا هو ابن عبدالله بن معبد بن عباس بن عبد المطلب أخرج له مسلم دون البخاري يروي عن أبيه عبدالله ، وذكر محمد بن طاهر المقدسي في كتابه الذي جمع فيه بين الصحيحين ، ان ابراهيم هذا يروي عن ميمونة عند مسلم ولم يعين الموضع ، فما أدري أعَنَى هذا الموضعَ أم غيرَه فزِدْ فيه بحثاً » .

ومنها في روايته لثُلاثيّات البُخاري بالمدينة المنورة عن الشيخ الفقيه أبي اسحق بن يحيى الفأسي منسوب إلى فاس ولكنه كان يهمزه فراراً من الاشتراك فيما يُظَن ، وذلك بحق بسماعه لها من أبي البركات الهمداني بمكة واجازتِه له قال ابن رشيد : « قال شيخنا أبو اسحاق بحق سماعه من أبي الوَقْت وأجاز لي الشيخ أبو اسحاق وكتب لي خطه بذلك ، وخطه حسن مُدْمَج (تنبيه) قول شيخنا أبي اسحاق ان ابن أبي البركات سمع من أبي الوقت لا تُعْلَم صحته وإنما حدّث عنه بالاجازة ، وكذلك حدّث عنه فخرُ الدين التَوْزَرِي سمع عليه بالحرم الشريف وقال أنا الشيخ المعمّر الصدوق جمال

الدين أبو عبدالله محمد بن أبي البركات بن أبي الخير الهمداني ، قال: أنا(1) أبو الوقت إجازة ، وقد حدث فخر الدين التوزري عنه بالثلاثيات سماعاً عن أبي الوقت إجازة ، وقد كنا نقول لعله سمع منه الثلاثيات فحسب لولا ان التوزري قد قال انها اجازة وهو معتبر في قوله اذ هو من أهل الشأن ، وليس الشيخ أبو اسحاق من أهل هذا الشأن وإنما طريقه طريق الفقه » .

ومنها وقد ذكر أخذه لكتاب التقصّي لآثار الموطأ للحافظ ابي عمر ابن عبد البرّ عن شيخه القاضي ابي العباس بن الغماز بسنده قال : « أخبرني رضي الله عنه أنه قرأه كله مع زياداته على شيخه الحافظ الخطيب الشهير أبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسّان الكَلاعيّ البَلَنْسي رحمه الله قال قرأته على أبي عبدالله محمد بن سعيد بن زَرْقُون وهو أول شيء قرأته عليه وقال لي سمعته على الفقيه المشاور ابي عمران ابن ابي تَلِيد قال سمعته على مؤلفه ، (قلت) هكذا سمعت هذا السند يُقْرَأُ على شيخنا أبي العباس في فهرسة شيخه أبي الربيع بن سالم وهو كما تراه قد أطلق سماع ابن زَرْقُون لجميع الكتاب على ابن أبي تَلِيد ووجدت بخط المحدث المتقن المقيّد أبي عمرو سالم ابن صالح بن علي بن صالح بن محمد بن عباس الهمداني المالَقي على متن نسخة من كتاب التقصّي قرأته لجميعه على أبي عبدالله بن زَرْقُون قال : سمعته على أبي عمران بن ابي تَلِيد إلا يسيراً من أوله قال : قرأته على مؤلفه ، هكذا كتب

1) مختصرة من أخبرنا .

أبو عمر بن[1] سالم الاسنَادَ بخطه ، وصحح له ابن زرقون عليه بخطه، وهو كما تراه قد قال : انه فاته سماع شيء من أوله على ابن أبي تَلِيد فزد في ذلك بحثاً على ان ابا الربيع بن سالم لا يقاس به غيره ، لولا خط الشيخ بالتصحيح على ذلك » .

ومن تثبته وضبطه انه في احدى رواياته لكتاب مُلَخّص القَابِسي عن شيخه أبي بكر بن حَبِيش التّونسي بسنده إلى المؤلف ، وفيه قال حاتم بن محمد الطرابلسي قرأته على مؤلفه ، لم يستطع أن يمر على كلمة قرأته هذه حتى يحقق فيها ، فكتب إلحاقاً بالهامش ما نصه : « قلت كذا وقع في سند شيخنا أبي بكر بن حَبيش ، قال قرأته على مؤلفه وكذلك في فهرسته وبخط ابي الربيع ابن سالم قال : سمعته وهو الصحيح ان شاء الله وكذا قال حاتم في فهرسته انه سمعه عليه — على انهم قد يعبرون عن القراءة بالسماع » .

ومن ذلك انه في أحد أسانيد كتاب الأمثال لأبي أحمد العسكري وقد أخذه عن شيخه المذكور ، وقع هذا الاسم أبو نصر محمد بن سلمان فشك فيه فكتب عليه : « قلت كذا وقع في هذا الاسناد أبو نصر محمد بن سلمان وكذا كان في صدر أصل كتاب أبي محمد بن عُبَيْد الله الحَجْري وهو مما قرأه على الأنْدى ثم أصلحه أبو محمد الحجري في متن الكتاب وردّه سُلَيمان على التصغير وكتب الاسناد أيضاً بخطه على ظهر الكتاب فقال فيه سليمان بالتصغير

1) كذا بخط ابن رشيد ابو عمرو بن سالم ولم تثبت لفظة ابن في تسميته قبل .

أيضاً ، والذي قرأته بخط ابي الربيع بن سالم في هذا الاسناد محمد بن سلمان وأعاد الاسناد بخطه كذلك ، واعتنى بهذا الاسناد عناية تامة » .

ولقد كان أخذ هذا الكتاب عن شيخه المذكور أول مرة مع رفيقه الوزير ابن الحكيم في ليلة وصباح لأنه لم يكن في تونس منه إلا نسخة واحدة يضِنّ بها صاحبها فسمعوها عنده في بيته فلم يهدأ بال مترجمنا حتى حصل منه على نسخة أخرى وأعاد قراءته على شيخه المذكور لأنه كان اعتراه نوم في تلك الليلة فشك في سماع بعض مواضع من الكتاب ، وهذه هي الغاية في التثبت والتحري والهمة التي لم نعهدها إلا من رجال العهد الأول وصدر الاسلام في الحرص على الرواية والسماع .

وننتقل من شؤون الرواية إلى تحقيقات المؤلف في مسائل حديثية وهي أيضاً مما يدل على قوة نظره وسعة اطلاعه ، ولا نورد من ذلك إلا بعض أمثلة تُشوّق أهل العلم ولا تُمِلّ من لم يكن من أهل هذا الشأن من عموم المثقفين .

فمن ذلك تحقيقُه فيما اشتهر من ان زيادة (من المسلمين) في حديث زكاة الفطر مما انفرد به مالك من بين الثقات وإليك نصه : « قلت اشتهر بين المحدّثين أنّ مالكاً رحمه الله انفرد من بين الثقات في هذا الحديث بقوله من المسلمين قال الامام أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله في كتابه البديع الذي صنفه في معرفة أنواع الحديث في النوع المحتوي على معرفة زيادات الثقات وحكمها (الثالث) ما يقع بين هاتين المرتبتين مثل زيادة لفظة في حديث لم

يذكرها سائر من روى ذلك الحديث مثاله ما رواه مالك عن نافع عن ابن عُمَر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر من رمضان على كل حر أو عبد ذكراً وأنثى من المسلمين فذكر أبو عيسى التّرمذي أن مالكاً تفرّد من بين الثقات بزيادة قوله من المسلمين ، وروى عُبيد الله بن عمر وأيّوب وغيرهما هذا الحديث عن نافع عن ابن عمر دون هذه الزيادة فأخذ بها غيرُ واحد من الأئمة واحتجوا بها منهم الشافعي وأحمد رضي الله عنهم والله أعلم ، انتهى ما أردنا إيراده من كلام ابن الصلاح رحمه الله .

وفي كلامه وحكاية ما حكاه عن الترمذي بعضُ النظر ، فقد روى هذه الزيادة عن نافع ابو عثمان الضحّاك بن عثمان بن عبدالله بن خالد القُرَشي ذكر ذلك مسلم في صحيحه . قال مسلم رحمه الله : وحدثنا محمد بن رافع نا[1] ابن أبي فديك قال : أنا الضحّاك عن نافع عن عبدالله بن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر من رمضان على كل نفس من المسلمين ، حراً و عبداً ورجل أو امرأة ، صغير أو كبير ، صاعاً من تَمْر أو صاعاً من شَعِير ، ورواه أيضاً بزيادة من المسلمين عن نافع ابنُه عمر بن نافع ذكر ذلك البخاري في صحيحه قال البخاري رحمه الله نا[1] يحيى بن محمد بن السكن قال نا[1] محمد بن جهضم قال نا[1] اسماعيل بن جعفر عن عمر بن نافع عن أبيه عن ابن عمر قال : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

1) مختصرة من حدثنا .

زكاة الفطر صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير على العبد والحرّ والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين ، وأمَر بها أن تُؤدّى قبل خروج الناس من الصلاة .

وأورد ابن رُشَيْد كلام الناس في توثيق عمر بن نافع والضحّاك ابن عثمان الراويين للحديث عن نافع بتلك الزيادة ثم قال : « فهذا ما يَرِدُ على قول الترمذي وعلى قول الامام ابن الصلاح فانه نقل قول الترمذي كالراضي به .

ويَرِدُ على ابن الصلاح تعقّب آخر إلا أنه خفي دقيق ، وذلك انه حكى عن الترمذي أن مالكاً تفرد بهذه الزيادة من بين الثقات ، وكلام الترمذي في معرضه إذا تُؤمّل أقبَلُ للتأويل مما حكاه عنه ابن الصلاح رحمه الله وبإيراد نصه في ذلك يتبين المعنى الذي أشرنا إلى غموضه ، قال أبو عيسى رحمه الله في جامعه ما نصه : ورُبّ حديث إنما يستغرب لزيادة تكون في الحديث ، وإنما يصح إذا كانت الزيادة ممن يعتمد على حفظه مثل ما روَى مالك ابن أنس عن نافع عن ابن عمر قال : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من رمضان على كلّ حر وعبد ذكراً أو أنثى من المسلمين صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير قال : وزاد مالك في هذا الحديث من المسلمين ، وروى أيّوب السّختياني وعبيدُالله بن عمر وغير واحد من الأئمة هذا الحديث عن نافع عن ابن عمر ، ولم يذكروا فيه من المسلمين ، وقد روى بعضهم عن نافع مثلَ رواية مالك ممن لا يُعْتَمَد على حفظه ، وقد أخذ

غير واحد من الأئمة بحديث مالك واحتجوا به . منهم الشافعي وأحمد بن حنبل قالا : إذا كان للرجل عَبِيد غير مسلمين[1] لم يؤد عنهم صدقة الفطر واحتجا بحديث مالك ، فاذا زاد حافظ ممن يُعتمد على حفظه قُبِل ذلك عنه ، انتهى كلام الترمذي وهو أوسع فإنه علق الحكم في الزيادة عمن يعتمد على حفظه وابن الصلاح علق الحكم بالثقة ولا شك ان المعتمد على حفظه في اطلاقهم أعلى رتبة من الثقة فان الترمذي موافق على أن عمر بن نافع ثقة ، وقد لا يوافق على أنه ممن يعتمد على حفظه فلذلك لم يذكره مع مالك فافهم هذا فانه مهم خاف والله الموفق والمرشد » .

ومن ذلك تحقيقه في ضبط لفظة يكف من قول البخاري في الجنائز باب الكَفَن في القميص الذي يَكِفّ والذي لا يَكُفّ ، وكان سمع منه مواضع على شيخه أبي العباس بن الغمّاز في أصل عتيق من رواية أبي ذَرّ الهَرَوي بخط اصبغ بن راشد الاشبيلي ، كتبه بمكةَ وسمع فيه على أبي ذر ثم صار هذا الأصل للشيخ أبي الحسن بن النّعْمة . واعتنى به عناية جيدة ، وبعد ذلك صار لابن رُشيْد ، ومما قرأه فيه على شيخه المذكور هذا الباب :

« باب الكفن في القميص الذي يكف والذي لا يكف ، ومن كفن بغير قميص . نا مسدد قال : نا يحيى بن سعيد عن عبيدالله قال : حدثني نافع عن ابن عمر ان عبدالله بن أُبَيّ ، لما توفي جاء ابنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم

---

1) او كانت له ام غير مسلمة او زوجة مثلا فليس الحكم قاصرا على العبيد .

فقال : أعْطِني قميصك أُكفّنْه فيه وصلّ عليه واستغفِرْ له ، فأعطاه قميصه فقال: آذِنّي أصلي عليه فأذَنَه ، فلما أراد أن يصلي عليه جذبه عمر رضي الله عنه فقال : أليس الله نهاك أن تصلي على المنافقين فقال : أنا بين خِيرَتَين ، قال : استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، فصلى عليه فنزلت : ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً . نا مالك بن اسماعيل قال : نا ابن عُيَيْنَة عن عمر ، وسمع جابراً[1] قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم عبدالله بن أُبَيّ بعد ما دُفِن فأخرجه فَنَفَثَ فيه من ريقه وألبسه قميصه . قال ابن رشيد : هكذا وقع مضبوطاً في الأصل يُكَفَّ بضم الياء في الحرفين ، وليس الضبط بقلم النسخ ، وكأنه بمداد أبي الحسن بن النعمة ، ولنورد على هذه الترجمة ما حضرني مما لعله يعزّ وجوده فنقول والله المرشد :

قال الامام أبو محمد السفاقسي رحمه الله في شرح البخاري من تأليفه هكذا وقع هذا الباب وضبطه بعضهم بضم الياء وفتح الكاف وتشديد الفاء ، وضبطه بعضهم بإسكان الكاف وكسر الفاء ، وقرأه بعضهم بضم الكاف وتشديد الفاء وضمها . والأول أشبه بالمعنى ، انتهى ما ذكره السفاقسي وليس ما اختار وراءه أشبه بأشبه ولا بمختار ، والضبط الصحيح فيه والله أعلم هو الآخر ، وهو فتح الياء وضم الكاف وتشديد الفاء ، وكذلك وقع في الأصل العتيق ، أصلِ حاتم الطرابلسي وقفت عليه مُعتَنى بضبطه مُجوداً وكذلك جوّده أبو

---

1) ثبت بخط ابن رشيد فى الطرة ما يلي : الالف في جابر ملحقة وأظنها من إلحاق ابن النعمة وهي في بعض الأصول العتق ساقطة والراء مضببة . (مؤلف)

القاسم بن ورْد رحمه الله فيما وجدته في كتابه الذي تولى تصحيحه وتجويده .

ومعناه عندي المعنى الذي فهم البخاري من قوله تعالى : استغفر لهم أو لا تستغفر لهم . وهو الذي قصد البخاري ان شاء الله أي ان النبي صلى الله عليه وسلّم ألبسه القميص وان كان لا يكُفَّ عنه العذابَ إرضاءً لابنه وبرّاً به ، فهو وإن كان لايغني عن الميت بِرضي الحي ، فكأن البخاري يقول : يوخذ من هذا التبرّكُ بثوب الفاضل للميت أثّر في حاله أو لم يؤثر . وما حكاه السفاقسي من ضبط يكف بضم الياء وفتح الكاف وتشديد الفاء ان صحت روايته ، فيكون معناه راجعاً إلى هذا ويكون معناه الذي يكف به عن الميت أو لا يكف أي يُدْرأ عنه ببركته توقّع العذاب أو لا يُدرأ ، ولا يصح ان يراد به سواءٌ كان الثوب مكفوفةً أطرافُه أو غيرَ مكفوفة ، لأن ذلك وصف لا أثر له ، وأما من ضبطه يكف بفتح الياء وسكون الكاف وكسر الفاء فهو لحن ، إذ لا موجب لحذف الياء ولو أراد هذا لقال يكفي أو لا يكفي من الكفاية ويكون راجعاً إلى المعنى الذي قدمناه والله أعلم .

قال ويعضُد ما بيناه من مقصد البخاري أنه قد روي أنه قيل له صلى الله عليه وسلم : لِمَ وجهتَ اليه بقميصك وهو كافر ؟ فقال : ان قميصي لن يغني عنه من الله شيئاً واني أؤمّل من الله أن يدخل في الاسلام كثيرٌ بهذا السبب ، فرُوِيَ أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوا ولده طلب الاستشفاء بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ويوضح ذلك إيضاحاً لا يبقى معه إشكال أنه قد أُلِفَ من عمل البخاري في صحيحه أنه إذا لم يصح عنده حديث الباب ترجم

بلفظه وساق حديثاً له تعلق بالباب يستدل به وربما ترجم بالمعنى مُغمِضاً ، وهذا من ذاك القبيل . ولو ترجم بقوله باب الكفن في القميص الذي يغني أو لا يغني لكان أصرح ، لكنه لما كان الحديث عنده بعيداً عن شرطه عدل عن لفظه إلى معناه والله أعلم » .

ونكتفي بهذا القدر من المباحث الحديثية ، وكان بودنا أن نأتي ببحثه القيم في عبدالله الصّنابحي راوي حديث الوضوء الذي في موطأ الامام مالك ، وما قيل من انه أبو عبدالله لا عبدالله ، تابعي لا صحابي ، وان مالكاً وَهِمَ فيه لما تضمّنه هذا البحث من نقول غريبة من كتب مفقودة ومنها كتاب ابن القطّان مع التعليق عليه لابن الموّاق ، ولكن طوله مَنَعَنا من ذلك ، فلنصرف الوجه إلى أبحاث أخرى للمترجم في اللغة والأدب وما إليهما .

فمِمّا كتبه على خُليص ، منزل نزله بعد رابَغ في توجهه من المدينة المنورة إلى مكّة : « ثم رحلنا عنه (رابغ) منزلاً منزلاً إلى أن وافينا خُلَيْصاً يوم الأربعاء ضحوة الثالث من ذي الحجة (٦٨٤) فقلنا هناك ، ورفعنا عشي النهار وفي وصف خليص أقول من قصيد :

وخُلَيْص اذْ وردنا خِلْصَه فزعى الله أُوَيْقَاتِ الورود

ومطلع القصيد :

اهلَ ودي لا تدينوا بالصدود بذِمام كان في وادي زَرود

وخليص البيت ، وهذا البيت اتفقت فيه موافقة حسنة في التصغير كرّعت في مورد من الحسن لا تُحلّأ عنه ، وذلك ان الشعراء أكثروا من التصغير في محالّ إما لضرورة وزن أو لقصد ضعيف غير قوي ، وربما ندر منهم فيما صدر عنهم ما يُستحسن ، كان شيخنا بحر البلغاء وحبر الأدباء أبو الحسن حازم بن محمد (القرطاجني) يقول وقرأته بخطه : كان أبو الطيب المتنبي مُولَعاً بالتصغير . ولم يوفّق من ذلك إلا في قوله :

ظللت بين أُصَيْحَابي اكفكفه ... وظل يسفح بين العذر والغـزل

فحسن هذا لما كان الموطن مظنة لقلة الصحب فكثيراً ما يستعملون ذكر الخليلين في هذا الموضع .

قلت ووجه حسن البيت الذي أنشدته من طريقين احدهما المناسبة اللفظية فان خليصاً مصغر ، وأويقات كذلك ، والمناسبة اللفظية مما تعتبر ، ومن مُسْتحْسَنِ ذلك قول الأديب البارع أبي عبدالله محمد بن غالب الرصافي رحمه الله :

بلادي التي ريشت قُويْدِمتي بها ... فُرَيْخاً وآوتني قرارتُها وكرا

فحُسْن موقع تصغير القادمة لمكان تصغير فرخ . (الثاني) وهو أقوى اللحظ المعنوي وهو ان أوقات السرور توصف بالقِصَر ، وقد أكثر الشعراء من ذلك حتى قلت :

ولم يزل زَمَنَ الافراح مُختصَراً

من ذلك قول الشريف :

يُولَعِ الطلّ بُردَيْنا وقد نسمت رُوَيْحَةَ الفجر بين الضّالِ والسَلَم

فان لقوله رويحة حسن موقع من النفس ، لأنهم لما كانوا يقولون نسيم عليل ونفس خافت كان تصغير لفظ الريح في هذا البيت مستحسناً مختاراً ولذلك سمعنا شيخنا أبا الحسن رحمه الله يعيب قول ابن عمار :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى — لأن الانبراء كأنه اعتراض بقوة والنسيم من شأنه أن يوصف باللدونة والرقة .

ومن التصغير الذي له طلاوة وحسن موقع قول أبي العلاء صاعد بن عيسى الكاتب :

اذا لاح من برق العقيق وُمَيْضَةٌ تدِقّ عــلى لمح العيون الشوائم

فحسن تصغير الومْضة لما وصفها بالدقة والخفاء ، ومن المستحسن قول أبي العلاء المعري :

اذا شربتْ رأيتَ الماء فيهـــا أُزَيرقَ ليس يستره الجِرانُ

لما وصفها برقة الأعناق ودقتها حَسُن تحقير ما يمر عليها من الماء لضيق مسلكه ، فمقداره لذلك نزر . ومن المستحسن قول عمر بن أبي ربيعة :

وغاب قُمَيْر كنت ارجو غيوبه ورَوّح رُعيان ونوّم سُمّر

فحَسُن تصغير القمر هنا ، لأنه قد دل باخباره أنه غاب عند ترويح الرعيان ونوم السمار على أنه كان هِلالاً . ومما استحسن قول أبي نصر بن نباتة :

فغي الهضبة الحمراء ان كنت سارياً أُغيبِرُ يأوى في صدوع الشواهق

لأن الحيّة توصفُ بالضّؤول والدقّة وحسبك قول النابغة :

فبت كأني ساورَتْني ضئيلـة من الرّقْش في انيابها السم ناقع

ونحو منه قول الشريف :

زال وابقى منـه ورّاثُـــه جُذَيْمَ مال عرقته الحقوق... »

وكتب على الصخرات التي وقف بها النبي صلى الله عليه وسلم بعَرَفة وجبَل الرّحْمة ما يلي : « وهي أعني هذه الصخرات عند الجبل الذي يعتني الناس بصعوده ويسمونه جبل عرفة ، وإنما عرَفَةُ بسيط تحيط به جبال ، وهذا الجبلُ يُسمّى جبل الرحمة وجبل الدعاء . واسمه فى لسان العرب إلاَل على وزن فِعال بكسر الهمزة وذكره صاحب الصّحاح في اللغة بفتح الهمزة وهو خلاف المحفوظ ، وبالكسر ضبطه أبو علي في البارع وقال هو جبل بعرفات ، وكذلك حكاه بالكسر صاحب المُجمَل والمُحْكَم وأبو عُبَيْد وغيره من أئمة هذا الشأن ، قال أبو عبيد : إلال بكسر أوله على وزن فعال ، كأنه جمع

ألّة جبل صغير من رمل عن يمين الامام بعرفة قال النابغة الذبياني :

بِمُصطَبِحات من لِعاب وثَبْرة يَرِدْنَ إلالاً سيرهُن تَدافعُ

وقال طفيل :

فزُرن الالاً لا يُنَحّبْن غيره بكل مُلَبٍّ اشعثِ الرأس محرم

وفي البارع الإلّ جبل رمل بعرفات هكذا ذكره بلفظ المفرد على وزن فعل قال : وكتب هشام بن عبدالملك إلى بعض ولده : « اما بعد فإذا ورد كتابي فامض إلى الإلّ فقم بأمر الناس » فلم يدروا أي ولاية هي حتّى جاء أبو بكر الهُذَلي فقال له هي ولاية الموسم ، وأنشده بيت النابغة المذكور :

ـ يَزُرْنَ إلالاً سيْرُهنّ تَدَافُعُ ـ

وهذا الذي قاله أبو عبيد ونقله كلّه صحيح ، إلا قوله انه جبل رمل فليس كذلك ، وإنما هو جبل مرتفع من حجر صلد وقد نبتت منه أجبل بعضها أكبر من بعض يُسمّى بعضها النَبْعة وبعضها النبيعة بالتصغير جرياً على خيالات العرب في تسمياتها كأنهما نبعتا منه ، ولم نجد من يُعيّنهما لنا لكن التسمية تشعر بتعينهما من جملة تلك الأحجار والصخور الكبار التي هناك ، كما تُعيّن النابتَ منها لأنه ضرس قديم والصخرات التي بإزائه يمكن الصعود عليها . وان تكلف في بعضها إلى أن يحصل الصعود فتكون محلاً حاملاً للراكب والراجل ، وبإزائها قطع من أجبُل الرمال لا يمكن الصعود عليها ، منفصل بعضها عن

بعض ، وأما هذه الصخرات فقريبة الاتصال بعضها ببعض .

قال الامام أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله وجاء في الحديث تسميته جبل المُشاة لكون الرجال تقف عليه وتسمي الأجبل الصغار المذكورة النبعة والنبيعة والنابت وروى مسلم في صحيحه عن جابر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب إلى الموقف فجعل بطن ناقته القَصْواء إلى الصخرات ، وجعل جبل المُشاة بين يديه واستقبل القبلة ، وضبطه غير واحد من المصنفين حَبْل المشاة ، وجعله من حِبال الرمل وهو ما استطال من الرمل مرتفعاً وما ذكرناه من كونه جبل الإلّ هو الصحيح ، وبه شهدت المشاهدة ، وهو الذي ذكره بعض من صنف في الأماكن المتعلقة بالحجيج وروى أبو الوليد الأزرقي في كتاب مكة بإسناده أن موقف النبي صلى الله عليه وسلم كان بين جبل النبعة والنبيعة والنابت ، وموقفه منها على النابت قال والنابت عند النشْزة التي خلف موقف الامام ، وموقفه صلى الله عليه وسلم على ضِرْس من الجبل النابت مضرّس بين أحجار هنالك نابتة من الجبل الذي يقال له الإلّ .

قلت الوجه أن يقول وموقفه إلى النابت لا على النابت . لأن النابت لا يمكن القرار عليه وإنما الوقوف على صخرات مُفَلْطحات بإزائه يكون الضرس النابت منها عن يساره . وقوله في الحديث جعل جبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة هو في التحقيق أميل إلى يمينه ، ولعله التفت صلى الله عليه وسلم للناس ، فصار بين يديه وإلا ففي العبارة بحسب المشاهدة بعض اتساع وتقريب ، وقوله أيضاً فجعل بطن ناقته القَصْواء إلى الصخرات في تخيله اشكال [illegible]ان بطن

الناقة ان اعتبر به جانبها الأيسر فانما يجيء إلى الضرس النابت ، وان اعتبر أسفل البطن فيكون عبارة عن كونه صعد على الصخرات فان الصعود عليها ممكن بالمشاهدة وان احتاج إلى انعراج عند الصعود حتى يتم فيستقر لاتساعها والله أعلم ولم أر من نبه على هذا ... » .

وهكذا كل أبحاثه التي تناول فيها شيئاً من هذا القبيل مركزة على شواهد اللغة والنصوص الأدبية مع مناقشة ما يكون في حاجة إلى المناقشة من هـــذه النصوص والوصول بالبحث إلى نهايته من التدقيق .

ونعرض بعد هذا لبعض اللطائف التي تخللت الرحلة في كثير من صحفها فكانت كمراحل استجمام بين أبحاثها الدسمة فمنها غريبة رابغ التي أشار اليها بقوله :

« ذِكْرُ غريبة عنّت لنا به وما عنت ، بل أغنت في معنى الآية الكريمة وأقنَتْ ، وهي قوله تعالى : (يا أيها الذين آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشيءٍ مِنَ الصَّيْد تَنالُه أيديكم ورماحُكم لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخافُه ورُسلَه بالغَيْبِ) صَحِبني في الطريق من المدينة على ساكنها الصلاة والسلام إلى البيت الحرام أحدُ الشيوخ من شرفاء المدينة فلما وافَيْنا رابغَ ، رأيتُ أمراً عَجَباً من تخلل الوحش ؛ الغزال والأرنب ؛ بين الجِمال والرّحال بحيث يناله الناس بأيديهم، والناس ينادون : حَرام ! حَرام ! والجوارحُ قد سُلِّست خيفة تعدي جاهل، يتعسّف المجاهِل ، فقال لي ذلك الشيخ الشريف : تأمَّلْ تَرَ عَجَباً ! هكذا

جرت عادتنا في هذه الطريق إذا مررنا به ونحن مُحرِمُون نجد به من الوحش ما ترى ، فإذا عدنا مُحلّين لم نجد به شيئاً ، فلما عُدنا كان كما قال فبان لي من معنى الآية ما لم يكن عندي بالمشاهدة » .

ومنها ما رواه عن شيخه ابى اسحاق الفأسى بالهمز المتقدم الذكر قال : «اخبرنى انه سمع الموطأ الليثى (1) على ابن مسدى واجاز له واخبرني انه لما جاء ليسمع عليه الموطأ قال له : لزِمَتْني يمين ان لا اسمعه الا بعشرة دنانير عيْناً ، فقلت له لو جعلت على النّاس في سماعه عشرة فلوس لزهدتهم فيه ولم يكن عندى ماأعطيه فجاء بعض بنى الدنيا ليسمعه عليه فبعث ابن مَسْدى الى فسمعته منه : قال ابنُ رُشَيد : وهذه جُرحة الا ان يتأول عليه انه قصد بذلك تنفيق العلم ».

ومنها ان الوزير ابا الحسن سهل بن مالك الأزْدى الغرناطى دخل عليه جماعة من اصحابه بمُرْسية لما غرّبه ابن هود عن وطنه فقدم اليهم حُوتاً وسمعوا عجوزاً من اهل بيته تقول : هلا قدم اليهم من عُدَيْل التين الطيب الذى سيق اليه ، وكان الوزير في سمعه ثقل فقالوا له يا ابا الحسن هلاّ اطعمتَنا من عُدَيْل التين الذي اهدى لك ؟ فقال ومن اعلمكم به ؟ ثم انشدهم لنفسه :

لو جاء ابليس الى منـــــزلي	سراً عن الناس باحدى الطّرف
اخبرتَني انت بمن ساقهـــا	يا عالمَ الغيب بما في الغُرَف !

1) أي رواية يحيى بن يحيى الليثي .

ولعلنا قد اكثرنا من هذه النقول ولم نعرج بعد على شئ من شعر المترجم فلنكمل الفائدة ببعض آثاره في مَيْدان النظم وان كان ليس بذاك ، فمن قوله في مدح السفر وهو مما اشتهر من نظمه :

فغرّب ولا تحْفِل بفُرقة موطن ... تفُز بالمنى في كل ما شئت من حاج
تلولا اغترّاب المسك ما حلّ مفرقاً ... ولولا اغترابُ الدر ما حل في التاج

وله في رثاء ابن له ثكِلَه بغرناطة :

شباب تَوَى شابت عليه المفارق ... وغصن ذَوَى تاقت اليه الحدائق
على حين راق الناظرين بُسوقُه ... رمته سهام للعيون رواشق
فما اخطأت منه الفؤاد بعَمْدها ... فلا ابصرت تلك العيون الروامق
وحين تدانى للكمال هلاله ... ألَمّ به نقص وجَدّتْ مَواحق
الى الله اشكو ، فهْو يُشكي نوازعاً ... عظاماً سطاها للعظام عوارق
ولا مثلَ فقدان البُنَى فَجِيعته ... وان طال ما حَتّ وحُتّت بوائق
محمدٌ ان الصبر فيك مصارم ... محمد ان الوجد فيك مصادق
محمد ان الصبر فيك مخالف ... محمد ان الوجد فيك موافق
محمد ان الصبر صِبْر وعلْقَم ... على انه حُلْو المثابة سابق
فان جزَعاً فالله للعبد عاذر ... وان جلَداً فالله للوعد صادق
وتالله ما لي بعد عيشك لذة ... ولا راقني مرأى لعيني رائق
واني به والمذْكرات عديدة ... فنُبل وفَهم للعوائد خارق

فان ألتفتْ فالشخص للعين ماثل ... وان استمع فالصوت للاذن طارق

وان ادع شخصاً باسمه لضرورة ... فانْ اسمك المحبوب للنطق سابق

وان تقرع الابواب راحةُ قارع ... يطِر عندها قلب لذكرك خافق

وكلّ كتاب قد حويت فمُذْكِر ... وآثاره كلّ اليك توائق

سبقتَ كهولا في الطفولة لا تني ... وارهقت اشياخاً وانت مراهق

فلو لم يغلُلْك الموت مت مُجلْياً ... واقبل سُكّيتاً وَجِيهٌ ولاحِق

على مهل احرزت ما شئت ثانياً ... عِنانَك لا تجهد وانت مسابق

رأتك المنايا سابقاً فاغرتها ... فجُدّ طِلاباً ابهنّ لواحق

لئن سلبت مني نفيسَ ذخائر ... فاني بمذخور الاجور لواثق

وقد كان ظني انني لك سابق ... فقدْ صار علمي انني بك لاحق

غريبين كُنا فرّق البين بيننا ... بِأبْرح ما يلقى الغريب المفارق

فبَيْن وبُعد بالغريب توكّلا ... فذرعي بما حُملت والله ضائق

عسى وطن يدنو فتدنو مُنىً به ... واي الاماني والخطوب عوائق

فلولا الاسى ذاب الفؤاد من الاسى ... ولولا البكى لم يحمل الحزن طائق

يخط الاسى خطاً تروق سطوره ... ويمحو البكى فالدمع ماح وماحق

فيا واحداً قد كان للعين نورَها ... أكلّ ضياء بَعد بُعدك غاسق

عليك سلام الله ما حنّ عاشق(1) ... وما طلعت شمس وما ذر شارق

---

1) في الأصل بخط الناظم : غاسق ولا شك انه سبق قلم .

وما همَعت سُحْبٌ غوادٍ لوائح وما لمعت تحدو الرعود البوارق
وجاد على مثواك غيث مُروّض عِهادٌ لرضوان الالاه موافق

وهذه القصيدة تفيض لوعة وحزنا وان لانت شيئا من ناحية الصناعة وذلك هو قول ابن الخطيب فيه : «وله شعر يتكلّفه اذ كان لايزن اعاريضه الا بميزان العروض» على ان مصراعها الاول مما يقصر عنه الفحول ، وفيها ابيات اخرى لاتقصر عن مدارك البلغاء .

ويالسخرية الاقدار ان كان هذا الولد المرثى هو ابنه ابو القاسم الذي طالما استجاز له المشائخ في رحلته ولاختيه عائشة وأمَة الله ، فهو كان يريده سابق زمانه ، والاجل لم يمهله لبلوغ اوانه ، على انه سماه في القصيدة محمداً ولا مانع ان تكون ابو القاسم كنيته ، ولله الامر من قبل ومن بعد واليه المرجع والمآب .

أبو موسى الجزولي

الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

AD 1994 - H 1414

دار الكتاب المصري

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة - ج.م.ع

ت: ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٣٤٣٠١ - ص ب ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١

برقيا: كتامصر - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)

TELEX No: 23081-23381-22181-21881

ATT: MR.HASSN EL-ZEIN

FAX: (202): 3924657

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول

ت: ٨٦٠٧٩٢ - ٨١١٥٦٣ - ص ب: ٨٣٣٠ / ١١

برقياً «دكالبان»

TELEX: DKL 23715 LE

FAX (9611) 351433 بيروت - لبنان



19

أبو موسى الجزولي

بقلم

عبد الله كنون

دار الكتاب المصرى
القاهرة

دار الكتاب اللبنانى
بيروت

ابو موسى الجزولى

اسمه ونسبه من جهة أبيه وأمه ـ تفسير معاني بعض الاسماء البربرية ـ طلبه للعلم وتجوله في البلدان ـ استقراره بمراكش ـ من أخذ عنه من العلماء ـ النهضة العلمية في عصره واسهامه فيها بانهاض علم النحو ـ مقدمته النحوية وقيمتها ـ كلام الناس فيها ـ بقية كتبه ـ شهرته واتصاله بالسلطان ـ وفاته ومدفنه .

عيسى بن عبد العزيز بن يلبخت بن وَمَارِيلى الجُزولي اليَزْدَكْتَنِي ، ابو موسى الامام النحوي المشهور .

اسم جده الادنى يلبخت بفتح الياء وتشديد اللام ، وهومركب من يلا والبخت ، ويلا في لغة اهل سوس بمعنى له او عنده فهو يعنى صاحب البخت ، واسم جده الاعلى وماريلى بفتح الواو التي بمعنى ابن ثم ميم والف وراء وياء مد ولام وياء مد فهو ايضا اسم مركب من ابن و (ماريلى) كذا ضبطه في كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي ، نسخه العلامة المؤرخ السيد عباس بن ابراهيم قاضي مراكش ، ولم يفسر معنى ماريلى كما فسر الالفاظ الاخرى .

وجعل ابنُ خلكان يللبخت بلامين مفتوحة فساكنة مفكوك الادغام ، وأما الجد الأعلى فهو عنده يومار يلي بياء مضمومة بعدها واو ساكنة .

والجزولي نسبة إلى قبيلة جُزولة من قبائل سوس المشهورة بكثْرة من نبغ منها من أهل العلم والفضل ، والمعروف فيه الفتح وان كان ابن خلكان يقول بضم الجيم ، ويقول ابن عبد الملك بقاف معقود مضموم ، والقاف المعقود هو الجيم المصرية ولكن ان كان هذا يجري في اسم القبيلة فان الجاري على الألسنة في النسبة اليها هو الجيم المفتوحة كما في اسم نسيبه محمد بن سليمان الجَزولي صاحب كتاب دلائل الخيرات وغيره ، فقد عرب هذا الاسم أو بالأحرى هذا النسب ولم يبق لحكاية الأصل فيه موجب .

واليزدكتني بفتح الياء وإسكان الزاي وفتح الدال وإسكان الكاف وفتح التاء ونون ، نسبة إلى بطن من جزولة .

وذكر ابن عبد الملك اسم أمه أيضاً وهو تيلمان بتشديد اللام بنت تيفاوت ، ويقول ان تين بمعنى صاحبة فركبت مع الامان وسمي بها ، وان تيفاوت معناه الضياء فان كانت تين فيه بمعنى صاحبة أيضاً فهو اسم جدته لأمه ... وهذا الأمر أعني ذكر اسم أم المترجم من أندَر شيء في كتب التراجم ، وما أرى ابن عبد الملك ذكره إلا للإغراب بتفسير معناه أو لأنه كان مشتهراً بأمه في الوسط المراكشي كما يحدث أحياناً في بعض الأعلام .

ولد أبو موسى بإيـدا وغَـرْدا من جزولة سنة ٥٤٠ وإيدا بكسر الهمزة معناه

طائفة ثم واو مفتوح بمعنى ابن فغين مفتوحة فراء ساكنة بعدها دال غُفْل هذا الاسم معناه الفار ، واصلة اغردا بمد أوله ولكنه يخفف بحذفه ، والمقصود ان هذا الموضع يعرف ببني الفار وهو كالفخذ من البطن قبله ، فما أشبه تقسيم القبيلة وأسماءها في البربرية بهما في العربية ، ولتقرير هذا الشبه تتبعنا ذكر معاني هذه الألفاظ وليس الامر كذلك في الفارسية مثلاً فان كثيراً من أسماء الأعلام التي فسرت في تراجم أصحابها تعطي معاني غير ذات موضوع في العربية .

ولم يذكر أحد من المؤرخين تاريخ رحلة ابي موسى للمشرق ولا شيئاً عن نشأته وطلبه للعلم في بلاده ، بل الذي يستفاد من ابن عبد الملك أنه لم يأخذ في هذا الشأن حتى حجّ وحضرَ مجلس ابن بَرّي بمصر ، قال : « شرّق أبو موسى وحج وحضر بمصر مجلس ابي محمد عبدالله بن أبي الوَحْش بن عبد الجبار بن بَرّي رئيس النحويين بالبلاد المصرية والمرجوع إليه في وقته في علم العربية ، وأبو موسى لا يُحْسِنُ شيئاً من النحو ، فبِحُبّه في العلم ومواظبته على الطلب لم يمرّ له إلا القليل حتى فَهِم الطريقة وتكلم فيها مع أربابها » انتهى بتصرف قليل مُوجِبُه بعضُ المحو الموجود في النسخة المنقول عنها .

فهذا ما يقوله ابنُ عبد الملك في الذيل والتكملة عن نشأته العلمية ، وهو صريح في أنه لم يكن له إلمام بالعلم وعلى الأقل بصناعة النحو قبل مغادرتِه للمغرب ، وكيفما كان فان عُمْدَته في هذا العلم وتخرّجه إنما كان على يد شيخه ابن برّي المصري [1] ومِن ثمّ فان حياته العلمية إنما بدأت في مصر .

1) وفي ترجمة ابن بري من بغية الوعاة أنه قرأ على الجزولي وهو سهو ظاهر .

قال ابن عبد الملك : « وعكف على قراءة النحو عند أبي محمد بن بَرّي وقرأ عليه تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر اسماعيل بن حماد النيسابوري الجوهري وكتبه بخطه وروى أيضاً هنالك عن مهذب الدين ابي المحاسن مُهلّب ابن الحسن بن بركات بن علي بن غياث بن سلمان المُهلّبي النحوي اللغوي وبالاسكندرية عن أبي الطاهر السِّلَفي وابي حفص عمر بن أبي بكر بن ابراهيم التّميمي السعدي الصّقِلّي ثم قفل إلى المغرب فأقام بجزائر بني مَزْغَنّا (هي عاصمة الجزائر اليوم) أخذ بها عن أبي عبدالله بن إبراهيم أصول الفقه ولزمه حتّى أتقنه ودرس أثناء مُقامه بها العربية فأخذ عنه بها حينئذ أبو زكرياء يحيى ابن مُعْطِ بن عبد النور الزّواوي المستوطن بعدُ دِمَشْقَ المدعو هناك بزَيْن الدين ناظم الارجوزة المهذبة في النحو الموسومة بالدرة الألْفية في علم العربية ، وأبو عبدالله محمد بن قاسم بن مَنْداس وأخذ عنه بها أو بغيرها من بلاد افريقية أبو زكرياء يحيى بن علي بن الحسين بن حَبُوس الهمداني وأبو عبدالله محمد ابن علي بن بُلَقّين القَلْعي .

ثم أجاز البحر إلى جزيرة الأندلس فكتب بالمَريّة زماناً وأخذ عنه بها من أهلها جماعة منهم أبو اسحق بن غالب وأبو عبد الله بن أحمد ابن الشوّاش ثم عاد إلى العُدْوة وأخذ عن أبي محمد الحَجْري واستوطن مراكش وانتصب فيها لتدريس العربية فأخذ بها عنه أبو ادريس يعقوب بن يوسف الصنهاجي وأبو اسحق بن القشّاش شيخُنا وأبو بكر عبد الرحمن بن دحمان وأبو الحجاج ابن علاءِ النّاس وأبو الحسن بن القطّان وأبو زيد المكادي ... » .

وهكذا رحل أبو موسى إلى المشرق وغادر بلاده وهو نَكِرة من النكرات فلم يَعُدْ إليها إلا وهو علم من أعلام العربية يشار اليه بالبنان ويتنافس في الأخذ عنه أينما حل من البلدان ، وقد نشر علماً كثيراً في طريق عودته إلى المغرب بافريقية والأندلس وتخرج به الكثير من نحاة هذا البلد فلا نجد في عصره مُحقّقاً من أهل الفن ولا مُلِمّاً بأسرار العربية سواء في قُطر افريقية أو الأندلس بَلْهَ المغرب إلا مَن كان من تلامذته أو من تلامذتهم .

... فهذا الغُبريني يقول في عُنوان الدراية عن شيخه أبي عبدالله محمد بن الحسن بن علي بن ميمون القَلْعي : « كان في علم العربية بارعاً مُقدّماً محكماً بفنونها الثلاثة : النحو واللغة والأدب ، وكان له درس يحضره من الطلبة فضلاؤهم ونبهاؤهم وتجري فيه المذاكرات المختلفة في التفسير والحديث وأبيات الغريب وغيرها ، وتمضي في ذلك من المعاني المنقحة ما لا يكاد يوجد مثله في نوادر الكتب ، وكان رحمه الله قوياً في علم التصريف ومحبا في التعليل وكان جارياً فيه على سنن ابي الفتح بن جِنّي وكان كثير التلامذة والاصحاب وتقرأ عليه جميع الكتب النحوية واللغوية والادبية ويقوم على جميعها احسن قيام وهوافضل من لقيت في علم العربية » ، وشيخه هذا كان ممن اخذ عن ابي عبد الله ابن منداس تلميذ الجزولي الذي تقدم انه اخذ عنه بالجزائر .

...ويقول الغبريني ايضاً: «وحدثني بكتاب القانون لابي موسى الجزولي الفقيه ابو عبد الله يعني ابن ميمون القلعي المذكور عن ابي عبد الله محمد بن قاسم بن منداس النحوي من اهل الجزائر عمَل بجاية واصله من أشِير اخذ العربية عن

ابي موسى الجزولي المذكور لقيه بالجزائر سنة ٥٤٣ » ،وقد تعمدنا ذكر هذا النقل لما فيه من زيادة النص على ما كان لابي موسى من فضل في تجديد سَند العربية بأقطار المغرب في القرن السادس ، وإنشاء المدرسة النحوية التي تهتم بالتقنين والتعليل ، ولننبه ايضا على ما فيه من غلط تاريخي ربما كان منشأه الخطأ المطبعي وهو كون ابن منداس لقي الجزولي بالجزائر سنة ٥٤٣ ! وهذا امر لا يمكن بالنظر الى تاريخ ولادة الجزولي التي كانت كما سبق عام ٥٤٠ فضلا عن ان بقية كلام الغبريني ينقض بعضها بعضا .

فقد قال عقب ما تقدم : «وتوفي ابو عبد الله بن منداس في اول المحرم سنة ٦٤٣ وولد اول ليلة من جمادى الاولى سنة ٥٥٧ وهو ابن ست وثمانين سنة الا شهراً» ، فكيف يكون ابن منداس لقي الجزولي سنة ٥٤٣ وهو لم يولد الا سنة ٥٥٧ ؟ الحاصل ان هذه النبذة التاريخية من كلام الغبريني فيها تخليط كثير ، ومع ذلك فقد اعتمد عليها كاتب ترجمة الجزولي في دائرة المعارف الاسلامية (وهو نفسُه ناشرُ الغُبريني) وقال كان في الجزائر عام ٥٤٣ (١١٤٨ — ١١٤٩) ولم يكن يلزمه الا قليل من التأمل ليعرف ان ذلك غير ممكن وان النص فيه تحريف .

واستقر الجزولي بمراكش وهي يومئذ عاصمة الدولة الموحِّدية ، اعني عاصمة الاندلس والمغرب والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ، أزهى ما كانت حضارةً وتقدماً في العلوم والمعارف في عصر يعقوب المنصور واسطة عِقْد هذه الدولة الذي ملأ صيتُه الخافقين ، وكانت مراكش في عهده تعج

بكبار العلماء من الاطباء والفلاسفة والفقهاء والادباء واهل النظر في كل صناعة وفن ، فلا جرمَ ان يتديرها ابو موسى وهو النحوي الممتاز بجودة الفكر وحسن التعليل فيكون إحدى دعائم النهضة التي شملت كل ميدان من ميادين النشاط العقلي في البلاد .

ومن طبيعة النهضة اذا وُجِدت انها تعمُ جميع مظاهر الحياة للامة ، وانها تكون ذات نزعة خاصة تجذب اليها النظراء والأمثال ، فالنحوي الذي يُعايِش مثل الطبيب ابن زُهر والفيلسوف ابن رشد وعشرات الفقهاء المجتهدين والادباء المبتكرين لا بد ان يكون من طِراز ابي موسى ذا طريقة جديدة في النحو تُلائِم طبيعة النهضة العتيدة في اخضاع النحو وهو العلم النَقْلي للقياس العقلي وتعليل قواعده واحكامه ، كما تُعلَلُ قواعد المنطق واحكامه ، ومن ثم كان ابو موسى منشئ مدرسة نحوية تخرج فيها الكثير من علماء الفن وتردد صداها في الاقطار العربية شرقاً وغرباً مدى اجيال عديدة .

ولسنا نزعم انه اتى بنحو جديد ولا أنه أدخل اصلاحا على النحو مما يتطلبه الجيل الحاضر الذي يميل الى التبسيط كثيراً في قواعد هذا العلم ، ولكن الذي نحقق ان الجزولي عَمِله هو انه عمَد الى طريقة بعض اوائل النحويين الذين كانوا يميلون الى تعليل بعض قواعد النحو والنظر اليه على انه علم ذو قوانين محكَمة فتوسع فيها ومزجها بشيء من المنطق ، وكان وكْدُه ان يجمع اكثر ما يمكن من احكام هذا العلم في اقلِّ ما يمكن من الالفاظ فبلغ الى مراده من ذلك واوفى عليه .

ولا نظن ان مُقَدمته ، واسمُها هذا اصطلاح من اصطلاحات المنطق ، وكذا القانون اسمُها الآخَر تَقصُر عن اوسع كتب النحو جمعا او تَقِلَّ عن اكثر مؤلفات من قبله من النحويين استيعابا ، هذا على صِغَر حَجْمها ولُطْف جِرْمها بحيث تُسمّى الكرّاسة ايضا ، بل إننا نرى انها اشتملت على حقائق ودقائق قلما توجد في غيرها من الامهات ، وهذا ما جعل لها مقاما خاصا بين كتب هذا العلم وجعل المختصّين به ينظرون اليها نظر اعجاب واكبار .

يقول ابن خلكان عنها في ترجمته له : « كان اماماً في علم النحو كثير الاطلاع على دقائقه وغريبه وشاذه ، وصنف فيه المقدمة التي سماها بالقانون ولقد اتى فيها بالعجائب وهي في غاية الايجاز مع الاشتمال على كثير من النحو ولم يُسبَق الى مثلها ، واعتنى بها جماعة من الفضلاء فشرحوها ، ومنهم من وضع لها امثلة ومع هذا كله فلا تُفهَم حقيقتها ، واكثر النحاة ممن لم يكن اخذها عن موقف يعترفون بقصور افهامهم عن ادراك مراده منها فانها كلها رموز واشارات ، ولقد سمعتُ من بعض ائمة العربية المشار اليه في وقته وهو يقول أنا ما اعرِف هذه المقدمة وما يلزم من كوني ماعرفها اني لا اعرف النحو، وبالجملة فقد ابدع فيها » .

ويقول السيوطي في بُغْية الوعاة : «وله المقدمة المشهورة وهي حواشي على الجمل للزجاجي ، وقال بعضهم ليس فيها نحو وانما هي منطق لحدودها وصناعتها العقلية» ثم انشد للشيخ مجد الدين بن ظهير الإرْبلي فيها :

مقدمةٌ في النحو ذاتُ نتيجــة تناهتْ فأغنت عن مقدمة اخرى
حبانا بها بحرٌ من العلم زاخرٌ ولا عَجَبٌ للبحر ان يقذفَ الدّرا

ويقول ابن مالك في شرحه لها كما بكشف الظنون : «ان كتاب القانون في النحو للشيخ الامام الفاضل عيسى ابي موسى الجزولي وان كان صغير الحجم لكنه كثير العلم ، مستعص عن الفهم ، مشتمل على لباب الادب ، مُنْطوٍ على سر كلام العرب متضمن للنكات الغريبة التي خلا عنها اكثر شروح النحو ورأيت اكثر اهل عصرنا مائلين إلى حفظه لكنهم يعجزون عن فهمه حتى ظن بعضهم به انه منطق او ان اكثره منطق وليس فيه مايتعلق بالبحث المنطقي سوى فصلٍ نَزْر من اوله ، وقد كنت اكثرت من تتبع الفاظه فاقبلت على شرحه».

فهذه اقوال ائمة النحو وجهابذة الفن تُثْبِتُ ماقلنا من ان الجزولي اتى في مقدمته بما لم يكن معهودا لديهم وانه امتاز بطريقة لخّصَتْ قواعد هذا العلم واحكامه تلخيصا بحيث ضمّن المقدمةَ وهي اوراق قليلة ما لا يكاد يوجد في الكتب الامهات من اسرار العربية ونِكَات النحو ، وذلك ما جعل ابن عرفة يقول انها تكفي المجتهد في مادة النحو على ما نُقِل عنه ونَاهيك به ! ...

على انه اذا كان لكل شيءٍ ضد فان هناك من النحاة من لم يكن يرى لها هذه القيمة كالأغْمَاتي النحوي المترجم في عنوان الدراية الذي يقول عنه احدُ تلامذته انه كان من اعلم الناس بكتاب سيبويه واعرفهم بمقاصده واشدهم تنظيرا لمسائله ، وأما كراسُ الجزولي ومُفَصّل الزمخشري فكانا عنده من المبادي فنزلت المقدمة عند هذا الرجل وقد علَتْ عند غيره حتى عزت على التناول .

ويرى بعضُهم ان ما فيها من صناعة المنطق جعلها تستعصي على الفهم ويبالغ غيره فيقول ان ليس فيها نحو اصلا وانما هي منطق خالص والانصاف هو ما قاله ابن مالك رحمه الله من ان ما يتعلق بالبحث المنطقي فيها فصل نزر في اولها يعني وان كان ذلك لا ينفي الصّياغـَة المنطقية الّتي صيغت بها من الحدود والتعاريف والقضايا الكلية الّتي تنطبق على الاحكام الجزئية .

والفصل الذي يشير اليه ابن مالك هو هذه الجمل الواقعة في افتتاح المقدمة ونصها : «الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع ، كلّ جنس قـُسـِم الى انواعه او نوع قسـِم الى اشخاصه ، فاسمُ المقسوم يـَصدقُ على الانواع وعلى اشخاص الانواع ، والا فليست الانواع انواعاً له ولا الاشخاصُ اشخاصاً لتلك الانواع ، الاسم كل كلمة تدل على معنى في نفسها ولا يـَتعرّض لزمانِ وجودِ ذلك المعنى ...» فهذه النبذة هي ما يتعلق بالبحث المنطقي الخالص من المقدمة .

ولعله انما اتى بها في الافتتاح لينبه على وجوب ملاحظة تلك القاعدة في كل حكم يأتي به فيما بعد ، يدل على ذلك ما ذكره ابن قنفذ في وَفـَياته من ان الاستاذ ابا عبد الله بن حـَياتي وكان له تحقيق في النحو والقراآت ، طلب منه بعضُ الناس ان يقرأ عليه الجزولية في النحو، فاخذها الاستاذ في يده وقصد الشيخ ابا العباس بن الشمّاع المراكشي لمعرفته بفن المنطق ، وقرأ عليـه

استفتاحها في الجنس والنوع قال : وانا حاضر ثم قرأها في عشية يومه وعُدّ ذلك من انصافه وتحقيقه رحمه الله .

هذه ناحية المنطق في الجزولية، وثمّ ناحية اخرى نرى ان لها دَخَلاً كبيرا في صعوبة فهمها وصِغَر حجمها وهي خلوها من التطبيق، فانها كلها احكام متتابعة متلاحقة ، ولا شيءَ مما يوضح هذه الاحكام من الامثلة والشواهد التي درّج النحاة على ايرادها وتوضيح المراد بها حتى انهم يقولون بالمثال يتّضِحُ الحال ، وليس في المقدمة تطبيق من هذا القبيل الا في مواضع قليلة جدا ، وذلك ما حدا ببعض المعتنين بها ان يضع لها امثلة كما قال ابن خلكان . وهي بالامثلة المطلوبة والشواهد المقتضاة قد تبلُغ ضِعْفَ عددِ اوراقها فتصير الكراسة كراستين ، ولكنها مع ذلك بالنظر الى ما احتوته من المعلومات والفوائد النحوية تبقى مُركّزة تركيزا تفوق به كثيرا من المطولات في هذا العلم .

ولعل من المفيد جدا ان ننقل فصْلاً من فصولها يكون نمُوذَجا لاسلوبها وجمعها فانها نادرة الوجود ولم ينشر منها شيءٌ الى الآن (١) وقد توخينا ان يكون الفصل المنقول وسَطًا بين السهولة والامتناع ، وهو فصل الابتداء ، قال فيه :

«باب الابتداء . الابتداء جعلُ الاسم اول الكلام معنى مسْنَداً اليه الخبر ،

١) ونحن ننقل عن نسخة المكتبة التيمورية التي هي من أحسن النسخ خطاً وأتقنها ضبطاً وان لم تخل من تحريف في بعض المواضع ، وقد بعث لنا بمصورها صديقنا الأستاذ العالم الباحث السيد محمد بن تاويت الطنجي ، فنشكره على ذلك أحر الشكر .

وبه يرتفع المبتدأ والخبر جميعاً بشرط التّعرِيَة عن العوامل اللفظية والمبتدأ معتمَد البيان والخبر معتمَد الفائدة .

ويكون المبتدأ معرفة ونكرة ، فالمعرفة بلا شرط والنكرة بشروط ، منها الاعتماد على حرف نفي او استفهام او ظرف هو الخبر ، ومنها الاختصاص ومنها العموم ومنها كون الكلام في معنى كلام آخر لا يُخِلّ بمعناه كونُ الاسم فيه نكرة ومنها ان يكون في النكرة معنى الدعاء .

خبر المبتدأ مفرد وجملةٌ ،فالمفرد ثلاثة اقسام قسم هو المبتدأ وينقسم قسمين جامد ومشتق ، ويلزم الضمير في المشتق ، وقسم اقيم مقام شيءٍ هو المبتدأ مبالغة في التشبيه ، وقد يكون معه لا فيه ضميرٌ يعود على المبتدأ وقد لا يكون ، وقسم هو معمول لما هو المبتدأ او واقع موقعه وهو الظرف ويلزم فيه ضمير يعود على المبتدأ .

الجملة اما اسمية واما فعلية وكلتاهما لا بد فيها من ضمير يعود على المبتدأ لفظاً او نية الا ان تكون في المعنى نفسَ المبتدأ وربما حُذِف الضمير للعلم به كما انه ربما حذف المبتدأ مرة والخبر اخرى لدّلالة السياق عليه .

والمبتدأ مرتبته التقديم على الخبر ثم قد يُوضع غيرَ موضعه وقد يلزم فيه الاصل وقد يلزم فيه الفرع ، وموضع لزوم الاصل اذا كان المبتدأ ضمير الشأن والقِصّة او مُتضمّنا معنى حرفٍ له صدرُ الكلام او مضافا الى ما يتضمنه او كان معه لام التوكيد او ما التعجبية او كان الخبر محذوفا والمبتدأ معرفة او كانا

معرفتين او نكرتين متساويتي المرتبة بُعْداً عن المعرفة ودُنُواً منها او كان المبتدأ مشتبها بالخبر وقد يخرُج هذا ايضاً عن اصله في الشعر او كان مخبراً عنه بفعله وربما استُجيز خروجُ هذا ايضاً عن اصله في الكلام وهو ضعيف نحو قاما اخواك على ان الالف ضمير .

وقد يلزم اخراجُ الخبر عن اصله وذلك ان كان مفردا وفيه معنى الاستفهام او كان ظرفاً لا يُسوّغ الابتداء بالنكرة سوى تقديمه عليها او كان المبتدأ متصلا بضمير يعود عليه او على شيْ في الخبر او كان المبتدأ هو أن المفتوحة وما عمِلَت فيه او كان محذوفاً والمبتدأ نكرة لا يبتدأ بها ما لم يتقدم عليها ظرف هو خبر لها ...

هذا فصل من أقرب فصول المقدّمة تَناولاً واقلّها تعليلا ، ومع ذلك فهو ممتلئْ اشد ما يكون الامتلاءُ بالقواعد والاحكام وخالٍ مما يُوضّح شيئا من ذلك بحيث لابد لفهمه من الشرح والبيان وقراءته جملة جملة ثم تنزيل كلّ جملة على ماتصدق عليه من الامثلة والشواهد ، وهي غير موجودة فيه ، فتُطلَب من خارج وذلك منشأ الصعوبة في المقدمة كما قلنا .

ولقد كان قوم من النحاة قبل الجزولي يتوخون فلسفة هذا العلم والمزْج بينه وبين المنطق ، منهم الرّماني الذي قال فيه ابو علي الفارسي ان كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء ، وان كان ما نقوله نحن فليس معه منه شيء ، وهذه كلمة شبيهة بما قيل في الجزولية على ما تقدم عن ابن خلكان ،

وكان ابو علي الفارسي قد صنّف لعَضُد الدولة ابن بُوَيْه كتاب الايضاح في النحو فاستقصره عضد الدولة وقال : ما زدت على ما اعرف شيئا وانما يصلح هذا للصبيان ، فمضى وصنّف التكملة وحَملها اليه فلما وقف عليها قال : غضب الشيخ وجاء بما لا نفهمه نحن ولا هو ، فوقع ابو علي فيما عابه على الرمّاني !

وهذا شأن النحو بل العلم النَقْلي كلّه ، ان ذهبتَ تُعلّله وتفلسفه فانه يفسُد ولا يبقى عليه رونق ، فهو اما ان يكون مما يصلح للصبيان كالاجُرّومية وايضاح ابي علي وكالإقناع لابي سعيد السّيرافي الذي قيل فيه وضعَ ابو سعيد النحوَ على المزابل بكتاب الاقناع يعنون انه سهّلَهُ جدا فلا تحتاج الى مُفسّر ، واما ان يكون هكذا مما يتضجّر منه الناس .

ونرجع الى قول السيوطي في المقدمة انها حواشٍ على الجُمل للزجاجي فلا نرده الا بأن الحاشية تكون توضيحا (للمَتْن) ومُسايرة له في ابوابه ومقاصده ، وليست المقدمة كذلك مع الجُمَل لانه احرى ان يكون توضيحا لها ولا يقابِلُ ما فيه من السهولة الا ما فيها من الامتناع ، على ان ترتيبها مخالِفٌ لترتيبه في كثير من الابواب ، ولم يُذكَر فيها الجُمَل الا مرة واحدة ، وهذا فضلا عن اختلاف الاسلوب والمادة في غالب الاحوال ، ولولا خشية التطويل لنقلنا على وجه المثال باب الابتداء من الجمل لنرى عظيم الفرق بينها وبين باب الابتداء في المقدمة .

ثم ان هذا القول لم ينفرد به السيوطي فقد قاله قبله ابنُ الأبّار في التكملة

ونصه : «وله مجموع على الجُمَل كثير الفائدة متداول يسمى بالقانون وقد نسب الى غيره »،ويُرَدّ عليه بمثل ما رددنا به على السيوطي الذي كان في تعبيره اصرح من ابن الابار فجعل المقدمة حواشي على الجمل على حين ان ابن الابار انما عبر عنها بمجموع على الجمل .

والقول الذي هو اغرب من هذا كله ما اشار له ابن الابار بقوله : «وقد نسب الى غيره »، يعني ان هذا المجموع المسمى بالقانون ليس من تأليف الجزولي وانما انتحله انتحالا ، ويفسر ذلك ابن خلكان حين يقول : « وذكر بعضُ المتأخرين في تصنيفه انه كان قد قرأ الجُمَل على ابن بَرِّيّ وسأله عن مسائل على ابواب الكتاب ، فأجابه ابن برى عنها وجرى فيها بحث بين الطلبة حصل منه فوائدُ علقها الجزولي مفردة فجاءت كالمقدمة فيها كلام غامض وعقود لطيفة واشارات الى اصول صناعة النحو غريبة ، فنقلها الناس عنه واستفادوها منه ، ثم قال هذا المصنف : وبلغني انه كان اذا سئل عنها هل هي من تصنيفك ؟ قال : لا ، لانه كان مُتورعاً ، ولما كانت من نتائج خواطر الجماعة عند البحث ومن كلام شيخه ابن بَرّى لم يَسَعْه ان يقول هي من تصنيفي وان كانت منسوبة اليه لانه هو الذي انفرد بترتيبها ».

وأفصح عن ذلك ابنُ الزّبَير في صِلَة الصّلة فقال : « وهو جالب الكراسة المشهورة في العربية ، يحمِلُ عن ابي محمد بن بَريّ نَحْوِيّ الديار المصرية قرأ عليه ولازمه في رحلته ، ومن كلام ابن برى المذكور على الجمل علّق ذلك التأليف المنسوب عند كثير من الناس الى جالبه ابي موسى الجزولي ...».

وقد ردد الاستاذ ابنُ شنَب هذه التهمة في دائرة المعارف الاسلامية ونحن نحمد الله على ان المؤرخ النقاد ابن عبد الملك المراكشي قد كفانا موُونة الرد على هذا القول في كتابه الذيل والتكملة ، فنورد كلامه في ذلك مقتصرين عليه .

قال : «وله مُصنّفات في النحو مفيدة اشهرها التقييد المحاذِي به ابواب الجُمل للزجاجي المسمى بالاعتماد وبالقانون ايضا الجارى عليه بين الناس اسم الكرّاسة الجزولية ، ومن الناس واكثرهم من الأندلسيين ينسُبها لشيخه ابي محمد بن برّى ويُذكَر عن ابي موسى انه كان يقول انها جَمْعُ تلامذةِ ابي محمد بن برى حسبما لَقِنُوه عنه ، ومنهم من ياثرُ عن ابي موسى انها من املاءات ابن برّى على ابواب الجمل وان ابا موسى كمّلها ... وكل ذلك مما لا ينبغي التعريج عليه وانما هي تقوّلات حسَدَتِه النافسين عليه ، والا فلم تعرف الا من قِبَل ابي موسى وقد اخذَها الناس عنه ودرسهم اياها ولم تشهر الا له وقد وقفت على خطه في نسخ منها محمّلا اياها بعض آخذيها عنه ، ولم يأت بها احد زاعما انه اخذها عن ابن برى على كثرة تلاميذه والآخذين عنه الى عصرنا هذا ، ولم يزل ابو موسى يتولى تهذيبها وتنقيحها والزيادةَ فيها والنقصَ منها وتغييرَ بعض عباراتها حسبما يؤديه اليه اجتهاده ويقتضيه اختباره ، وشهيرُ ورعه يزَعُه عن التعرض الى مثل هذه التصرفات في غير مُصنّفه ، اللهم الا ان يكون ابن برى قد اذن له في ذلك وهو بعيد ان لم يكن باطلا لماَ تقدم من انه لم يات بها احد عنه ، ولا نسبها اليه منذ مائة وثلاثين سنة او نحوها وهلُمّ جرّا ... وعلى الجملة فانه كان راسخ القدم في النحو ولا سبيل الى انكار ذلك ومصنفاتُه تشهد بذلك ...».

انتهى كلام ابن عبد الملك في هذا الصدد وهو واضح في ان حسَدته وخصوصا من الاندلسيين الذين كانوا يضنون بكل شيء جميل على المغرب، والمغاربة[1] هم الذين أشاعُوا هذه الشائعة ، ويؤيده ما في رحلة ابن رُشَيْد نقلا عن برنامج شيخه ابي جعفر اللبْلي فقد ذكر الجزولية وقال انه سمعها تفقّها باشبيلية على الشّلَوبين قال : ولم تكن له فيها رواية لانه كان يعتقد فيها انها ليست لأبي موسى وما ظنّه غير صحيح قال : وقد بينت ذلك في البرنامج الكبير ، فالشلوبين اذن هو ممن روّج هذه التهمة ، واذا عرفنا انه ممن غمَرَه ابو موسى بعلمه فلم يكن له معه ظهور — على مايأتي قريبا — لم نستغرب ان يصدر منه ذلك .

ولأبي موسى تآليف اخرى غيرَ المقدمة وهي حسب ماعند السيوطي وابن خلكان وابن عبد الملك ودائرة المعارف الاسلامية سبعة بدون المقدمة :

١) أمالي في النحو .

٢) شرح على المقدمة .

٣) شرح على الايضاح لأبي على الفارسى .

٤) شرح على شواهده .

٥) شرح على اصول ابن السرّاج

---

١) نتذكر هنا قول ابن الابار في ابن المناصف : « وذكره في الغرباء لا يصح ضنانة بعلمه على العدوة » .

٦) شرح على قصيدة بانت سعاد .

٧) مختصر شرح الفَسْر لابن جِنِي على ديوان المتنبي .

ثم تنبيهات وتعليقات على الكتاب لسيبويه والمفصل للزمخشرى وغيرهما .

وقد شرح المقدمة فضلا عن مؤلّفهـا كثيرٌ من مشائخ النحويين منهم ابو على الشلوبين الذي كان يُنكِر نسبتَها للجزولي ، له عليها شرحان كبير وصغير وقفتُ عليهما في مكتبة الاسكوريال إلا أن الكبيرِ غيرُ تام ، وممن شرحها أيضاً أحمد بن عبد النور المالَقي المتوفى سنة ٧٠٢ (١) وعلم الدين القاسم بن أحمد اللّوْرقي المتوفى سنة ٦٦١ وسعد بن أحمد الجُذامي الاندلسي المتوفى سنة ٦٤٥ وابن مالك الشهير ، وتقدمت خطبة شرحه لها وابن الفخّار وابن عُصْفور وابن مَيْمون القَلْعي متقدم الترجمة عن الغبريني وعز الدين العَجَمي وابراهيم ابن جعفر الإرْبِلي وأحمد بن الخبّاز ومحمد بن عبد الرحمن الخزرجي الشاطبي وغيرهم .

وهذه العناية الكبيرة من علماء النحو بهذه المقدمة إن دلّت على شيء ، فإنما تدل على أهميتها من الناحية الموضوعية ، وما كان لها من أثَرٍ على سيْر الدراسات النحوية بالمشرق والمغرب من الناحية التاريخية .

وإذ فرغنا من الكلام على الجزولية فلنتكلم على مؤلفها قليلاً :

---

١) قال في الاحاطة عند تعداد مؤلفات هذا الفاضل : وكتاب شرح الكامل لأبي موسى الجزولي يكون نحو الموطأ في الجرم .

يحدثنا ابنُ عبد الملك عن أخلاق الجزولي وصفاته فيقول : « وكان كبير النحاة غيرَ مُدافَع ... حافظاً للغة ضابطاً لما يُقيّد حسن الخط المشرقي وافِرَ الحظ من الفقه بارعاً في أصوله متعلقاً بطَرَف صالح من رواية الحديث مع الورع والزهد والتقشف والانقباض عن مخالطة الناس ومُداخلَة أبناء الدنيا وهو أول من أدخَلَ صَحاحَ الجوهري إلى المغرب » .

ثم يقول في وصف مجلس اقرائه : « وقد حدثني غير واحد ممن قد لقيه ان الاستاذ أبا علي الشلوبين قَدِمَ إلى مراكش أولَ قَدَماته عليها وهو مستعد بما عنده للظهور على من اشتملت عليه (من أهل العلم) بالعربية فدخل إليها من باب دُكّالة أحدِ أبوابها الشمالية وكان أبو موسى في ذلك الوقت يُدرّس في مسجد على الطريق بمقْرُبَة من ذلك الباب (فمرّ) به الاستاذ أبو علي وسمع أصواتَ طلبة العلم قد علت بالمذاكرة والمباحثة ، فسأل عن ذلك فأخْبِرَ أنه مجلس بعض أساتيذ العربية ، فدخل إليه متشوفاً ومتطلعاً على مراتِب طَلَبَة مراكش في النحو ، فألفاهم يتفاوضون في مسائل من النحو وبينما هو يستظرف مأخذَهم في المناظرة ، دخل أبو موسى رجلاً رقيق الأدَمة تعلوه صُفْرة ، ذا غَدِيرتَيْنِ مُبْتَذَل المَلْبس على رأسه قَلَنْسُوةُ عَزف ، على زِيّ ذوي المِهَن من برابرة البوادي ، وعندما أطلّ عليهم سكتوا وسكنوا له إجلالاً .

ولما استقر بأبي موسى المجلس أخذ يتكلم في بعض أبواب العربية بضبْط قوانينها وتقييد مسائلها وإحكام أصولها بما لا عهد لأبي علي بمثله ، فبُهِت عند ذلك وسُقِط في يده وقال : إذا كان مثلُ هذا الموضع الخامل الذي لا

يكاد يُؤْبَه له ولا يُعَدّ من كبار مجالس العلم لكونه في أُخرَيات البلد ، ينتصب للتدريس فيه مثلُ هذا البربري البعيد في بادىء الرأي عن التكلم فضلاً عن مثل هذا الاستبحار في النحو ، فما الظن بالمجالس المختلفة والمساجد المشهورة التي يعتني بها وبمُدرّسيها ولاةُ الامر ويعظمُ فيها الحفْل ويجتمع إليها أكابرُ طلبة العلم ، هذا بلد لا أسُودُ فيه بعلمي !

فانكفأ للحين من ذلك الموضع ولم يحُلّ بمراكش ولا حضر مجلساً من مجالس أساتيذها وعاد إلى بلده اشبيلية قاضياً العجب مما شاهده » . وقد حكى أبو علي اليُوسي في كتابه القانون هذه الحكاية على وجه آخر فقال :

وحدثونا عن الاستاذ أبي علي الشلوبين أنه دخل حضرة مراكش حرسها الله فوجد الشيخ الجزولي النحوي رحم الله الجميع ، يدرس في مسجده علم العربية ، فلما قعد إذا بين يديه حلقة من المبتدئين (وهو يخاطبهم) على قدر افهامهم ، فألقى عليه سؤالاً فأجابه بجواب مُتوسّط على قدرهم ثم ارتفعوا فجاءت حَلْقَةٌ أخرى للنجباء الشّادِين فكان يلقى حينئذ الاسئلة فيجيبه بغاية التحقيق والتدقيق » .

وهذه الرواية على انقطاعها لا تعارض روايةَ ابن عبد الملك الذي يعتبر كالمعاصر للجزولي ، وغاية ما تفيده ان الشلوبين كان هو المبـاشر للسؤال[1] وهو كذلك يكون أكثرَ استعداداً للمنافسة والتحامل .

---

١) ولعله بذلك جعله السيوطي في بغية الوعاة ممن أخذ عن الجزولي .

وأشار ابن عبد الملك إلى ما أدركه الجزولي من عظيم الشهرة فقال : « ولما شاع ذكرُ ابي موسى واشتهر أمرُه وعُرِف قدرُه تكاثرت طلبة العلم عليه ، وانثالوا من كل حَدَب إليه ، حتى ضاق عنهم ذلك المسجد الذي كان يدرس فيه ، فانتقل إلى مسجد ابن الأبْكَم شماليّ محلّة الشرقيين أسفَل ممَرّ باب أغْمَات الأعظم إلى جهة العوّادين » .

ثم ذكر اتصال خبره بالخليفة يعقوب المنصور الموحدي،وما كان من كشفه عن حاله لِمَا بلغه من زهده وورعه وافتتان الناس به،خشية ان يثور عليه منه شرّ ، فبعث إلى وزيره أبي زيد بن يُوجَان ونقيب طلبة العلم أبي القاسم بن أبي محمد المالَقي وأمرهما بالتوجه إليه وإحضاره بين يديه ، وأوعزَ إلى وزيره أنه ان وافقه على الوصول معه استصحبه مُكرّماً مبروراً وإن أبى أو تَلَكّأ ضرَب عُنقه في مجلسه وجاء اليه برأسه .

فتوجها إليه ولما دخلا عليه لم يعبأ بهما ولا عرف من هما وظنهما ممن يقصده لاقتباس العلم ، فلما انتهيا إليه سلّما عليه فرد عليهما السلام ومرّ في شأنه غيرَ مُعرّج عليهما فمكثا هنيئة فرأيا من حاله وهيئته ومعرفته وهيبته عند الحاضرين ما أوقع في نفوسهما اجلاله .

ثم دنا منه الوزير فقال له أجِبْ أمير المومنين ! فإنا رسُولاه إليك ، فسَبْحل وحَسْبَل وحَوْقَل وقال : ما لي ولأمير المومنين وأخذ يكررها فتشاغل عنه الوزير بالتكلم مع بعض من وَلِيَه من طلبة المجلس ، وأشار إلى رئيس الطلبة

بأن يلقي اليه ما يهون عليه إجابة الدعوة والعمل على إرضاء أمير المومنين ويُعرّض له بما تجرّه الاباية عن ذلك مما يحذر عليه فلم يزل يتلطف به حتى أجابه إلى ما دعي إليه على كُره منه ، وتوجه معهما وأخذ أبو القاسم يؤنسه ويلقي إليه صُورةَ لقائه المنصور كيف تكون ويؤكد عليه في موافقة أغراضه حتى انتهيا به إلى مجلس المنصور مُتلفّفاً في عباءة مُؤتزراً بقطعة ثوب من الصوف ؛ فتعجب من هيئته واختبره بكل وجه واستنطقه فألفاه أحد رجال الكمال فصاحة وديناً وفضلاً وعلماً ، فقرّبه وأدناه ولاطفه في المكالمة حتى أنّسه وأمر بنزع ما عليه من الثياب ولبس كسوة كاملة قد أُعِدّت له فامتثل ما أمر به عملاً على إشارة أبي القاسم ، ثم صرفه مكرماً منوهاً به وأصحبه النقيب أبا القاسم ابن المالقي مؤنساً إياه ، فلما انتهيا إلى باب السادة أحد أبواب القصر المفضية إلى ظاهره من خارج مراكش قُدّمت إليه بَغْلَة فارهة قد عُيّنت لركوبه فأشار عليه أبو القاسم بركوبها وتوجه معه نحو مراكش حتى دخلا على باب النصر وهو الجاري عليه اسم باب الرّبّ،وأبو موسى لا يعرف أين يتوجه حتى أفضيا إلى دار بمحلّة هَرْغَة ، فدخلا عليها فوجداها كأحسن ما يكون قد جُهّزت بما يحتاج إليه مثله من كتب العلم والفُرش والبُسُط والاثاث والمواعن والخُرْثِيّ والأطعمة على اختلاف أنواعها ، ولما استقرّا بالدار وتطوّفا عليها ورأيا جميع ما فيها أعلمه أبو القاسم أنها وجميع ما احتوت عليه ملك له وإنعام من أمير المومنين عليه وسلمها اليه وانصرف عنه .

وهذه الحكاية أشبه ما يكون بحكاية الطبيب أبي بكر بن زُهْر مع المنصور الموحدي نفسه ، وكان يحتبس الطبيب المذكور عنده المدة الطويلة فتشوق هذا

إلى أهله وولده وقال شعراً في ذلك فسمعه المنصور فأمر المهندسين بأن يبنوا داراً مثل داره في اشبيلية بمراكش وحارة مثل حارته في أقرب ما يكون من الوقت ونقل أهله وولده إليها ، ثم جيء به إليها فوقع له من السرور ما لم يدر به في يقظة هو أم في منام ، والحكاية مذكورة في كتب الأدب وقد أوردناها مع الشعر الذي قاله ابن زهر في كتاب النبوغ المغربي .

ثم يشير ابن عبد الملك إلى ما بلغه الجزولي عند المنصور من حظوة عظيمة فيقول : « ولم يزل (المنصور) بعد ذلك شديد العناية بأبي موسى راعياً له مُفيضاً عوارفه عليه ، متعهداً أحواله مُتبرّكاً (بالصلاة خلفه) وقدمه إلى الخطابة في جامعه الأعظم المتصل بقصره حين أتم بناءه ، فكان أول خطيب خطب به ، واستمرت حاله معه على ما ذكر من التنويه به واعتقاد الخير التام فيه ، ولما حضرت المنصور الوفاة عهد أن يتولى غسْلَه أبو موسى تبركاً به فكان كذلك ، وكان أبو العباس القوارئي (الجرّاوي) [1] على عادته في التنكيت على الناس والنيل منهم يقول إذا رأى أبا موسى : « الصّفْرة في الوجه كنز من الكنوز » .

قال : « وأخبرني غيرُ واحد ممن أثق به ان الفقيه المتفنن الورع المجمع على فضله أبا سعيد يَخْلفتن بن تَنْفليشت بن ابراهيم المتدرازي البُوغَاغي رحمه الله كان متى أشكل عليه شيء من علمِ العربية تعرّض لأبي موسى في طريقه

---

١) أنظر الجزء السادس من هذه السلسلة .

الذي جرت عادته بالمرور عليه من داره متوجّهاً إلى مجالس المنصور فيستفتيه في بعض ما يعرض له وأبو موسى راكب فيهم بالنزول إليه والمواعدة معه في الوصول إلى منزله أو الاجتماع به في أحد المساجد القريبة من موضع تلاقيهما أو الوقوف معه حتّى يفرغا من محاورتهما فيأبى أبو سعيد من ذلك كله إلا مماشاتَه على قدمه وأبو موسى راكب ، فكان أبو موسى يقلق لذلك كثيراً تواضعاً منه وإجلالاً لأبي سعيد ، ولا تسَعُه إلا مساعدَتُه فيأخذ معه فيما قصد إليه بسببه حتّى ينقضي أربه وينفصل عنه أبو سعيد متأسفاً عليه مسترجعاً قائلاً : أيّ رجل استمالته الدنيا واستهواه زُخرفُها ! ...

وكان هذا القول من أبي سعيد بناء على حالته التي ستره الله فيها وأعانه عليها ، وإلا فأبو موسى رحمه الله لم يتلبّس من الدنيا إلا بما يتظاهر به بين أبنائها تقيةً منه على نفسه ، فاما في باطن أمره وخفي حاله فانه كان على أرفع درجات الزهد والتقلل من الدنيا نفعه الله » .

ثم أشار ابن عبد الملك إلى وفاته فقال : «ولم يزل أبو موسى بعد وفاة المنصور خطيباً عند ابنه الناصر مكرماً لديه يستصحبه في أسفاره ويتبرك بلقائه إلى أن وجّهه رسولاً ومصلحاً في قضية بين صَنْهَاجَة الساكنين بأزمّور ، فتوفي هناك ليلةَ السبت الثالثة عشرة من شعبان سبعٍ وستمائة ودفن بتربة الشيخ الفاضل أبي شُعَيْب أيوب بن سعيد الصنهاجي المعروف بالسّارِية ، شهرةً عُرِفَ بها لطول قيامه في الصلاة » .

وهذا الذي ذكره في وفاته هو الذي ينبغي أن يُعوّل عليه لأنه مبين مفصل باليوم والشهر والمكان والسبب الذي من أجله توفي خارج مراكش ، فضلاً عما تدل عليه ترجمته عند ابن عبد الملك من الاطلاع على غالب أحواله التي انما استفدناها منه ، ولولاه لما عرف عن هذا الفاضل أكثر المعلومات المتعلقة بحياته .

وفي ابن خلكان أنه توفي ٦١٠ وعند ابن الأبار سنة ست أو سبع وستمائة وعند ابن قنفذ سنة ٦١٦ ومثله في طبقات الحضيكي ، وعلى ما عند ابن عبد الملك اقتصر السيوطي وابن العماد ، وفي كشف الظنون أنه توفي سنة ٦٧٧ وهو غلط لا شك فيه . كما ان ما في صلة الصلة من أنه مات قبيل سنة ٦٠٠ لا يعوّل عليه .

قال ابن عبد الملك : « وأخبرني غير واحد منهم الشيخ الفقيه المتخلق الفاضل أبو العباس أحمد بن عبدالله بن عبد العزيز بن عبدون البرّغُواطي الأصل الزّموري المولد والنشأة ... قال لما توفي أبو موسى الجزولي رحمه الله تفاوض أهلُ العلم والخير والصلاح في تعيين مَدْفَنه ، فقال بعضهم يُدفَن إزاءَ أبي شعيب لعله يجد بركةَ أبي شُعيب ، وكان ممن حضر ذلك المقام وتلك المفاوضة ، الفقيه أبو بكر بن محمد بن أبي بكر الزّناتي النحوي فقال نعم يُدْفَن معه حتى يجدَ أبو شعيب بركةَ أبي موسى ! لأنه كان في الصلاح والفضل مثلَه ويزيد أبو موسى عليه بفضيلة العلم فدُفِن إلى جنبه ، قال وقد

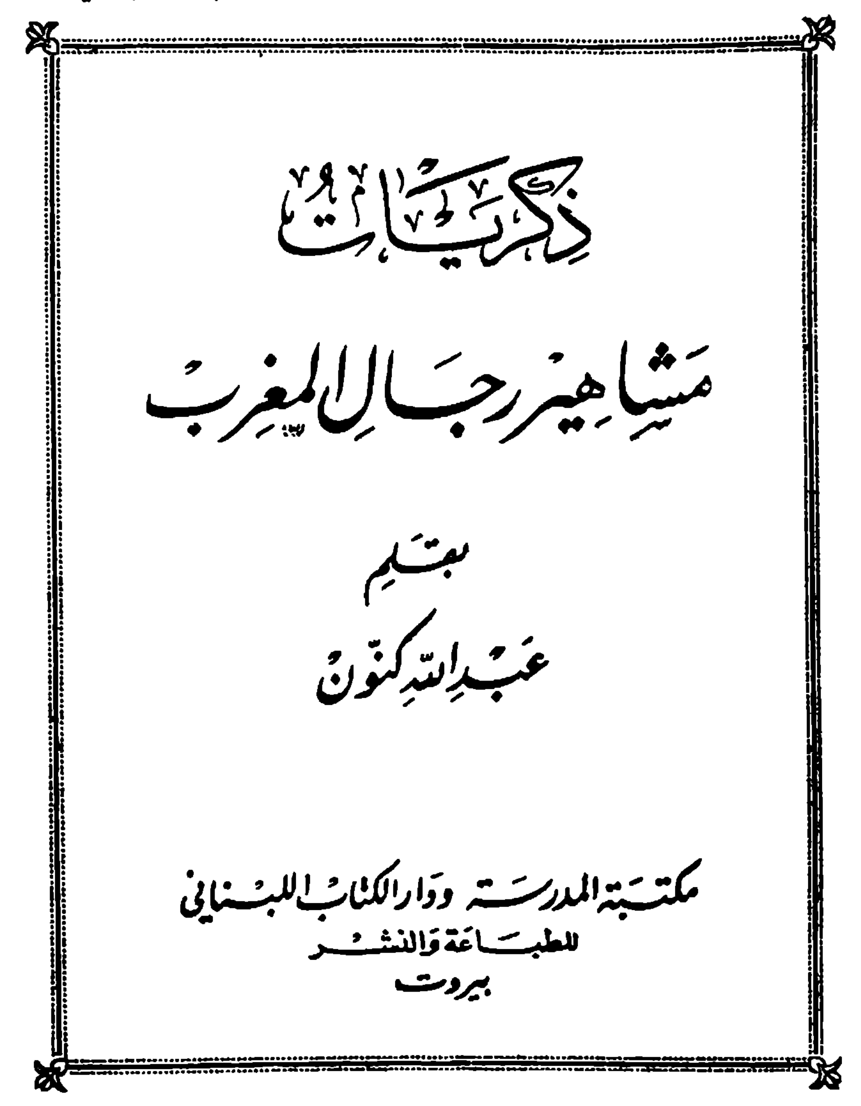
زُرْتُ قبره غير مرة ... وهو لاطىء بالارض وسط قبة بين قبري ابي شعيب المذكور وابن ابنه الناسك الورع أبي محمد رحمة الله عليهم أجمعين » .

وقد ختم ابن خلكان ترجمته بهذه اللطيفة قال : « وذكر بعض أصحابه أنه حضر عنده ليقرأ عليه قراءة أبي عَمْرو فقال بعض الحاضرين : أتريد أن تقرأ على الشيخ النحو ؟ قال فقلت : لا ، فسألني آخر فقلت : لا ، فأنشد الشيخ وقال قل لهم :

لستُ للنحْو جئتُكم	لا ولا فيه أرْغَبُ
خَلِّ زيْداً لشأنه	أينَما شاء يَذْهَبُ
أنا مالي ولامرىءٍ	أبَدَ الدّهْرِ يُضرَبُ ؟



المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المكتبات المدرسية



ذكريات
مشاهير رجال المغرب

بقلم

عبد الله كنون

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني
للطباعة والنشر
بيروت

طبع على مطابع دار الكتاب اللبناني
ماشر الشيع - بيروت - هاتف ٢٥٨٢٠


ابن آجرّوم
20



الامير جعفر الحسني يكتب عن الذكريات

نشرت مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق في جزئها الرابع من المجلد (٢٨) بقلم أمين المجمع الأمير جعفر الحسني ما يلي :

ذكريات مشاهير رجال المغرب

بقلم السيد عبدالله كنون

من مطبوعات معهد مولاي الحسن بتطوان

نشرها واضعها في ست[1] رسائل ترجم فيها لسبعة علماء من أهل المغرب العربي . خصّ الأولى منها بسيرة الامام المتكلم عثمان بن عبدالله السّلاجي من أهل فاس المتوفى سنة (٥٧٤) وهو صاحب المقدمة العَقَدية المعروفة (بالبرهانية) وترجم في الثانية لمحمد بن أحمد بن غازي العُثْماني المكناسي المتوفى سنة (٩١٩) وهو أحد علماء المغرب وأساتذته وله رسائل عديدة في الفقه والحديث والعربية والتاريخ والحساب .

---

1) صدر من هذه الرسائل لحد الآن ثلاثون رسالة ، والكاتب تناول سبعاً منها بالكلام كما يعرف من تمام هذا التعريف . فكأنك ان قوله ست هو سبق قلم .

وضمّن الثالثة ترجمة أبي العباس أحمد بن محمد بن الونّان المتوفى سنة (١١٨٧) وهو صاحب الأرجوزة المعروفة (بالشّمَقْمَقِيّة) .

وجاء في الرابعة بسيرة الشاعر المجيد محمد بن عَبْدُون المكناسي المتوفى سنة (٦٥٨) أو التي بعدها . وسيرة أحمد بن شعيب الجَزَنّائي المتوفى سنة (٧٤٩) وقد برع في الأدب واللسان والعلوم العقلية من الفلسفة والتعاليم والطب وغيرها .

وذكر في الخامسة سيرة القاضي المؤرخ الأديب البارع محمد بن أحمد بن شَبرين (بالباء الموحدة) المتوفى سنة (٧٤٧) وقد أجمع مترجموه على أنه كان « أديباً نابغاً ، نافس فحول النظم والنثر في عصره » كما اشتهر ببراعة الخط . خلّف ديوان شعر كبير وهو الآن في حكم المفقود ولم يعرف من نثره إلا اليسير .

وتناول في السادسة سيرة الخطيب محمد بن عمر بن رُشَيْد الفِهْري المتوفى سنة (٧٢١) وكان من أهل المعرفة بعلم القراءات والعربية وعلم البيان والأدب والعروض والقافية . رحل إلى المشرق وأدرك فيه جلة من مشائخ مصر والشام والحجاز أخذ منهم وروى عنهم . وله تآليف مهمة في علم الرواية والاسناد والعربية وأهم كتبه وصف رحلته إلى المشرق في ستة أجزاء .

وحوت السابعة سيرة عيسى بن عبد العزيز الجزولي البربري المتوفى سنة

(٦٠٧) رحل إلى المشرق وأخذ العربية عن ابن بَرّي بمصر ، وقد انتهت اليه الرياسة في علم النحو وهو صاحب المقدمة المشهورة التي سماها (القانون) وفيها قال ابن خلكان « ولقد اتى فيها بالعجب العجاب وهي في غاية الايجاز مع الاشتمال على شيء كثير من النحو ولم يُسبَق اليها » وللجزولي فضل في تجديد سنَد العربية باقطار المغرب في القرن السادس ، وانشاء المدرسة النحوية التي تهتم بالتقنين والتعليل وهو اول من ادخل صَحاحَ الجوهري الى المغرب .

وقد جمع مؤلف هذه الرسائل سِيَر هؤلاء العلماء من مراجع عديده وزاد عليها دراسات عصرية عن آثارهم العلمية ومكانتهم الاجتماعية ، وقد اجاد في التحليل وحسن التعريف . ومن وفاء المرء لقومه ووطنه احياءُ امجاد السلف وبعث آثارهم ومن هو اولى بنشر مآثر ماضي المغرب من ابنائه البررة ؟

فبارك الله في همة الاستاذ كنون ووفقه للاكثار من هذه التراجم التي فيها جذوة مثيرة وقدوة حميدة لكل عربي .

ابن آجروم

اسمه ونسبه - معنى آجروم - ولادته ونشأته - معارفه - انتصابه للتعليم وعموم النفع به - جملة ممن أخذ عنه من المشاهير - اطلاق اسم مقدمته الآجرومية على علم النحو - تقريظ الآجرومية وتحليلها - رد كلام دائرة المعارف فيها هل كان ابن آجروم كوفي المذهب ؟ عناية علماء المشرق والمغرب بالآجرومية - بقية كتب ابن آجروم - وفاته .

هو الاستاذ المقْرِيءُ النحوي الشهير ابو عبد الله محمد بن محمد داود الصنهاجي الفاسي عرف بابن آجُرّوم، وهي كلمة بربرية معناها الفقير الصوفي كما ذكره جميع من ترجما من المؤرخين او كتب على مقدمته من الشارحين . ولا يزال الشلُوح يستعملونها بهذا المعنى او ما يقرب منه لكن بلفظ أكُرّام وعلى كل حال فهي لقب تشريف عندهم وتقوم مقام السيد بالعربية ، ويقال ان جده داود هو اول من عرف بها .

واصله من صنْهاجة عمل بلدة صِفْرو . لكنه وُلد بفاس بعُدوة الاندلس منها عام اثنين وسبعين وستماية (672) وهي السنة التي توفي فيها ابن مالك

الامام النحوي المشهور فقيل تُوفي نحوي ووُلد نحوي ، ولعل هذا الاقـتران انما لوحظ بسبب جريان العمل في البلاد العربية منذ قرون بدراسة النحو في مقدمة ابن آجـرُّوم اولاً ثم في الفية ابن مالك ثانياً ، لا سيما وكثير ممن كتب على الآجرومية كتب ايضاً على الالفية فكانوا يبحثون عن ترجمة المؤلفين فوقع الاهتداء الى ان سنة وفاة ابن مالك هي سنة ولادة ابن آجروم فقيل هذا القول « توفي نحو ي وولد نحوي » ولقد كان هذا من غير شك خيراً ممـا قيل في ولادة عمر بن ابي ربيعة الشاعر الغَزِل المشهور ، ليلة وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان ابن ابي ربيعة قد اسرف في المجون والتعرض للحُرَم بشعره فقيل فيذكر هذا الاقتران بين وفاة الفاروق وولادة الشاعر : « أيّ حق رُفع ! وأي باطل وُضع ! » وفي ابن خلكان ان قائل ذلك هو الحسن البَصْري .

ولقد نشأ المترجم ودرس بفاس طبعاً ، وان كنا لا نعرف شيئاً عن نشأته ولا عن دراسته حتى شيوخه الذين اخذ عنهم لم يذكرهم أحد ، ماعدا اباحيان النحوي صاحب التفسير الكبير المعروف بالبحر المحيط فانهم ذكروا ان المترجم اخذ عنه بمصر في طريقه الى الحاج. على انه كان مشاركاً في العلوم ، ففضلاً عن القراآت والنحو اللذين اشتهر بهما ، كان له معلومات من فرائض وحساب وادب بارع كما يقول ابن مكتُوم من معاصريه ، فيما نقل عنه السيوطي في بغية الوعاة ، قال وهو مقيم بفاس يفيد اهلها معلوماته المذكورة .

وقال ابن القاضي في الجَذْوة انه كـان من مُؤدّبي اهل مدينـة فاس ،

فيظهر من هذا إنه بعد التحليصل وفراغه من القراءة انتصب للتعليم والاقراء بجامع الاندلس على ما في دائرة المعارف الاسلامية ، ولا غرو فقد كانت سكناه بعدوة الاندلس ، وعلى ما تفيده عبارة الجذوة فانه كان مُعلّم صِبْيان لانه المراد بالمؤدب اذا اطلق . وذلك لا يزيده الا رفعةَ قدر وعلوّ منزلة :

قُمْ للمُعَلّم وَفّهِ التبجيلا كاد المعلمُ ان يكون رَسُولا
أعلِمتَ اشرفَ او أجلّ من الذي يَبْني ويُنشيء انفساً وعقُولا

وقد كان هذا هو سر نجاح اسلافنا وبلوغهم الى اقصى الغايات في العلوم والمعارف حيث كانوا لا يَكِلُون تعليم ابنائهم الا الى كبار الاساتيذ الراسخين في العلم ، فسُرعانَ ما تظهر نجابتهم ويبدو تحصيلهم ، ولما صار التعليم حِرْفَةً يتعاطاها كل من هبّ ودبّ وصار أنصافُ المتعلمين يعدّون انفسهم من كبار الاساتيذ قلّ التحصيل وانعدم النفع وصارت البلاد الى ما هي عليه من توطّن الجهالة وغُرْبَة العلم ولا حول ولا قوة الا بالله .

وقد ذكر الكتاني في السلوة جملة من تلامذته فقال : « وأخذ عنه جماعة من الأئمة بفاس كالشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن شعيب الجزنّائي(1) والأستاذ الفقيه النحوي الصالح أبي محمد عبدالله بن عمر الوَانغيلي الضرير والقاضي أبي عبدالله محمد بن عبد المهيمن الحضرمي والفقيه الأستاذ المقرىء الأعرَف أبي العباس أحمد بن محمد بن حِزْب الله الخَزْرَجي . وممن أخذ عنه

1) أنظر الجزء 16 من هذه السلسلة .

أيضاً ولداه الأستاذ الأثير العالم الكبير أبو محمد عبدالله وبرسمه وضع والدُه المقدمة ... والأستاذ المحقق الناظم الناثر أبو عبدالله محمد المدعو بمَنْديل » وذكر السيوطي أنه رأى في تاريخ غرناطة أن محمداً بن علي بن عمر الغساني النحوي قرأ عليه بفاس .

فهؤلاء جملة من النوابغ في النحو والقراءات تخرجوا بالمترجَم وتأثروا به في الاختصاص بعلم العربية ، ولا شك ان هناك كثيرين غيرَهم من تلامذته المباشرين لم يحفظ لنا التاريخ أسماءهم . ونقول المباشرين لأن غيرهم المباشرين من تلامذته ونعني بهم الذين انتفعوا بمقدمته ؛ لا يحصون كثرة ولا يحيط بهم العدد . فقد غَبَرَ زمن طويل على العالم العربي لا يبتدىء أحد فيه دراسة علم النحو إلا ويجعل المقدمة الآجُرّومية أول ما يدرس وفاتحةَ ما يتلقى من هذه الدراسة حتى لقد صار اسمها عَلَماً على قواعد الإعراب وعلم النحو جملة فيقال أخذ الآجُرّومية مثلاً او اتقن آلاجدّومية ويُراد العلم لا الكتاب وذلك من كثرة ما شاعت هذه المقدمة بين المتعلمين ووقع التعويل عليها في تلقين قواعد اللغة العربية للمبتدئين . وأيضاً للموافقة اللفظية بين هذه التسمية وهي الآجرومية نسبة لابن آجُرّوم وبين اسم النحو في اللغة اليونانية ثم في اللاتينية .

وجاء في مجلة المقتطف (عدد مارس سنة ١٩١١) من مقال لصاحبها الدكتور يعقوب صرّوف ما نصه : « وأول من وضع علم النحو أو قواعد علم اللغة وتركيب الألفاظ فيما يُعلَم اليونان ، والظاهر أنهم وضعوها لكي

يسهّلوا تعليم لغتهم على الطلبة من الرومانيين . والمعروف أن ديونيسيوس تراكس ألّف غَرَامَاطِيقا في زمن بمبيوس قبل المسيح بنحو سبعين سنة ، فكان أساس كل الآجُرُّوميات التي ألّفت بعده . وقد حُدِّد هذا العلم بأنه معرفة لغة العلماء في أقسامها الستة أي علم اللفظ والشكل (أو الاعراب) وعلم تفسير الكلام المجازي وعلم التعريف أو التحديد وعلم الاشتقاق وعلم التصريف وعلم النقد . وعلى هذا المبدأ ألف الآجروميات في رومية والاسكندرية ووصلت الى السّريان فالعرب . ويظهر لنا ان كلمة آجرومية بالعربية هي نفس كلمة اغراما اليونانية او غرماريا اللاتينية . نعم إن الزّبيدي قال في تاج العروس ان مؤلف الآجرومية هو ابن آجرّوم فنسبت اليه ولكن المأثور ان مؤلفها هو الشيخ ابو عبد الله محمد بن داود الصنهاجي ولا ذكر لآجرّوم في ترجمته » .

ولا يخفى ما فيه من القصور فان صاحب هذه المقدمة قد اشتهر بابن آجروم اكثر مما اشتهر باسمه ولا تخلو ترجمة له من ذكر هذه الكُنْية وذكرمعناها بالعربية وهو الفقير الصوفي وآجرومية مادة ليس لها وجود في اللغة العربية فاحرى ان يكون معناها هو معنا كلمة « كراماطيكا » اللاتينية او اليونانية وانما جاء هذا التشابه في اللفظ موافقاً للمعنى الجديد الذي اكتسبه ذلك الاسم في اللغة العربية فأوْهَم أنه أصيل مثل الكلمة الأعجمية وليس كذلك . وهذا ان دلّ على شيء فإنما يدلّ على التوفيق الذي أصابه هذا المؤلف وأخطأه كثيرون غيره من واضعي العلوم بَلْهَ المؤلفين فيها فقط . فسيبويه الذي هذّب هذا

العلم وجمع شوارده في « الكتاب » لم يُطلَق اسمه عليه وابن آجروم الذي كتب فيه هذه الورقات (وجمع السلامة للقِلّة) اشتهر اسمه وشرّق وغرّب حتى أطلق على نفس العلم وصار مُرادِفاً له تقريباً والدنيا حظوظ كما يقولون ! ...

ولئن عزا بعضُهم هذا إلى صدق النية والاخلاص وانه ألفها تجاهَ الكعبة الشريفة ، فانه لا ينبغي ان يُغفَل الجانب المادي في ذلك وهو طريقة التأليف فإن هذه المقدمة امتازت عن كتب النحو الأخرى بأشياء : منها اختصارها الذي جعلَها سهلة التناوُل بحيث تُطمِعُ كلّ قارىء في تحصيلها لأنها بِضْعُ ورَقات . ومنها حسن ترتيبها فإنها ألمّتْ بأبواب النحو في تسلسل طبَعي من أقسام الكلام وأقسام الاعراب وعلاماته ثم المعرَب من الفعل والاسم إذْ كان الغرَضُ المهمّ من معرفة النحو هو إعراب الكلام وما عدا ذلك من المشاكل فانما أشارت له إشارةً خفيفة في ضِمْن هذه الأبواب فلم تُشوّش به ذِهْنَ الطالب . ومنها اعتمادُها على القواعد الجلية والعلامات الظاهرة كما في تعريفها للاسم والفعل والاعراب ونحو ذلك ومنها ذكرها لأكثر عدد ممكن من أقسام الحرف كحروف الجر والنصب وأدوات الجزم لأنها فضلاً عمّا تفيده من التمييز بينها وبين الفعل والاسم فان الطالب يُحِسّ ما تحدثه من الأثر في أواخر الكَلِم وذلك غرض مهم في هذا العلم . ومنها ، وهو طريف جداً وأظن أنها مما اختصت به ، هذا التحصيل المفيد لعلامات الاعراب . الأصول والفروع في (فصل المعربات قسمان) الذي ذكره ابن آجُرّوم بعد (باب معرفة علامات

الاعراب) وجعله كالتمرين للطالب الذي يَضِلّ ذهنُه في تيه تلك العلامات المتشعبة .

وإذا علمنا أن مَدار النحو كله على معرفة الاعراب واتقان أحكامه، علمنا مقدار أهمية هذا التحصيل وذكْر العلامات مقسمةً إلى حروف وحركات بعد ذكرها مجتمعة بحسب أنواع الاعراب .

وهذا التمرين مع ما ذُكِر قبله هو الذي جعلها كأحد هذه التآليف المدرسية الناجحة التي روعي فيها نفسية الطفل وأصول التربية الحديثة بالتدرّج من المحسوس إلى المعقول ومن البسيط إلى المركب ، ولذلك نراها كثيراً ما تُستعملُ حتى في المدارس العصرية اليوم ، وكم وضع لها المدرسون العصريون من تمارين وجداول صرفية وأمثولات مما يدل على شدة عنايتهم بها ومزيد حرصهم عليها .

هذا وجاء في دائرة المعارف الإسلامية في ترجمة ابن آجروم عند الكلام على مقدمته الآجرومية ما نصه : « وهذا الكتاب ، وهو مُوجز مُمْعِن في في الايجاز « بجُمَل » ابي القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزّجاجي صار بفضل ايجازه الذي أكسبه الحُظْوة حتى اليوم من المحيط الأطلسي إلى نهر الفُرات ، أساساً للدراسة النحوية . وهو يُحفَظ بسهولة عن ظهر قلب في المدارس لإيجازه ولو أن هذا الايجاز ضحّى بالوضوح وجلعه قليل النفع للمبتدئين الذين يحتاجون إلى بسطٍ أوْفَى للقواعد » .

فاما كونه قليل النفع للمبتدئين بسبب افراط إيجازه فهذا مردود بقولها ان

ذلك الايجار اكسبه الحظوة لدى العالم العربي كله وجعله اساساً للدراسة النحوية فيه فليت شعري لو كان قليل النفع لِماذا حظى عند الناس ولماذا اعتمدوه في الدراسة الاولية لعلم النحو قروناً متطاولة وحفظه التلاميذ عن ظهر قلب في المشرق والمغرب ولقنوا منه مباديء العربية ولم يشتَكُوا من فرط ايجازه ولا من قلة نفعه بل نراهم هم وشيوخهم يتمسكون به ولا يبغون عنه بديلاً والكل يعترف بما افاد منه ويقِرّ بانه هو الذي فتح له باب الفهم لقواعد الاعراب ؟

والناس اكيَس من ان يمدحوا رجلاً حتى يروا عنده آثار إحسان

واما كونه موجزاً ممعناً في الايجاز لجمل الزجاجي فانه اسراف في القول وظُلْم فادح لابن آجروم رحمه الله . وقد كتب الناس على هذه المقدمة كثيراً وبحثوا فيها طويلاً وشرحوا الفاظها وحلّلوا كلماتها في الوقت الذي كان فيه جُمَلُ الزجاجي لا يزال مدروساً ومن الكتب المعتمدة لطلاب هذا العلم وما قال قائل منهم ان الآجرومية مأخوذة من الجمل ولا انها مختصر له . نعم ان هناك الفاظاً متشابهة مما يتداوله النحاة في بعض التعاريف والامثلة والاحكام وهي ليست حبُساً على الزجاجي حتى لا يجوز ان يستعملها ابن آجروم مثلا .

ولعل هذا هو الذي غرّ الاستاذ ابنَ ابي شنَب ناشرَ جمل الزجاجي وكاتب ترجمة ابن آجروم في دائرة المعارف الاسلامية فحكم بان الآجرومية مختصر للجمل ، ولو نظر الى مجرد افتتاحها ثم ترتيبها الـــذي لا يتوافق وترتيب الجمل لما جازف بذلك القول . فان ابن آجروم افتتح مقدمته بتعريف الكلام ثم ذكر اقسامه ، والزجاجي انما بدأ بذكر الاقسام فالتعريفُ اذن من زيادات الآجرومية على الجمل ، والموجَزُ الممعن في الايجاز لا يكون زائداً .

ثم بعد ان ذكر الاعراب مُعرّفاً له ايضاً ، في حين ان الزجاجي لم يعرفه ، ذكر اقسامه وعلاماته . وهذا الترتيب مما توافق عليه اكثر النحويين وقدوتُهم فيه هو « الكتاب » لامامهم سيبويه .

وقد تزيد ابن آجروم في هذا الكتاب ايضاً بفصْل المعربات قسمان الذي سبق الكلام عليه فانه من باب التمرين ، والموجز المعن في الايجاز من اي كتاب لا يتزيد عليه بأشياء وفصول .

ومن باب الافعال التي تأتي بعد ذلك يختلف الترتيب تماماً فيأخذ ابن آجروم في ذكر ابواب النحو متسلسلة تسلسلاً طبيعياً ، فهذه ابواب المرفوعات تَسْتَتْلِي بعد استيفائها ابوابَ التوابع ثم ابواب المنصوبات ثم المخفوضات وليس الامر كذلك في الجمل كما يُعرَفُ بالاطلاع عليه .

ولولا خوف الاطالة لتوسعنا في بيان بطلان هذا القول من ان الآجرومية مختصر للجمل ويكفي هذا القدر الآن فان المسألة من الوضوح بحيث لا تحتاج الى مزيد بيان .

وها هنا بحث لطيف اشار له الجلال السيوطي في بغية الوعاة حيث قال : « وهنا شيء آخر وهو أنّا استفدنا من مقدمته انه كان على مذهب الكوفيين في النحو لانه عبّر بالخفض وهو عبارتهم وقال الامرُ مجزُوم وهو ظاهر في انه معرّب وهو رأيهم وذكر في الجوازم كيفما والجزم بها رأيهم وانكره البصريون فتفطّنْ » هـ .

وقال العلامة السّوداني في شرحه على هذه المقدمة عَقِب كلام السيوطي هذا : « وقلت زيادة على ذلك وذكر في حروف الجر واورُب وهو مذهب كوفي ومذهب البصري ان الجارّ هو رب المحذوفة وعبّر بالنعت وهو عبارةُ الكوفي وعبارة البصري الوصف والصفة كما ذكر ابو حيان . ولم يُتَرجِم لعطف البيان وذكر الأعْلَمُ انه لا يُتَرجم له الكوفي وانما يترجم له البصري وحدّ الاعراب على القول بانه معنوي وهو قولهم ، وقال في لا تنصب النكراتِ بغير تنوين وهو قولهم وقال البصرى مبني ، وذكر من النواصب حتى وقال البصرية النصب بعدها بأن مضمرة » .

ثم قال السوداني (تعقّب) لا يَنْهَضُ هذا كلهُ دليلاً على انه كوفي المذهب في النحو لِمَا وجدناه كثيراً في هذه المقدمة على مذهب البصريين وآرائها واصطلاحاتها كقوله واقسامُه اربعة ، قالوا ثلاثة باسقط الجزم ، وقال المنصرف والاسم الذي لا ينصرِف وقالوا المُجرَى والاسم الذي لا يُجرى ومنها قوله الافعال ثلاثة وقالوا الفعل قسمان ، وقوله المذكور قبله فعله وقالوا يجوز تقديم الفاعل على فعله ، وقوله العاري عن العوامل اللفظية وقالوا مرفوع بالخبر وقوله في كان ترفع المبتدأ وقالوا مرفوع بما كان به مرفوعاً قبل دخول كان ، وقوله تنصِبُ الخبر على انه خبرُها وقالوا على انه حال ، وفي إنّ ترفع الخبر وقالوا هو مرفوع بما كان مرفوعاً به قبل دخول إن ، وفي ظن تنصبهما على انهما مفعولان لها وقالوا على ان الثاني حال ، وقال الضمير والمُضْمَر وعبارتُهم الكناية والمكْنِي . وقال التوكيد

تابع للمؤكد في رفعه ونصبه وخفضه وتعريفه فقط وقالوا وفي تنكيره . وقال البَدل وعبارتهم الترجمة والتبيْين والتكرير . وقال الظرف خ (1) هو تسمية البصريين وقوله في الخبر (الجار والمجرور والظرف) وفي الاستثناء (مجرور) لا غير ، يجوز (جره) ونصبه وقوله (يجوز) فيه البدل يعني ان الاتباع فيه على البَدَلية وقالوا معطوف عطف نسَق والا عندهم من حروف العطف وقوله في المنادى يبنيان على الضم وقالوا يعربان بغير تنوين وعدّ رب في حروف الجر وقالوا اسم انتهى والله اعلم .

قلت حرّر العلامة السوداني هذا المبحث بما لا مزيد عليه وخلاصته انه لا يمكن ان يجزم بان ابن آجروم كوفي المذهب في النحو ولا بَصريه لانه جارَى المذهبين معاً واخذ من المدرستَيْن كلتَيْهما ، وما احسن ما قال الشيخ ابن عَجيبة في شرحه على الآجرومية عند تعريفه بالمؤلف : « وتمهّر في علم العربية فكان يجتهد فيها لا يتَقَيّد بمذهب البصريين ولا مذهب الكوفيين بل يميل مع الحق اينما ظهر له » هـ . وهذا هو عينُ الصواب وهو في نظرنا مما مهّد لمقدمته وجعلها تنتشر هذا الانتشار العظيم بين الناس .

وقد كنا وما زلنا مُعجَبين ببعض اصطلاحاته فيها ومنها قوله في النواصب ان الناصب هو نفسُ كي ولام كي ولامُ الجحود وحتى والفاءُ والواو في الجواب وأوْ ؛ فانه اقربُ للانسجام مع بقية النواصب ، وما أثقلَ تقديرَ أنْ

1) يرمز بالخاء إلى الشيخ خالد الأزهري .

مُضمرَةً وجوباً او جوازاً وتقرَيرها للمبتدئين وزَعْمَ أنّ النصب بها لا بهذه الحروف ! فلو ان المصنّفين في النحو بعد ابن آجروم درَجوا على هذا المبدأ من تحقيق النظر واعتماد الاختيار من مذاهب النحاة بصريين وكوفيين لسهُل النحو ودفت قطوفه للطالبين ولكنه الجمودُ عمّ فاعمَى والامر لله من قبل ومن بعد !

وقد اعتنى العلماء ، بهذه المقدمة عناية كبيرة فشرحوها شروحاً عديدة ونظموها انظاماً مختلفة وشرحوا هذه الانظام وحشّوْا على الجميع واعربُوها وكتبوا مُتممات لها ووضعوا تمارين عليها ، الشيء الذي يفوتُ الحصر ولا يكاد يحصيه أحد .

واذكر اني في حالة الصبا لما اخذت في طلب النحو كنت اردد النظر فيما بين عشرة شروح لها او تزيد فضلاً عن الشرح المقرر الذي كانت به القراءة وهو شرح الشيخ خالد الازهري رحمه الله .

فمن اشهر شروحها وهو اول ما كتب عليها شرحُ ابي عبد الله الشريف من اهل فاس وهو شرح مبسوط يعتني بتفسير الفاظها لفظاً لفظاً ثم يذكر المعنى بوضوح تام ثم يعرب الفاظها اعراباً كاملاً . ويظهر ان هذا الشرح كان له رواج كبير بين المتعلمين ولذلك شرح الشيخ احمد الدّقّون شواهدَه الشعرية. ومن شروحها المشهورة شرح الرّاعي النحوي الاندلسي المشهور وهو شرح مبسوط ايضاً كثيرا الفوائد . ومن شروحها المبسوطة كذلك شرح العلامة

السّوداني المشهور وهو عامر بالشواهد والابيات والفوائد العلمية وعلى هذا الشرح حاشية للعلامة المهدي الوزّاني طُبِعا معاً بفاس ، ومن شروحها الواسعة المادة الغزيرة الفائدة شرح الشيخ على بَرَكةُ عالِم تطوان المشهور وهو في سفر كبير .

ومن شروحها المختصرة شرح العلامة المكُودي النحوي المغربي المشهور وهو مطبوع ولم يقع عليه اقبال كما وقع على شرحه للالفية . ومن شروحها المتوسطة شرح الشيخ خالد الازهري وهو شرح مفيد وقع الاقبال عليه كثيراً واقتصر طلابها على الدراسة به ، وعليه حواشٍ عديدة منها حاشية الشيخ ابي النجّا المِصري ومنها حاشية الشيخ احمد بن الحاج الفاسي وهي كثيرة الفوائد مشهورة بين الطلبة ومنها حاشية الشيخ اسماعيل الآبي الازهري وكلها مطبوعة ومن شروحها الشهيرة شرح الشيخ حسن الكَفراوي وهو يعتني باعرابها الكامل والطلبة يحبّونه لانه يُدرّبهم على الاعراب . وعليه حاشية للحامدي طُبِعاً معا بمصر . ومنها شرح العلامة احمد زينسى ومكان مطبوع بمصر وهو مختصر جداً . ومنها شرح العلامة احمد الرهوني بما ان تسهيل الفهوم لمقدمة ابن آجرّوم ومنها شرح الاستاذ الكحدلي وهذان الاخيران مطبوعان في تطوان وصاحباهما مُعاصران . ومن الحواشي المباشرة على الآجرومية حاشية الشيخ عبد الله العشماوي بمصر .

ومن اغرب الشروح عليها شرحُ الشيخ ابي العباس بن عَجيبة الصوفي

المشهور وهو شرح مزدوج يُشبِع الكلام على الناحية النحوية ثم يتبعه بالكلام على الاغراض الصوفية وذلك بطريق الاشارة اعني تنزيل كلام القوم على ألفاظ المقدمة واقتصر على الناحية الإشارية منه العلامة الكُوهَن في شرح سماه مُنيةَ الفقير المتجرّد وهو مطبوع . وذكر ابن عسكَر في ترجمة الشريف ابن ميمون ان له على الآجرومية شرحاً بالتوحيد وربما يكون ابنُ عجيبة نسَج على منواله.

ومما كُتِب عليها في غير اسلوب الشروح كتاب مُتمّمة الآجرومية للعلامة الحطاب وهي بشكل محاذٍ وتكميل وعليها شرح للفاكِهي وآخرُ للأهْدَل طُبِع الجميع بمصر ومن ذلك ايضاً كتاب التمارين العصرية للعلامة أقَصْبِي وهو جملة من التمارين والاختبارات تتنزّل عليها قواعد العلم على حسب ابواب المقدمة .

واما النظم فقد نظمها علي بن حسن الشافعي المُقْري في قصيدة من بحرالطويل و؛ حها بشرح سماه التحفة البهية . ونظمها شرف الدين العمْريطي في رجز حُلْو يقول فيه :

وبعد فاعْلَم أنه لما اقتصر	جلّ الورى على الكلام المختصر
وكان مطلوباً اشدّ الطلَب	من الورى حفظُ اللسان العربي
كي يفهموا معاني القرآن	والسنةِ الدقيقة المعاني
والنحوُ اولى أولاً ان يُعلَما	إذِ الكلام دونه لن يفهما
وكان خيرُ كُتْبه الصغيرة	كراسةٌ لطيفة شهيرة
في عُربها وعُجمها والروم	ألّفا الحبْرُ ابنُ آجُرّوم

وانتفعت أجلـــةٌ بعلمهـــا　　مع ما تراه من صغير حجمها
نظمتُها نظماً بديعـاً مُقتـد　　بالاصل في تقريبها للمبتدي

... الخ وشرح هذا النظم العلامة الباجوري وهو مطبوع كما نظمها الاستاذ ميمُون مولى الفخّار في رجز يقول فيه :

والقصدُ من ذا الرّجَز المقرّب　　تعليمُ اولاد صِغَار المكْتَب
عسى الذي منهم بـه تعلّما　　يقولُ يا ربّ ارْحَم المعلّما
لما رأيتُهم شَقَوُا وتعِبـوا　　في جمع منثور ولم يقْترِبُوا
أيقنتُ ان النظم فيما أدري　　اشهى واولى من نفيس النثر

... الخ وعلى هذا النظم شرحان لعمّنا محمد بن التهامي كنّون كبـير وصغـير .

هذا بعض ما اولاه علماؤنا لهذه المقدمة من عناية . ولو ذهبنا نستقصي كل ما كُتِب عليها من شرح وتعليق لطال بنا الكلام .

واما علماء الغرب فلم يالوا اهتماماً بها ، شأنهم في كل كتاب له قيمـة علمية من كتب العرب وقد طبعوها مراراً عديـدة وترجموهـا الى لغاتهم كاللاتينية والانجليزية والالمانية والفرنسية وكانت اولى طبعة لها بروما سنة 1592 انظر دائرة المعارف الاسلامية ومعجم المطبوعات .

وللمترجم رحمه الله من غير المقدمة شرح على (حِرْزِ الأماني) المنظومة المعروفة بالشاطبية في القراآت ، لانه كان ذا قَدم راسخةٍ في هذا العلم أخذه الناس عنه وانتفعوا به فيه وقد رأيت في بعض شروح الخرّاز أنّه ممن أخذ عن المترجم .

وله ايضاً انظام في علم القراآت منها رجَزٌ في قراءة نافع سماه (البارع) فرغ منه في عام 696 كما بآخره نظْماً . واوله :

يقول من عفو الاله راج — وعونَه محمدُ الصّنهاجي
اللهَ احمدُ الذي هدانا — ومَنّ ان علّمنا القرآنا
وخصّنا بأكْرَم البَريئَة — محمد وخاتم النّبوءة
صلّى عليه الله مِن رسُول — وصَحْبِه طرّاً ذوي التفضيل
وبعدُ فالقصدُ بهذا الرجز — مَقْرَأُ نَافِع بلفظٍ مُوجَز

... الخ ولا شك ان له غيرَ ذلك ولم نقف الا ى ما ذكر .

وكانت وفاته رحمه الله يوم الاحد بعد الزوال لِعشر بقيت من صفَر عام 723 ودفن من الغد بعد صلاة الظهر بباب الجِيزيين وهو المعروف اليوم بباب الحَمْراء عن يمين باب الفتوح . كذا لجميع من ترجموه وفي حاشية العلامة ابن الحاج انه توفي يوم الاثنين ولعله اعتبر يوم الدفن فقط والعلم لله .

المجلد الأول	المجلد الثاني	المجلد الثالث	المجلد الرابع	المجلد الخامس
عبد العزيز الفشتالي	عثمان السلاليجي	أبو القاسم الشريف	إبن الياسمين	أحمد بن شعيب الجرنائي
أبو القاسم الزياني	ابن غازي	ابن الحاج الفاسي	ابن البناء العددي	ابن هاني السبتي
الوزير ابن ادريس	ابن زكور	أحمد زروق	الإمام إدريس	محمد المسناوي
إكنسوس	ابو الطيب العلمي	الشريف الإدريسي	أبو عمران الفسي	محمد بن المدني كنون
أبو جعفر بن عطية	ابن الونان	ابن بطوطة	السلطان محمد بن عبدالله	عبد الملك المعتصم
ابو العباس الجراوي	ابن عبدون المكناسي	عبد المهيمن الحضرمي	الأصيلي	محمد الخامس
ميمون الخطابي	أبو بكر بن شبرين	ابو العباس العزفي	عبدالله بن ياسمين	محمد بن عبدالكريم الخطابي
مالك بن مرحل	إبن رشيد	عبد الواحد المراكشي	يوسف بن تشفين	سابق البربري
عبد العزيزالملزوزي	أبو موسى الجازولي	ابن أبي زرع	ابن حبوس الفاسي	النابغة الهوزالي
الأمير سليمان الموحد	ابن أجروم	أبو حفص بن عمر	ابن زنباع الطنجي	أبو الحسن المسفر